للكنيسة القبطية
الأرثوذكسية

طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

٣/٣

تسبحة
نصف الليل والسحر

طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

٣/٣

تسبحة
نصف الليل والسحر

الكتـــــاب: تسبحة نصف اللّيل والسَّحَر
الكـــــاتب: أثناسيوس (راهب من الكنيسة القبطيَّة)
المطـــــبعة: دار نوبار ٦أ شارع مدرسة المعلّمين، شبرا، القاهرة
الطبـــــعة: الأولى، نوفمبر ٢٠٠٥م
الترقيم الدولى : 977-240-238-6
رقـم الإيـداع : ١٣٧٧٤ / ٢٠٠٥

كافة حقوق الطّبع والنّشر محفوظة للمؤلّف

قداسة البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

مقدّمة عامة ١٣

الباب الأوّل: إطلالة شاملة

الفَصل الأوّل: تسبحة نصف اللّيل في القرون الأربعة الأولى ٢٩

أقدم سهر ليلي عرفته الكنيسة الجامعة ٣٠
السَّهَر اللّيلي في كنيسة الإسكندريَّة ٣١
السَّهَر اللّيلي في كنيسة أورشليم ٣٥
انتشار السَّهَر اللّيلي في كل كنائس المسكونة ٤٠
وصف للسَّهَر اللّيلي في أحد أديرة أنطاكية ٤٣
توضيح لبعض المصطلحات الأجنبيَّة ٤٨

الفَصل الثّاني: الأصول الأولى لتسبحتي نصف اللّيل والسَّحَر والعلاقة بينهما ٥١

تمهيد ٥٢
أولاً: أقدم العناصر الليتورجيَّة لصلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة ٥٦
ثانياً: المكان الطّقسي السَّحيق في القدم لمزامير تسبحة السَّحَر ٥٨
الخلاصة ٦٩
ثالثاً: العلاقة بين تسبحة نصف اللّيل وتسبحة السَّحَر ٧٣
خدمة صلاة واحدة أم خدمتان ٧٧
الخلاصة ٧٨

الفَصل الثَّالث: عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطقوس الشرقيَّة ٨٣
تمهيد ٨٤
عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطَّقس الأرمني ٨٥
عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطَّقس السِّرياني الأنطاكي ٨٦
عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطَّقس الكلداني ٨٧
عناصر تسبحة السَّحَر الكاتدارئيَّة في الطَّقس الكلداني ٨٩
تسبحة نصف الليل والسَّهر الكاتدرائي في الطَّقس البيزنطي ٩١
عناصر تسبحة نصف اللَّيل البيزنطيَّة ٩٢
عناصر تسبحة السَّحَر الكاتدارئيَّة البيزنطيَّة ٩٢
خدمة السَّهَر اللَّيلي في كنيسة روسيا ٩٣
عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطَّقس الإثيوبي ٩٦
عناصر تسبحة نصف الليل والسَّحَر في الطَّقس القبطي ٩٧

الباب الثاني: الطَّقس القبطي لتسبحة نصف اللَّيل

الفَصل الأوَّل: حول أنواع التَّسبيح وطرائقه ١٠١
أولاً: أنواع التَّسبيح ١٠٢
ثانياً: طرائق التَّسبيح ١٠٥

الفَصل الثَّاني: مقدِّمة تسبحة نصف اللَّيل القبطيَّة ومزامير صلاة نصف اللَّيل ١٠٩
مقدِّمة الصَّلاة ١١٠
الخلاصة ١١٥
حول مديح الآدام "قوموا يا بني النُّور" ١١٥
مزامير صلاة نصف اللَّيل ١١٧

الفَصل الثَّالث: لحن "هلليلويا" الكبير ١١٩

الفَصل الرَّابع: مديح القيامة ١٢٣

الاسم الطَّقسي ١٢٤

مديح القيامة ذات أصل إسكندري ١٢٥

متى يُرتَّل هذا المديح في الكنيسة؟ ١٢٥

الكتب التي تحوي نص مديح القيامة ١٢٦

قانون القيامة في الكنيسة اليونانيَّة ١٢٧

مقابلة بين التَّرجمة العربيَّة للنَّصين القبطي واليوناني ١٢٨

تعقيبات على النَّص ١٣٤

الفَصل الخَامس: الهوس الأوَّل ١٣٩

تعريف بأصالة تسبحة موسى (الهوس الأول) في الكنيسة ١٤٠

حول النَّص القبطي لتسبحة موسى ١٤٣

حول المعاني الرُّوحية لتسبحة عبور البحر الأحمر ١٥٠

معنى تمجيد الله ١٥٣

الهوس الأوَّل في التَّسابيح الأخرى في الكنيسة القبطيَّة ١٥٤

لُبش الهوس الأوَّل ١٥٦

الفَصل السَّادس: الهوس الثاني ١٥٩

البداية الطَّقسيَّة لترتيل الهوس الثاني ١٦٠

التَّرجمة العربية للنَّص القبطي للمزمور (١٣٥) ١٦١

لبش الهوس الثَّاني ١٦٦

الفَصل السَّابع: الهوس الثَّالث ١٦٧

تمهيد ١٦٨

تسبحة الثَّلاثة فتية هي تسبحة الكنيسة كلها ١٦٩

أقدم إشارة عن الهوس الثَّالث في الكنيسة القبطيَّة ١٧١

حول نص الهوس الثّالث ١٧١
السّتة أرباع الأولى من الهوس الثّالث ١٧٣
باقي الأرباع الأربعة والثّلاثون ١٧٥
تسبحة الثلاثة فتية في الكنيسة اليونانيّة ١٨٢

الفَصل الثّامن: ملحقات الهوس الثّالث ١٨٥

أولاً: إبصاليّة واطس رومي للثّلاثة فتية القدّيسين ١٨٦
ثانياً: قطعة يونانيّة تقال باللّحن للثّلاثة فتية القدّيسين ١٩٢
حول أول كلمتين يونانيتين لهذه القطعة ١٩٥
مناسبة ترتيل لحن ⲉⲛⲉⲛ ENEN (تينين) ١٩٦
ثالثاً: مديح يقال باللّحن للثّلاثة فتية القدّيسين ١٩٨

الفَصل التّاسع: مجمع القدّيسين ٢٠١

تمهيد ٢٠٢
القسم الأوّل من المجمع ٢٠٢
القسم الثّاني من المجمع ٢٠٣
القسم الثّالث من المجمع ٢٠٣
القسم الرّابع من المجمع ٢٠٣
الرُّبعان الأخيران من المجمع ٢٠٤

الفَصل العاشر: الذُّكصولوجيّات ٢١١

تمهيد ٢١٢
أنواع الذُّكصولوجيّات ٢١٣
الكتب الكنسيّة التي تحوي نصوص الذُّكصولوجيّات ٢١٤
مقدّمة الذُّكصولوجيّات الواطس ٢١٥
ختام الذُّكصولوجيّات الواطس ٢١٦
أولاً: الذُّكصولوجيّات التي وصلت إلينا بالنّص القبطي البحيري ٢١٦
(أ) الذُّكصولوجيّات الواطس ٢١٧

(ب) الذُّكصولوجيَّات الآدام ٢٢٣
ثانياً: الذُّكصولوجيَّات التي وصلت إلينا بالنَّص القبطي الصعيدي ... ٢٢٤
(أ) الذُّكصولوجيَّات الواطس ٢٢٦
(ب) الذُّكصولوجيَّات الآدام ٢٣٥
الذُّكصولوجيَّات في الكنيسة اليونانيَّة ٢٣٧
الختام ٢٣٨

البَاب الثَّالث: الطَّقس القبطي لتسبحة السَّحَر

الفَصل الأوَّل: لمحة موجزة عن تسبحة السَّحَر في الشَّرق ٢٤١

تمهيد ٢٤٢
صلاة السَّحَر في الطَّقس السِّرياني الأنطاكي ٢٤٣
صلاة السَّحَر في الطَّقس السِّرياني التكريتي ٢٤٤
صلاة السَّحَر في الطَّقس السِّرياني الآشوري ٢٤٥
صلاة السَّحَر في الطَّقس الماروني ٢٤٥
صلاة السَّحَر في الطَّقس البيزنطي ٢٤٦
تعقيب ختامي ٢٤٨

الفَصل الثاني: الهوس الرَّابع ٢٤٩

الفَصل الثالث: الإبصاليَّات ٢٥٥

أولاً: رؤية عامة ٢٥٦
معنى كلمة إبصاليَّة ٢٥٦
الكتب الكنسيَّة التي تحوي نصوص الإبصاليَّات ٢٥٦
أنواع الإبصاليَّات ونغماتها ٢٥٧
لهجات الإبصاليَّات ٢٥٧
طريقة نظم الإبصاليَّة ٢٥٨

مؤلفو الإبصاليَّات ٢٥٩
أوزان الإبصاليَّات ٢٦١
ثانياً: إبصاليَّات الأيام ٢٦٢
تمهيد ٢٦٢
اسم يسوع في إبصاليَّات الأيام ٢٦٣
مخاطبة الثالوث القدُّوس في إبصاليَّات الأيام ٢٦٥
التَّعاليم التَّقويَّة في إبصاليَّات الأيام ٢٦٦
الصَّليب في إبصاليَّات الأيام ٢٦٧
العذراء القدِّيسة مريم في إبصاليَّات الأيام ٢٦٨
ختام الإبصاليَّات ٢٦٩
الفَصل الرَّابع: الثيؤطوكيَّات ٢٧١
معنى كلمة ثيؤطوكيَّة ٢٧٢
البنية الأساسيَّة للثيؤطوكيَّات ٢٧٣
(أ) ثيؤطوكيَّة الأحد ٢٧٣
السِّت قطع الأولى من ثيؤطوكيَّة الأحد ٢٧٣
تسبحة سمعان الشيخ ٢٧٤
باقي قطع ثيؤطوكيَّة الأحد ٢٧٦
من أجل القيامة ٢٧٨
عن مخطوطات الأبصلموديَّة في مكتبة الدَّير ٢٧٩
(ب) ثيؤطوكيَّات الأيام ٢٨٥
(ج) اللِّبش أو الشِّيرات ٢٨٦
مؤلفو الثيؤطوكيَّات ٢٨٧
مضمون الثيؤطوكيَّات ٢٨٩
(١) رموز العهد القديم عن العذراء والتجسُّد الإلهي منها ٢٩٠
(٢) نبوَّات العهد القديم عن التجسُّد ٢٩٣
(٣) شرح عقيدة التَّجسُّد في الثيؤطوكيَّات ٢٩٤

(٤) ألقاب العذراء القدِّيسة في الكنيسة القبطيَّة ٢٩٦
(٥) مديح وتمجيد وتطويب للعذراء وطلب شفاعتها ٢٩٩
(٦) تعليم التَّقوى في الثيؤطوكيَّات ٣٠٠
إلماحة تاريخيَّة عن الثيؤطوكيَّات في العصور الوسطى ٣٠٢
الثيؤطوكيَّات في الكنيسة اليونانيَّة ٣٠٢
الفَصل الخامس: الدِّفنار ٣٠٧
تعريف ٣٠٨
الموضع الطَّقسي لقراءة الدِّفنار ٣٠٨
مضمون الدِّفنار ٣٠٨
حول بعض مخطوطات الدِّفنار ٣٠٩
الدِّفنار في الكنيسة اليونانيَّة ٣١٢
الفَصل السَّادس: ختام الثيؤطوكيَّات ٣١٣
الفَصل السَّابع: طلبة ختام التَّسبحة ٣١٧
الفَصل الثامن: ذُكصولوجيَّة باكر آدام ٣٢١
ختاماً ٣٢٥
المراجع ٣٢٧

مقدِّمة عامة

الصَّلاة أو التَّسبيح في الكنيسة ليسا هما أحد أوجه الأنشطة الرُّوحيَّة فيها، لأنها بدون الصَّلاة والتَّسبيح لا تعيش، بل ستذبل حتماً مهما تعدَّدت أوجه أنشطتها الأخرى وتنوَّعت وتطوَّرت. فلا يوجد إنسان مسيحي دُعي عليه اسم المسيح يمكنه أن يحيا بدون صلة دائمة بمسيحه، خالقه ومخلِّصه وحياته، وهذه هي "الصَّلاة".

أما أرقى أنواع الصَّلاة فهو التَّسبيح والتَّرتيل والحمد والشُّكر لله. فالتَّسبيح للتَّسبيح ذاته، والشُّكر للشُّكر نفسه دون غرض آخر جانبي هو أنقى أنواع الصَّلاة وأعذبها لدى الرَّب الإله. فالكرامة لله تكون بتقديم الحمد له بالتَّسابيح والألحان لأنه خلقنا وخلَّصنا واقتنانا لنفسه.

وكل صلاة وأي صلاة لابد لها أن تبدأ أولاً بتقديم الشُّكر والاعتراف بالفضل لله، ثم يأتي موضوع الصَّلاة حتى ولو كانت صلاة الشَّكوى والأنين، فبدء الصَّلاة بالتَّسبيح والشُّكر يكون بمثابة بناء قنطرة عبور، أو جسر اتصال، بين الإنسان والله، تعبر من عليه كل طلباتنا وتضرُّعاتنا وصلواتنا إلى حضرته، وتُسمع لدى عرش نعمته. وهذا هو ما تعلِّمنا الكنيسة إيَّاه في كل صلواتها.

والتَّسبيح هو رئتا الكنيسة اللَّتان تتنفَّس بهما حياة الله. وهل يمكنك أن تكتم أنفاسك حتى تتأكَّد أولاً بدراسات وأبحاث من أهميَّة التنفُّس

للحياة؟ بالطّبع لن تستطيع، بل ستلفظ الأنفاس قبل بدء الأبحاث. وهكذا التّسبيح في الكنيسة، هو عملها الذي لا يتوقّف. فهو إذاً مشاركة فعليَّة وممارسة عمليَّة تكفي في حد ذاتها للتمتُّع بعشرة الله، وإلى جوارها لا مانع لمن يرغب في مزيد من دراسة وبحث وتنقيب. ففرق بين أن تدرس وتبحث وتعرف عن التّسبيح في الكنيسة، وبين أن تتذوّق أعماقه وتدخل مجاله الفعلي. فالتّسبيح شئ لا يملأ العقل بل الرُّوح.

التّسبيح شفاءٌ للنَّفس وعلاجٌ للحزن وجمعٌ للحواس وقهرٌ للشيطان وتقديم الجسد ذبيحة لله؛ «أطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدّموا أجسادكم ذبيحة حيَّة مقدَّسة مرضيَّة عند الله (أي) عبادتكم العقليَّة» (رومية ١٢:١). التّسبيح هو استجلاب المعونة السمائيَّة ومؤازرة أرواح القدّيسين. هو سر بقاء الكنيسة حيَّة، لأنه هواؤها الذي تتنفّسه، وغذاؤها الذي تقتاته، وماؤها الذي ترتويه، وهذا هو ما نصلّيه كل حين في الكنيسة حين نقول: "لا نتعب أبداً ولا نكف عن تسبيحك ياربي يسوع المسيح، مخلّصي الصّالح[1]".

وشتّان بين تسبيح وتهليل فردي يتمّمه الإنسان في بيته أو في مخدع صلاته، وبين تسبيح وشُكر وترتيل يشترك فيه الإنسان مع جموع المسبّحين والمرنّمين والشّاكرين لله في الكنيسة بيت الله. فحياة الشّركة والصّلاة الجمهوريَّة واحدة من بين أساسيات التّسبيح. ومن هنا تتّضح أهميَّة الاشتراك في صلوات القدّاس الإلهي في الكنيسة باعتبارها "إفخارستيًا" أي أنها في مجملها صلاة شُكر لله. هكذا يرتبط التّسبيح بالكنيسة وفيها، فكيف يمكن أن نسبّح الرَّب في أرض غريبة[2]؟. ويقول

١- من إبصالية السبت
٢- مزمور ١٣٧:٤

داود المرنِّم إنه يذبح في خيمة الرَّب ذبائح الهتاف فيغني ويرنِّم للرَّب[٣].

التَّسبيح الفردي حسنٌ، والتَّسبيح الجماعي أحسن. الأوَّل مُفرح للنَّفس والثاني يشفيها. الأوَّل حرٌّ بلا قيود، والثاني مضبوط بروح الجماعة وائتلافها. الأوَّل في خفية لا تراه عين غير عين الله، ولا تسمعه غير أذناه، والثاني يهدم أسوار الخطيَّة ويدك حصون العدو ويبدِّد مؤامرة الأعداء الشياطين، ويحرك القوَّات السَّمائيَّة للمعونة. الأوَّل عمل ربما لا يناسب الجميع، أما الثاني فيصلح للكُل. وكلاهما مرضاة الرَّب.

أعظم ما في التَّسبيح الجماعي أن فيه يختفي الكُل في الكُل ليظهر صوت الكنيسة فقط كجماعة واحدة تسبِّح معاً تسبحة الغلبة والخلاص. لذلك كلما حاول قائد التَّسبيح أن يظهر نفسه أو صوته بين الجماعة المسبِّحة بدعوى ضبط النَّغَم أو إحكام قيادة التَّسبيح، يضعف التَّسبيح وتهرب قوَّته، ولكنه يبلغ غايته حين يذوب صوت الجميع ليصبح صوتاً واحداً، وتصير صلاة الكل في شركة حقيقيَّة.

على أنه لا يمكننا أن نسبِّح الرَّب تسبيحاً يليق به إلاَّ بالرُّوح القُدُس. فبالرُّوح القُدُس نقدِّم للمسيح تسبيحاً روحانياً، وبالمسيح نقدِّم للآب ذبيحة تسبيحنا. «فلنقدِّم له (بالمسيح) في كل حين لله ذبيحة التَّسبيح أي ثمر شفاه معترفة باسمه» (عبرانيين ١٣:١٥). فيصير التَّسبيح دخولاً إلى حضرة الثالوث بقيادة الرُّوح القُدُس، وهذا هو ما تردِّده الكنيسة كل يوم: "هؤلاء الذين ألَّفهم الرُّوح القُدُس معاً مثل قيثارة مسبِّحين الله كل حين بمزامير وتسابيح وترانيم روحيَّة، النَّهار واللَّيل بقلب لا يفتر[٤]". على رأي قول مار اسحق السِّرياني:

٣- مزمور ٢٧:٦

٤- من ذكصولوجية باكر آدام.

[هؤلاء الذين امتلأوا بالرُّوح لا يبطل لسانهم من تهليل الرُّوح، حتى أنهم لا يعطون فرصة للشيطان أن يلقي فيهم سهامه المتَّقدة].

الاشتراك في التَّسبيح الجماعي في الكنيسة هو معايشة لحظات من حياة الأبديَّة السَّعيدة. فمحور التَّسبيح تمجيد المسيح، وأصله اعتراف بفضل من أحبنا قبلاً وبذل نفسه عنَّا حباً فينا، وشوقاً لرجوعنا إليه. ويعزِّينا قول سفر الرُّؤيا في ذلك: «ولم يستطع أحد أن يتعلَّم التَّرنيمة إلاَّ الذين اشتروا من الأرض بدم الحَمَل» (رؤيا ١٤:١ - ١٥)، لكي نوقن أن التَّسبيح للرَّب لا يكون إلاَّ ونحن لابسين الثِّياب البيض، التي ابيضَّت بدم ابن الله الوحيد.

ربي يسوع المسيح مخلِّصي الصَّالح وحبيب نفسي، عذوبتك لا يدانيها عذوبة، ومعيَّتك عطاء فائض لا يعيَّر بمكيال. فأشرق بنور وجهك علينا فنفرح أكثر ونخلص إلى التَّمام، افتح أفواهنا وأطلق ألسنتنا لكي لا تكف عن تسبيحك أنت الذي يلزم لك محيطٌ من الغناء. "فإذا ما رتَّلنا فلنقل بعذوبة يا ربَّنا يسوع المسيح اصنع رحمة مع نفوسنا[٥]".

«فيا خائفي الرَّب سبِّحوه» (مزمور ٢٢:٢٣) و«اهتفوا أيها الصدِّيقون بالرَّب، بالمستقيمين يليق التَّسبيح» (مزمور ٣٣:١)، «فتسبحة الرَّب في جماعة الأتقياء» (مزمور ١٤٩:١) فـ«سبِّحوا الرَّب في جميع قدِّيسيه» (مزمور ١٥٠:١) لأن «صوت التَّرنُّم والخلاص في خيام الصدِّيقين» (مزمور ١١٨:١٤).

والتَّسبيح تشفُّع بالقدِّيسين وتطويب للأبرار والصدِّيقين، وطلب

٥- ختام الإبصاليَّات الواطس.

معونة من الشُّهداء والمعترفين، فهو إذاً دخول حي وفي شركة حقيقيَّة للكنيسة التي على الأرض مع تلك التي رحلت إلى السَّماء. أي أن التَّسبيح هو دخول في شركة الرُّوحانيين بسهولة وبدون عناء. فطوبى للشَّعب الذي يعرف التَّسبيح ... يارب بنور وجهك يسلكون ... باسمك طول النَّهار يبتهجون، وببرك وعدلك يرتفعون[٦].

ولسوف تظل ذبيحة تسبيحنا محتاجة إلى تكميلها بذبيحة المسيح نفسه، ومن هنا ندرك لماذا تسبق ذبيحة التَّسبيح ذبيحة الإفخارستيَّا. نحن نسبِّح ذاك الذي صار ذبيحاً لأجلنا، ومات على الصَّليب لنحيا، وقام لكي نعيش. وهكذا تتَّضح العلاقة بين ذبيحة التَّسبيح التي تسبق القدَّاس، وذبيحة القدَّاس الإلهي نفسه كمنتهى عطية المسيح للكنيسة. فإن كانت التَّسبحة هي بمثابة الرَّكض في الميدان، فإن نوال نعمة الله بالأسرار هي الفوز والمجازاة. فالنَّفس التي تمارس الصَّلوات والطلبات والتشكُّرات تتوهَّل لقبول قوة النِّعمة التي في الأسرار، وتستطيع أن تقدِّر عملها وتدرك فعلها.

والكتاب الذي بين يديك قارئي الحبيب هو حديث مستفيض عن أقدم تسبحة عرفتها الكنيسة القبطيَّة وهي **تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر**. تلك التَّسبحة التي نبتت فيها منذ يوم عرفت المسيح، وتحدَّد إطارها العام واكتملت عناصرها مع حلول القرن الخامس الميلادي، ولازالت هي هي حتى اليوم تُرتَّل منذ خمسة عشر قرناً من الزَّمان. وترحل أجيال وتجئ أخرى، وكلها ترتوي وتُشفى من نبعها وتعبر. أجيال حُسبت من أهل السَّماء تجئ إلى الأرض أولاً لتتعلَّم اللغة التي ستتكلَّمها هناك، وتتدرَّب على نوع حياتها الدَّائمة في حضرة الرَّب. لأنه كيف يمكن لمن لم يتعلَّم لغة السَّماء أن يحيا بين أهلها؟ وكيف يقدر من لم يعش الكنيسة هنا أن

٦- مزمور ٨٨

يحياها هناك؟

وفي ثنايا صفحات الكتاب تكتشف قارئي العزيز أن تسبحة نصف اللّيل وتسبحة السَّحَر لم يكونا أبداً وقفاً على الرُّهبان منذ البداية، لأن التَّسبحة التي نتكلّم عنها نشأت أولاً في كنائس المدن، ومارسها الشَّعب رجالاً ونساءً وشباناً وشابات وحتى الأطفال أيضاً بحضور الأسقف، واستمر هذا الحال لقرون كثيرة قبل أن تنتقل هذه التَّسبحة إلى الصَّحراء لتحفظها كنائس الأديرة كأعظم تراث ليتورجي حفظ للكنيسة بقاءها حتى اليوم.

إذاً فالكتاب الذي بين يديك قارئي الحبيب كتاب يخصك أنت شخصياً بالدَّرجة الأولى. كما أنه يطلعك على حرارة التَّسبيح في الكنيسة في قرونها الأولى، والذي لم يكن ينفصل قط عنها. وهنا لا نغفل أن نشير إلى أن نهضة روحيَّة قد عمَّت الكنيسة القبطيَّة في عصرها الحديث، وكان أحد معالمها الأساسيَّة هو ممارسة الشَّعب ولاسيَّما الشبَّان والشَّابات منهم لتسبحة نصف اللّيل لأيام الآحاد استعداداً للقدَّاس، تلك النَّهضة التي بدأت منذ حبريَّة البابا كيرلس السَّادس (١٩٥٩ - ١٩٧٠م) الذي ملأ الكنيسة القبطيَّة صلاة وتسبيحاً وقدَّاسات.

فبعد ترتيل مزامير نصف اللّيل تبدأ تسبحة نصف اللّيل، وهي ثلاثة هوسات - أي تسبحات - وتختم بمجمع القدِّيسين، ويعقبها مباشرة تسبحة السَّحَر وهي الهوس الرَّابع وإبصاليَّة وثيؤطوكيَّة اليوم.

أما الثلاثة هوسات الأولى في تسبحة نصف اللّيل فهي:

الهوس الأوَّل: وهو تسبحة موسى وبني إسرائيل بعد عبورهم البحر الأحمر (خروج ١٥).

الهوس الثَّاني: وهو المزمور ١٣٥ في ترجمته القبطيَّة.

الهوس الثّالث: وهو تسبحة الثلاثة فتية في أتون النّار.

أما الهوس الأوّل مع الهوس الثالث فهما تسبحتان تعرفهما كافة الطُّقوس شرقاً وغرباً، وهما أقدم تسبحتين عرفهما العالم المسيحي القديم في الليتورجيَّة المسيحيَّة عموماً.

ولقد ظل الطقس القبطي محافظاً على الموضع التَّقليدي الأصيل لهاتين التَّسبحتين، إذ ظلّت فيه هاتان التَّسبحتان متجاورتين لا يفصل بينهما سوى المزمور (١٣٥) وهو الهوس الثّاني. بل إن هذا الهوس الثّاني التي تنفرد به الكنيسة القبطيَّة دون غيرها من الكنائس الأخرى، أصوله قديمة تعود إلى زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي على أقل تقدير.

وعندما يقترب الهوس الأوّل من نهايته يعود فيستدرج من جديد بدايته، وكأنه ترنيمةٌ متَّصلة لا ينقطع تسبيحها من أفواه لا تسكت، وقلوب لا تهدأ، عن شُكر الرَّب وتمجيده. ففي نهاية الهوس الأوّل نقول: "فأخذت مريم النبيَّة أخت هرون الدُّف بيديها وخرج في إثرها جميع النِّسوة بالدُّفوف والتَّسابيح، وبدأت مريم في مقدِّمتهن تقول: فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد. الفرس وراكب الفرس طرحهما في البحر، فلنسبح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد".

والمفاهيم الماسيَّانيَّة عن مجد الله الذي تحقّق بخلاص الإنسان، ومفهوم الاختيار والاقتناء، ويد الله ويمينه وذراعه، وملكوت الله الأبدي، والفداء والميراث، نجد بذورها الأولى في تسبحة موسى عبد الرَّب، حتى انجلت صورتها في العهد الجديد. أما استعلانها الكامل فيكون في مجئ المسيح الثّاني عندما يرث مباركي الله الملك المعد لهم منذ تأسيس العالم.

إن تسبحة عبور البحر الأحمر هي تسبحة العبور من الهلاك إلى

النَّجاة، ومن الموت إلى الحياة. وكما كان عبور الإسرائيليين البحر الأحمر رمزاً لمعمودية العهد الجديد، كما قال القدِّيس بولس الرَّسول إنهم اعتمدوا لموسى في البحر، هكذا ترنِّم الكنيسة كل يوم ترنيمة معموديتها وعبورها من أرض الهلاك إلى سيناء الحياة وبريَّة العالم ساعية في جهاد تؤمِّنه معمودية الماء والرُّوح برجاء البلوغ إلى أرض الرَّاحة، كنعان السمائيَّة. وهناك سنظل نسبِّح إلى الأبد مع جوقة المنتصرين ترنيمة موسى عبد الله، وترنيمة الخروف حينما ننشدها أمام البحر البلُّوري بقيثارات الله، فأي فرح هذا سنكون فيه.

هذه التَّسبحة اليوميَّة هي قصة كل نفس تعبر أيام هذه الحياة الزمنيَّة ساعية لبلوغ الحياة الأبديَّة. أما نقطة البداية في سعي هذه النَّفس فهي قيامة يسوع المسيح من بين الأموات. تلك التي اقتنيناها فينا بالمعموديَّة لمَّا متنا بشبه موته فقمنا بقيامته. وهكذا بالمعموديَّة صرنا أبناء الله، ولنا ملكوت أبينا، ولكننا لم نبلغه بعد لأنه يلزمنا أولاً أن نعبر سيناء القاحلة، وبريَّة هذا العالم، برية التَّوبة، برية التَّجارب والآلام.

وهكذا صار الهوس الأوَّل مدخلاً لهذا العبور من الأرض للسَّماء، وبداية رحلة كل نفس اعتمدت بالماء والروح فأنشدت نشيد الخلاص الذي تحياه بالإيمان منذ الآن.

فإن كان الهوس الأوَّل هو تسبيح مجد الرَّب الذي عبَّر شعبه مياه البحر ليدخلهم سيناء، وهو ترنيمة تروي أحداث القصَّة وتفصيلاتها، فإن الهوس الثَّاني يأتي امتداداً طبيعياً لمسيرة الشَّعب في سيناء، لأنه ترنيمة شُكر لمراحم الرَّب الذي يقود شعبه في برية سيناء، يسقيهم من صخرة، ويطعمهم خبز الملائكة، وينير الطَّريق أمامهم ليلاً بعامود من نار، ويظلِّل عليهم من حر النَّهار بعامود سحاب، ويحامي عنهم في كل الطَّريق الذي

سلكوه ليوصّلهم إلى أرض كنعان.

وهذا المزمور الـ ١٣٥ عينه كان أوّل تسبيح يُنشد في هيكل سليمان العظيم الذي بناه في أورشليم. «وكان لما صوّت المبوّقون والمغنون كواحد، صوتاً واحداً لتسبيح الرَّب وحمده، ورفعوا صوتاً بالأبواق والصُّنوج وآلات الغناء والتَّسبيح للرَّب، لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته ...» (٢أيام ٥:١٣، ١٤).

والهوس الثّاني هو تسبحة شكر تمتد لتشمل في مضمونها اعتراف برحمة الرَّب التي ظهرت ابتداءً من الخلق وعبوراً بالخلاص، وانتهاء بالميراث. حيث احتل عبور البحر الأحمر – وللمرَّة الثانية – محور التَّسبيح والشُّكر كأعظم خلاص قدَّمه الرَّب لشعبه في العهد القديم، وامتد التَّسبيح والشُّكر والاعتراف برحمة الرَّب ليذكر أرض الميراث التي صارت – تحقيقاً لوعد الرَّب الصَّادق – موضع راحة لمفديِّ الرَّب.

أما الهوس الثّالث فهو تسبحة الثلاثة فتية القدِّيسين في أتون النَّار المتَّقد، والذي ارتفع لهيبه تسعة وأربعون ذراعاً. وكان كلّما ارتفع لهيب الأتون كان يرتفع بازدياد معه تسبيح الفتية القدِّيسون "مباركٌ أنت أيها الرَّب إله آبائنا، ومتزايد بركة، ومتزايد علواً إلى الآباد".

فهي ليست قصَّة في العهد القديم، لكنها حياة كل إنسان يعيش أيامه يوماً بيوم ساعياً نحو الملكوت. فهذه التَّسبحة الثّالثة تحمل في مضمونها سرّ الصَّليب ومجد القيامة معاً، أحزان الأرض وتعزيات السَّماء معاً، أتون الضِّيقة وخلاص الله في آن. «في كل ضيقهم تضايق، وملاك حضرته خلّصهم».

والكنيسة وهي تعبر برِّيَّة هذا العالم بنيران تجارب متنوعة، ساعية نحو

أرض الرَّاحة – وهو مضمون الهوس الثَّالث – وقد اعتمدت أولاً بمياه المعموديَّة – وهو مضمون الهوس الأوَّل – واختبرت عناية الرَّب بها وحراسته لها طيلة غربتها على الأرض – وهو مضمون الهوس الثاني – فإن لسان حالها يقول: «جزنا في النَّار والماء وأخرجتنا إلى الرَّاحة». وهي في عبورها إلى موطنها الباقي تهتف بالمخلوقات كلها واحداً فواحداً ليشاركها تسبيح الرَّب؛ "سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الأبد"، كاستعلان مسبق للخليقة الجديدة بسمائها الجديدة وأرضها الجديدة.

ويقول المؤرِّخ المشهور روفينوس (٣٤٥-٤١٠م) في نهاية القرن الرَّابع عن تسبحة الثلاثة فتية في أتون النَّار: "هي تسبحة يرتِّلها المسيحيُّون في كل العالم".

إننا بقبولنا للآلام والضِّيقات والرِّضي بالصَّليب كشركة حتميَّة في سر المسيح والكنيسة، ندخل في معيَّة ومعونة القدِّيسين الذين سبقونا إلى المجد، يؤازرونا بصلواتهم، ونتشفَّع بهم، لا كأننا نجوز الآلام مزكِّين، ولكن بإحساس أن آلامنا هي بسبب ضعف طبيعتنا. فنطلب إليهم أن يشفعوا من أجلنا أمام الرَّب ليغفر لنا خطايانا. وهكذا لا تنسي الكنيسة التي تكمِّل آلام المسيح على الأرض، وهي في مواجهة الكنيسة التي عبرت إلى السَّماء، وقد صارت في شركة معها، لا تنسى حقيقة عوزها واحتياجها للغفران، لأنها في جهادها لم تكمل بعد.

أما عن تسبحة السَّحَر، فهي في عناصرها البسيطة تشمل الهوس الرَّابع (وهي المزامير ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) وإنصاليَّة وثيؤطوكيَّة اليوم.

والهوس الرَّابع بمزاميره الثلاثة الشَّهيرة هي مزامير الصَّباح في جميع الكنائس شرقيَّة وغربيَّة بدون استثناء. ومع حلول القرن الرَّابع كانت

المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) معروفة في كافة كنائس الشَّرق المسيحي.

ففي الحقيقة لم تكن هناك ممارسة طقسيَّة انتشرت بين جميع الكنائس شرقاً وغرباً، واتفقت عليها كل الكنائس بهذه الدِّقة، مثل ممارسة ترتيل هذه المزامير الثَّلاثة الأخيرة من سفر المزامير في خدمة الصَّباح الباكر. والسَّبب في ذلك هو أن هذه المزامير تراث قديم عرفته العبادة في المجمع اليهودي في تسبحة الصَّباح، وانتقل هذا التُّراث كما هو إلى العالم المسيحي ليحتل في الكنيسة المسيحيَّة نفس موضعه اليهودي القديم، ولكن في تسبحة الصَّباح المسيحيَّة.

وهكذا تبدأ تسبحة السَّحَر بتسبيح الرَّب في السَّموات، وملائكة السَّموات، وكل أفلاك السَّموات، وكواكب النُّور، وتسبيحه في الأرض بكل خلائقها وشعوبها وملوكها، الكبار والصِّغار، فليسبحوا جميعاً اسمه القدُّوس، على قوَّته ومقدرته وكثرة عظمته. بمزمار وقيثارة ودفوف وصفوف وأوتار وأرغن وصنوج حسنة الصَّوت، وصنوج التَّهليل. كل نسمة فلتسبِّح اسم الرَّب إلهنا، هللويا.

وهكذا وقبل بزوغ نور النَّهار تكون الكنيسة قبل كل الخلائق قد قدَّمت تسبيحاً وشكراً لإله السَّماء والأرض، هذا الذي شُكره كائن على الأرض وفي السَّموات، نيابة عن كل الخليقة وباسمها كلها.

وهنا يكون النُّور قد أشرق فعلاً، لكي تبدأ الكنيسة تردِّد اسم يسوع بتواتر مع ترتيل إبصاليَّة اليوم، وتمجِّده أيضاً مع أمه العذراء القدِّيسة في ثيؤطوكيَّة اليوم مع إشراقة نور يوم جديد. فنور الصَّباح الجديد هو تعبير متجدِّد دوماً عن إشراقة جديدة لوجه يسوع الحبيب، باعث النُّور ليضئ وجوهنا وقلوبنا وكل حياتنا.

وتختم التَّسبحة اليوميَّة بطلبة ختام التَّسبحة، وفي هذه الطلبة الختاميَّة تناجي الكنيسة إلهها ومخلّصها يسوع المسيح متوسِّلة إليه أن يتعهَّدها بخلاصه. ويتخلَّل الطلبات مرد "كيرياليسون" ثلاث مرَّات في نهاية كل طلبة.

ويتَّضح من نصها البسيط أنها سحيقة في القدم. فهي تعرض الإيمان بالمسيح في غاية البساطة، فتقول: "أنت ابن الله"، "آمنا بك". ثمَّ تشرح للحال سبب هذا الإيمان قائلة: "لأنك أتيت وخلّصتنا". وهكذا ترتِّل الكنيسة لاهوتها، وتصلّيه بالقلب.

وإذ لم يأت الرَّب هذه المرَّة في نصف اللّيل تعيد الكنيسة تسبحتها في نصف ليل اليوم التالي، متوقعة مجيئه بلا كلل ولا ملل، وجيل يسلم الوديعة لجيل، ويظل انتظار مجئ الرَّب من جيل إلى جيل. وهو حتماً سيأتي ليأخذ السَّاهرين المصلّين معه إلى المجد.

ليت تسبيحنا لا ينحرف وراء أسباب لا تمجِّدُ الله بل الذّات، لئلا يحجب الرَّب وجهه، ويسد أذنيه، فيغيب عزاء الرُّوح وحضور المسيح. فيصير التَّسبيح كلمات بلا روح، ولحناً ينقلب ضجيجاً. ومع الأيام يصبح عبئاً طقسياً يضغط كاهلنا، فنلتمس يوم الفكاك منه.

> [دعنا إذاً لا نقدِّم صلاتنا بحركات الجسد، أو بارتفاع الصَّوت، بل بيقظة الذّهن. ليس بضجيج وصخب حباً في الظُّهور، مما يسبب إزعاجاً لمن هم بالقرب منا، بل بكل تواضع وندم قلبي ودموع خفيَّة ... وقديماً كان موسى مثقلاً بألم شديد وصلى بهذه الطريقة وسُمع له. لذلك قال له الله «مالك تصرخ إليَّ» وحثَّه أيضاً برغم أن صوتها لم يكن مسموعاً إلاّ أنها حقّقت كل ما أرادت، لأن قلبها

كان يصرخ عالياً[٧]. أما هابيل فقد صلىَّ ليس فقط وهو صامت، بل حتى بعد موته، وبعث دمه صراخاً أقوى من صوت البوق[٨]. إنك لا تصلي لبشر بل لله الذي هو حاضر في كل مكان، ويسمع قبل أن يخرج الصَّوت، ويعلم خفايا الفكر[٩] ...].

فاجعل ربي من هذا الكتاب دعوة جديدة قديمة لتسبيح وشُكر وتهليل لك على كل حال في كل حين، بروح اتضاع واعتراف؛ اتضاع أمام مجدك، واعتراف كامل بفضلك. واحفظ تسبيحنا لك لمجدك أنت وحدك.

واحفظ لنا يا ربَّنا حياة أبينا الطوباوي المكرَّم قداسة البابا شنوده الثالث، وشركائه في الخدمة الرَّسوليَّة آبائنا المطارنة والأساقفة الأرثوذكسيين المبجَّلين، وسائر كهنتنا المكرَّمين، وشمامستنا الموقَّرين، وكل طغمات الكنيسة المباركين، وكل شعبك الحبيب إلى قلبك. بشفاعات أمنا الحنونة العذراء كل حين والدة الإله القدِّيسة الطَّاهرة مريم، والقدِّيس يوحنا المعمدان السَّابق الصَّابغ، وصلوات سادتي الآباء الرُّسل القدِّيسين، وناظر الإله الإنجيلي مار مرقس الكاروز، وكل صفوف الأنبياء والشُّهداء والقدِّيسين والصدِّيقين.

ولك كل المجد في كنيستك المقدَّسة الآن وكل أوان وإلى آباد الدُّهور كلها، آمين.

٧- ١صموئيل ١:١٣

٨- عبرانيين ١١:٤

٩- عظة ١٩ للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم على إنجيل القدِّيس متى.

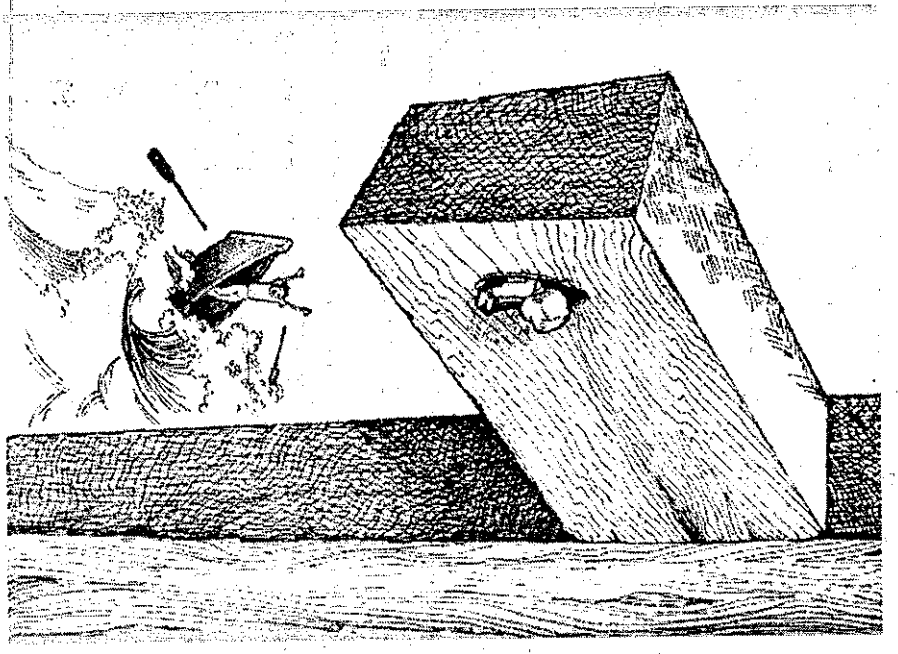

البَاب الأوَّل

إطـــلالة شـــاملة

الفَصل الأوَّل

تسبحة نصف اللَّيل

في القرون الأربعة الأولى في الكنيسة الجامعة

أقدم سهر ليلي عرفته الكنيسة الجامعة

تُعد الشَّهادة التي أوردها يوسابيوس القيصري (٢٦٠- ٣٤٠م) نقلاً عن فيلو المؤرِّخ اليهودي في شرحه لسهر نسَّاك مصر لاسيَّما في ليلة الفصح مصحوباً بصوم ودرس للكَّلمة الإلهيَّة[١] وتسبيح، هي أقدم شهادة عن وجود سهر ليلي في الكنيسة الجامعة مصحوباً بالتَّسابيح والصَّلوات.

ولا يُقصد بالنسَّاك هنا جماعة رهبانيَّة، بل جماعة من العلمانيين الأتقياء من الرِّجال والنِّساء على حد سواء. أما سهرهم اللَّيلي كما يذكر يوسابيوس فكان ينحصر في درس للكلمة الإلهيَّة وتسبيح أي ترتيل المزامير، لأن التَّسبيح في هذا الوقت المبكِّر لم يكن يتضمَّن سوى ترتيل متبادَل للمزامير، أي ترتيل المزامير بطريقة الأنتيفونا.

فيتحدَّث فيلو في القرن الأوَّل الميلادي عن جماعة النسَّاك اليهود الإسكندريين في زمانه، والذين يلقِّبهم باسم "ثيرابيوتا[٢]" أي "العُبَّاد" حيث يذكر أنهم كانوا يستخدمون خورسين أي صفَّين في ترتيلهم للمزامير، أحدهما من الرِّجال والآخر من النِّساء ... ويرنِّمون ترانيم الحمد لله ... أحياناً بفم واحد، وأحياناً أخرى بالتَّرنيم المتبادَل بنظام الأنتيفونا[٣].

١- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، ٢٢،٢:١٧:٢١

٢- تجئ هذه الكلمة أيضاً بمعنى "الأطباء" أو "المعالجين".

3- *Encyclopedia of Religion and Ethics*, Vol. 9, p. 31.

السَّهر اللَّيلي في كنيسة الإسكندريَّة

تأتينا شهادة مبكّرة منذ القرن الرَّابع الميلادي عن "سهر كاتدرائي" في مصر، أي سهر في كنائس المدن، ولاسيَّما كنيسة الأسقف (الكاتدرا) حيث مقر كرسيه. وهو سهر يشترك فيه الرُّهبان مع كافة فئات الشَّعب. ويحوي هذا السَّهر اللَّيلي قراءات مع ترتيل للمزامير (الأبصلموديَّة) إلى جانب صلوات أخرى.

ويحكي البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨ - ٣٧٣م) عن هذا السَّهر الكاتدرائي في كنيسة القدِّيس ثيوناس بالإسكندريَّة، وهو السَّهر الذي يشارك فيه الشَّعب والرُّهبان والإكليروس بحضور البابا البطريرك نفسه، بالتَّسبيح والصَّلاة استعداداً للقدَّاس الإلهي في الغداة، وذلك في معرض دفاعه عن هروبه وهو يسرد فظائع اضطهاد الأريوسيين له وللشَّعب، وكيف أن الأريوسيين مع خمسة آلاف من الجنود المسلَّحين بالسُّيوف والحراب والعصي بقيادة سيريانوس حاصروا الكنيسة للهجوم عليها. وبرغم أنه كان يعلم أنهم إنما جاءوا للقبض عليه، إلاَّ أنه رفض الهروب وجلس على كرسيه **وأمر الشمَّاس أن يرتِّم المزمور، والشَّعب بأن يردوا عليه قائلين: "لأنَّ إلى الأبد رحمته"**. وواضح هنا أن الكنيسة ترتِّل المزمور الـ (١٣٥) وهو المزمور الذي ندعوه "الهوس الثَّاني"، والذي لازلنا نرتِّله في كافة كنائسنا القبطيَّة حتى اليوم.

وما أن دهم الجنود الكنيسة بعد أن حطَّموا الأبواب وأطلقوا سيلاً من السِّهام على النَّاس، واندفعوا بسيوفهم ودروعهم صوب الهيكل المقدَّس، قطعت صيحات الفزع والهلع حبل الصَّلاة وارتعدت فرائص المصلِّين، وبعد إلحاح من الرُّهبان والقسوس المحيطين بالبابا البطريرك بأن يغادر المكان، أبى أن يترك مكانه الأسقفي حتى يخرج آخر فرد من

المصلّين، ثم واتته فرصة الظّلام والجلبة، فخرج من الكنيسة دون أن يلحظوه. حدث هذا في ٥ يناير سنة ٣٥٦م بعد منتصف اللّيل.

فيتّضح لنا من هذه الحادثة السّابقة نظام السّهر الكاتدرائي في الكنيسة الكاتدارئيّة في الإسكندريّة بمشاركة الرُّهبان والشّعب.

وهنا ربما يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال يبحث عن إجابة شافية. هل كان نظام هذا السّهر نظاماً كاتدرائياً خالصاً، أي نظاماً نبع أولاً من كنائس المدن ويشارك فيه الرُّهبان، ومن ثمّ نقله الرُّهبان بدورهم إلى أديرتهم؟ أم أنهم - أي الرُّهبان - باشتراكهم في هذا السّهر الكاتدرائي كانوا قد نقلوا نظام سهرهم الدّيري إلى كنائس المدن ليشارك فيه الشّعب أيضاً بحضور البابا البطريرك؟

ولكي يمكننا أن نجيب عن هذا السؤال يلزم أولاً قراءة البَاب الأوّل من هذا الكتاب، فعلى مدى هذا البَاب كله وما يحويه من فصول ستتّضح الإجابة. ولكننا هنا نريد أن نوجزها في بندين رئيسيين قبل أن نفصّلها فيما بعد.

البند الأوّل: إن كل كنائس الشّرق المسيحي - ما عدا كنيسة الإسكندريّة — قد حدث فيها مزج بين عناصر ليتورجيّة كاتدرائيّة وأخرى ديريّة في نظام تسبيحها اللّيلي - أي في تسبحة نصف اللّيل فيها وتسبحة السَّحَر - ومن هذا المزيج الكاتدرائي الدّيري كانت التّسبحة التي تعرفها هذه الكنائس اليوم.

وقد حدث هذا المزج اللّيتورجي بسبب قرب أديرة هذه الكنائس من المدن، ومن ثمّ سهولة اختلاط الرُّهبان بكنائس المدن أو تواجد العلمانيين في أديرة الرُّهبان.

ومن جهة أخرى فإن الشَّواهد التي تتحدَّث عن وجود سهر ليلي في الكنيسة في كلا كنائس المدن والأديرة متقاربة زمنياً تقارباً شديداً إلى حد صعوبة الفصل في أيهما قد نقل عن الآخر. ولاسيَّما أن حرارة العبادة والسَّهر الروحي في الكنيسة المسيحيَّة في القرون الأولى لم تترك مساحة واسعة للتَّفريق بين حرارة العبادة في كنائس المدن، وتلك التي يمارسها الرُّهبان في أديرتهم. فقد كان السَّهر اللَّيلي المصحوب بالصَّلوات والتَّسابيح حتى قرب بزوغ نور النَّهار في كنائس المدن كما في كنائس الأديرة على حد سواء.

البند الثَّاني: إن كنيسة الإسكندريَّة وحدها هي التي لم يحدث فيها هذا المزج بين ما هو كاتدرائي وما هو ديري، على مدى قرون طويلة، إذ ظل السَّهر اللَّيلي في كنائس المدن يحتفظ بنظام تسبيحة وبعناصره الليتورجيَّة الخاصة به. وظل السَّهر اللَّيلي في الأديرة يحتفظ بنظامه الدَّيري الخالص أي ترتيل المزامير أو تسبيح المزامير، مع حوار للرُّهبان مع شيوخ البريَّة في شكل أسئلة وأجوبة، بالإضافة إلى قراءات أخرى روحيَّة تختص بحياة الرُّهبان. وكان لوقوع الأديرة في أعماق الصَّحراء المصريَّة الشَّاسعة، وصعوبة الوصول إلى الأديرة، عاملاً رئيسياً في حفظ التَّقليد الرَّهباني في السَّهر اللَّيلي نقياً من إضافات كاتدرائيَّة.

ففي سيرة القدِّيس أنبا مقار الكبير (٣٠٠ - ٣٩٠م) نعرف أنه قرب تياحته كانت الأربعة أديرة في برية شيهيت عامرة بالرُّهبان، وكان الرُّهبان يمارسون صلوات المزامير والتَّسبحة في الكنيسة، ويختمون السَّهر اللَّيلي بحضور القدَّاس الإلهي للتناول من الأسرار المقدَّسة.

ففي الخطاب الأخير للقدِّيس مقاريوس يخاطب أولاده قائلاً: "... فاحترسوا يا أولادي وتحفَّظوا، حتى لا يتقدَّم أحد إلى الأسرار المقدَّسة

وهو في شك بسبب من الأسباب، لئلا يهلك وهو لا يدري. واجعلوا دخولكم إلى الكنيسة مبكراً، **لتسمعوا المزامير والتَّسبحة** ثم قراءة الكتب - كما علّمنا الرُّسُل في قوانينهم - قبل أن تأخذوا جسد المسيح ودمه المحيي ...".

وتسرد سيرة القدِّيس أنبا مقار خبر نياحته فتقول: "... ولما تسامع الإخوة (الرُّهبان) خبر نياحته اجتمعوا من أطراف الجبل من الأربعة أديرة باكين من أجل شعورهم باليُتم، لأنه كان أباً لكل واحد منهم، وتقلّدوا منه جميعاً طريق مخافة الله، واحتاطوا بالجسد في الكنيسة، يتباركون منه، ويقبّلونه. وصلوا جميعاً عليه، وقدَّموا القدَّاس، واشتركوا جميعاً ...".

ومن جهة أخرى تحدَّث القدِّيس يوحنا كاسيان هو الآخر عن خدمة نصف اللّيل في النِّظام الدَّيري في مصر، وهي الخدمة التي رآها رؤيا العين، وكتب عنها واصفاً كيف كان الرُّهبان يجتمعون كلهم معاً في الكنيسة لترتيلها.

نخلص إلى القول أنَّ هناك إذاً تزامناً بين السَّهر اللّيلي الكاتدرائي والسَّهر اللّيلي الدَّيري. ولكن ظل الفرق واضحاً بينهما، فالسَّهر اللّيلي في الممارسة الدَّيريَّة يحتفل به الرُّهبان أو العذارى (الرَّاهبات) في كل ليلة، أما السَّهر اللّيلي في الممارسة الكاتدرائيَّة فتمارسه الجماعة المسيحيَّة في المدن ليلة الآحاد أو الأعياد الكنسيَّة الكبرى[٤] أو عند إقامة قدَّاس احتفالي بعيد أحد الشُّهداء أو القدِّيسين. فالسَّهر اللّيلي الكاتدرائي كان سهراً تمهيدياً للاحتفال بالإفخارستيَّا في الغداة. أما السَّهر اللّيلي الدَّيري فكان خدمة تسبيح قائمة بذاتها لا

4- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F. L. Cross, London, 1958, p. 111.

يلزم بالضَّرورة أن يعقبها إقامة خدمة القدَّاس الإلهي.

إلاَّ أننا لا نغفل في ذات الوقت أن جانباً من عناصر التَّسبيح اللَّيلي هي ذات سمات ديريَّة بحتة، فالتَّاريخ يؤكِّد أن ذُكصولوجيَّة باكر آدام التي تُرتَّل في نهاية تسبحة السَّحَر هي من وضع الآباء الرُّهبان بدير القدِّيس أنطونيوس في القرن الخامس الميلادي. كما أن الإبصاليَّات - وهي قطع شعريَّة موزونة معظمها آيات مختارة من سفر المزامير — وما يصاحبها من ترتيل اسم يسوع بتواتر لاسيَّما عبارة "يارب يسوع المسيح" هي سمة ديريَّة وصلاة رهبانيَّة نشأت في الأديرة وانتقلت خبرتها إلى كنائس المدن. كما أن كثيراً من قديسي مجمع التَّسبحة هم من الرُّهبان.

والصَّفحات التَّالية تلقي مزيداً من الضَّوء على هذا الأمر عينه.

السَّهر اللَّيلي في كنيسة أورشليم

لم يكن اشتراك الرُّهبان أو النُّساك مع الشَّعب في السَّهر اللَّيلي ظاهرة تنفرد بها كنيسة مصر في القرن الرَّابع، إذ لدينا شاهد آخر من المدينة المقدَّسة أورشليم تحكيه لنا السَّائحة الأسبانيَّة إيجيريا خلال الفترة من سنة ٣٨١ - ٣٨٤م.

فخدمة يوم الأحد في كنيسة أورشليم تبدأ عند صياح الديك (حوالي الثالثة صباحاً) بسهر هو شبيه بسهر ليلة القيامة، بل نظيره. وكان الشَّعب لفرط حبه للمسيح والكنيسة، والحرارة المتَّقدة في قلوبهم يحضرون مبكراً إلى الكنيسة قبل أن تُفتح الأبواب، فيقفون في الفناء الخارجي المواجه لكنيسة القيامة على ضوء المصابيح الخافتة يصلُّون

ويسبِّحون حتى يحين موعد فتح أبواب البازيليكا. ولكن لم تكن تلك الصَّلوات والتَّسابيح جزءاً من مكوِّنات هذه الخدمة. وتصف لنا إيجيريا هذا المشهد المبدع في الفصل (٢٤:٨ - ١٢) من مذكراتها فتقول:

"... ولكن في اليوم السَّابع، يوم الرَّب، يجتمع هناك في فناء الكنيسة (كنيسة القيامة) كل الشَّعب قبل صياح الدِّيك، كما لو كان يوم عيد القيامة. وهذا الفناء هو "بازيليكا" بجوار كنيسة القيامة، معلَّق في أرجائه مصابيح لتنير للشَّعب، لأن هؤلاء الذين يخشون أن يتأخروا في الوصول عن وقت صياح الدِّيك، يأتون مبكراً، وينتظرون هناك مرتِّلين ألحاناً وأنتيفونات تخللها طلبات وصلوات، حيث يوجد بينهم دائماً كهنة وشمامسة مستعدون لخدمة السَّهر، لأن أناساً كثيرين جداً يجتمعون هناك، ولكن ليس من العادة أن تُفتح أبواب الأماكن المقدَّسة قبل صياح الدِّيك".

"وبمجرد أوَّل صياح للدِّيكة يدخل الأسقف ويتَّجه إلى المغارة (مغارة القبر المقدَّس) في كنيسة القيامة فتُفتح جميع الأبواب. ويدخل جميع النَّاس إلى كنيسة القيامة التي تتلألأ نوراً بالمصابيح الكثيرة. وعندما يصبحون بالدَّاخل يقول واحد من الكهنة مزموراً ويجيب عليه جميع الحاضرين. ويتبع ذلك صلاة. ثم يرتل أحد الشَّمامسة مزموراً آخر تعقبه صلاة أخرى. ثم يقول واحد من الإكليروس المزمور الثالث، وتعقبه صلاة ثالثة، ثم طلبة يُذكر فيها الجميع".

"وبعد هذه الثلاثة مزامير والثلاث صلوات يأخذون المجامر إلى مغارة كنيسة القيامة (حيث القبر المقدَّس) فتمتلئ كل بازيليكا القيامة برائحة البُخور العبقة. ثم يقف الأسقف داخل السِّياج screen (وهو السِّياج المحيط بالقبر المقدَّس) ويأخذ كتاب الإنجيل ويمضي إلى البَاب ويقرأ أحداث قيامة الرَّب. وفي بداية القراءة يئن جميع الحاضرين

وينتحبون لأجل كل ما احتمله الرَّب لأجلنا. أما طريقة بكائهم فلابد لها أن تحرِّك أقسى القلوب كي تذرف دموعاً".

"وعندما تنتهي قراءة الإنجيل يخرج الأسقف خارجاً ويبدأ أن يرتِّل للصَّليب، فيذهب الجميع معه ويرتلون مزموراً واحداً هناك، تعقبه صلاة. ثم يبارك الشَّعب، ثم يتبعه التَّسريح. وعندما يخرج الأسقف يأتي كل واحد ليقبل يده".

"وعندما يعود الأسقف إلى مسكنه يعود كل الرُّهبان إلى كنيسة القيامة يرتِّلون المزامير والأنتيفونات حتى بزوغ النَّهار. وهناك صلوات تتخلَّل هذه المزامير والأنتيفونات. ويأخذ الكهنة والشَّمامسة دورهم بالتَّناوب كل يوم في كنيسة القيامة ليحفظوا السَّهر مع الشَّعب. وبعض العلمانيين من الرِّجال والنِّساء يفضلون البقاء في الكنيسة حتى بزوغ النَّهار، بينما يفضل البعض الآخر العودة إلى بيوتهم ثانية، ليأووا إلى فراشهم لبعض الوقت".

إن ما تحكيه إيجيريا عن السَّهر اللَّيلي هو في الحقيقة شهادة غالية القيمة لتاريخ سواعي الصَّلاة الكاتدارئيَّة عموماً والسَّهر اللَّيلي خصوصاً. فإن جانباً من خدمة سهر القيامة ليلة الأحد لازال موجوداً في كثير من الخدمات الكاتدارئيَّة في سهر ليلة الأحد في الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً. فهي خدمة شعبيَّة ذات مهابة عظيمة تتقاطر إليها جموع النَّاس كما لو كانت هي ليلة عيد القيامة. أما حضور الأسقف كل الخدمة ومن بدايتها فهو يشير إلى أهميتها الطقسيَّة، لأن حضور الأسقف منذ بداية الخدمة هو أمر غير عادي في الخدمات الأخرى في كنيسة أورشليم في ذاك الوقت. ففي ساعات أخرى من الصَّلاة يترك الأسقف ترتيل المزامير والألحان للإكليروس بحيث يؤخِّر دخوله الاحتفالي إلى الوقت المخصَّص له والذي

يقول فيه الطلبات الختاميَّة، وإعطاء البركة الأخيرة. ولكن في سهر ليلة الأحد من كل أسبوع يتواجد في الكنيسة منذ البداية بمرافقة كهنته وشمامسته منتظراً دخول الشَّعب إلى داخل محراب chancel القبر المقدَّس.

الكنيسة تتألق نوراً بمئات القناديل المتلألئة التي توقد بالزَّيت، وتُفتتح الخدمة بثلاثة مزامير تُرتل بالتناوب بين كاهن وشماس وواحد من الإكليروس، ويجيب الشَّعب على المرتِّل بقرار أو مرد. وهناك صلاة collect تعقب كل مزمور. هذه الثلاث وحدات الليتورجيَّة التي تتكوَّن كل وحدة منها من مزمور وصلاة، ترمز إلى الثلاث **صلوات** التي صلى بها من قام من بين الأموات في اليوم الثَّالث[٥].

وقد أوضح الأب ماتيوس Mateos في تعقيبه على حديث السَّائحة الأسبانية إيجيريا عن السَّهر الكاتدرائي، أن تعبير "صلوات" في الخدمات الكنسيَّة يمكن أن يؤخذ على أنه يحوي "مزامير وتسابيح كتابيَّة[٦]". وثلاث طلبات تتبع ثلاث أنتيفونات.

ونلاحظ هنا أن أساس تسبحة السَّهر اللّيلي أو نصف اللّيل في هذه الفترة المبكرة هو ثلاث وحدات ليتورجيَّة تتنوَّع كل وحدة منها بين المزامير والتَّسابيح الكتابيَّة والطلبات والأنتيفونات. وهذا هو في الحقيقة أساس تسبحة نصف اللّيل في الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم، حيث تحوي ثلاث وحدات ليتورجيَّة تدور حولها كل تسبحة نصف اللّيل متمثِّلة في ثلاثة هوسات (تسبحات) مع ما يحويه كل هوس من عناصر مختصَّة به.

أما إحضار المجامر إلى القبر المقدَّس فيرمز إلى حاملات الطِّيب أي

٥- هذا هو نفس ما تذكره المراسيم الرسولية ٢:٥٩

6- Mateos, J., S.I., *La Vigile Cathédrale chez Egèrie*, p. 299 – 230.

النّسوة اللائي أحضرن حنوطاً إلى القبر المقدَّس لتطييب جسد الرَّب، فأصبحن أوَّل شاهدات للقيامة[٧]. وهذا موضوع أساسي لما تبقى من هذا السَّهر اللّيلي في التّقليدين الأرمني والبيزنطي.

بعد هذا الإعداد الرَّمزي تصل الخدمة إلى أوجها بقراءة فصل إنجيل القيامة. ومن وصف إيجيريا لمعاني الألم والحزن التي سببتها هذه القراءة يتَّضح أن فصل إنجيل القيامة يحوي كل سر الآلام الفصحيَّة ابتداءً من آلام وموت الصَّليب وانتهاءً إلى القيامة. ويُعتبر قراءة فصل الإنجيل هو قمة الخدمة كما نرى ذلك من مواضع أخرى لهذا السَّهر اللّيلي مما ذكرت إيجيريا[٨]. فإنجيل الأحد المختص بقيامة الرَّب هو محتوى كل الخدمة، فضلاً عن أن الأسقف نفسه وليس الشمَّاس أو القارئ - كما يمكن أن نتوقَّع - هو الذي يقرأ الإنجيل معلناً القيامة مثل الملاك أمام القبر المقدَّس عند وصول النسوة حاملات الطيب إليه.

وتحوي الخدمة أيضاً موكباً بسيطاً حتى إلى حيث الصَّليب كما هي عادة الخدمات الكاتدرائيَّة في المدينة المقدَّسة.

وعلى ذلك فعناصر سهر ليلة الأحد في كنيسة أورشليم هي:

- ثلاثة مزامير تُرتَّل بأداء منفرد، تعقبها صلاة تكريماً لمن قام في اليوم الثالث.
- طلبات وابتهالات عامة.
- رفع بخور.
- قراءة فصل إنجيل القيامة.
- موكب إلى الصَّليب مصحوباً بترتيل.
- محطة عند الصَّليب حيث يُقال مزمور وصلاة.
- البَركة والتَّسريح.

٧- مرقس ١٦:١ - ٨، لوقا ٢٣:٥٥ - ٢٤:١١

٨- ٢٧:٢، ٤٣:١

إن الاحتفال بقيامة الرَّب أمام القبر الفارغ في كنيسة القيامة لهو مبدع بالحقيقة. ويذكر الأب ماتيوس ويوافقه آخرون من علماء الليتورجيًا أن أصل بعض عناصر السَّهر اللّيلي في كثير من الطقوس يعود إلى المدينة المقدَّسة[٩].

وفي نهاية السَّهر اللّيلي ينصرف الأسقف وبقية الشَّعب، بينما يبقى في الكنيسة النسَّاك يكملون سهرهم التَّقوي، وينتظرون تكميل خدمة السَّحَر Matins عند بزوغ نور النَّهار، حيث يعقبه مباشرة القدَّاس الإلهي (١:٢٥ - ٢). ومن ثمَّ تُلغى ساعات النهار الثَّالثة والسَّادسة والتَّاسعة في يوم الأحد، ولكن صلاة الغروب تكون كما هي في موعدها (٣:٢٥)[١٠].

انتشار السَّهر اللَّيلي في كل كنائس المسكونة

يكتب القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) خطاباً (٣:٢٠٧) إلى إكليروس قيصريَّة الجديدة واصفاً السَّهر اللّيلي الذي يُختتم بصلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة، موضحاً لهم أنه أصبح منتشراً في كل مكان، فيقول لهم:

9- Mateos, J., S.I., *Le Tèmoignage de Sévére d'Antioche (d. 538) sur La Vigil Cathédral*, Melto 4, 1968, p. 6 – 12.

Cf. also. Mateos, J., S.I., *Les Différentes Expèces de Vigiles dans Le Rite Chaldèen*, OCP 27, 1961, p. 47 - 63.

Mateos, J., S.I., *Les Matines Chaldéenes, Maronites et Syriennes*, OCP 26, 1960, p. 51 - 73.

Mateos, J., S.I., *L'office Dominical de La Résurrection, Revue du Clergé Africain*, 1964, p. 263 - 288.

10- Robert Taft, S.J., *The Liturgy of the Hours in East and West*, U.S.A., 1986, p. 52 – 54.

[العادة المستخدمة الآن متوافقة ومنسجمة مع كل كنائس الله. فالشَّعب بيننا يحفظ السَّهر بعد حلول اللَّيل بالصَّلاة في البيوت، ويقدِّمون اعترافاً لله بدموع منسكبة مصحوبة بتوجع وحزن. وفي النهاية عندما ينهضون من صلواتهم يبدأون ترتيل المزمور (الأبصلموديَّة) وهي تقسم الآن إلى قسمين. فهم يرتِّلون بالتبادل الواحد قبالة الآخر، وهكذا يتسلَّحون بدراسة الفصول الكتابيَّة. وفي ذات الوقت يجلبون لأنفسهم يقظة وانتباهة قلب، فيتركون قيادة التَّرتيل لواحد منهم ليرتِّل حيث يجاوبه الآخرون (الأنتيفونا).

وهكذا ينقضي اللَّيل في تبادل بين ترتيل الأبصلموديَّة (المزامير) وتقديم الصَّلوات. وعندما يبزغ نور النَّهار، ويلوح الفجر، يسبِّح الكُل معاً بصوت واحد وقلب واحد مزمور الاعتراف psalm of confession للرَّب. وكل واحد يعتبر كلمات التَّوبة التي في المزمور تختص به هو وحده.

وإذا لم تغيروا انتباهاً لأمورنا هذه، فأنتم بذلك ستتحاشون أيضاً المصريين، وأولئك الذين في ليبيا، وطيبة وفلسطين وبلاد العرب وفينيقية وسوريا والذين يعيشون عند نهر الفرات. وبكلمة واحدة فإن كل هؤلاء عموماً يحفظون بينهم بكل تكريم السَّهر اللَّيلي والصَّلوات وترتيل المزامير (الأبصلموديَّة)][11].

فما هي طبيعة هذا السَّهر اللَّيلي الذي يتحدَّث عنه القدِّيس باسيليوس؟ لقد اعتقد بعض علماء الليتورجيَّا – مثل الأب ماتيوس – أن

11- *Ibid*, p. 39, 40

هذا السَّهر اللّيلي الذي ذكره القدِّيس باسيليوس هو سهر يختص بجماعات النسَّاك الذين ألّفوا فيما بينهم حياة مشتركة، ويخضعون لقوانين نظمها لهم القدِّيس باسيليوس بنفسه، ولكن علماء آخرون - مثل الأب روبرت تافت Robert Taft، والأب برادشو Bradshaw - اتفقوا على أن ما ذكره القدِّيس باسيليوس لا يُعتبر سهر ليلي خاص بفئة محدَّدة من الشَّعب، لأنه لا يتَّفق مع الممارسات النسكيَّة التي ذكرها القدِّيس باسيليوس في قانونه (٥:٣٧) والتي تحوي فترة راحة بين خدمة نصف اللّيل وخدمة الصَّباح والتي يمارسها النسَّاك. فضلاً عن أن النَّص يتحدَّث عن شعب علماني.

فإن كان القدِّيس باسيليوس لا يدعو نسَّاكه بلقب "رُهبان"، إلاَّ أنه من نص الخطاب رقم (٢٠٧) للقدِّيس عن التَّرتيل بالمزامير نجد أنه يتحدَّث عن ممارسة أو خدمة صلاة كاتدرائيَّة. إذ يبرِّر استخدامه الليتورجي هذا بما هو موجود في "كل كنائس الله" في كثير من الأقطار. لأنه عندما يتحدَّث في نفس هذا الخطاب عن النسَّاك فهو يستشهد فقط بثلاثة تقاليد كانت هي مهد الرَّهبنة في مصر وفلسطين وما بين النَّهرين، علاوة على أن غياب أي مقارنة واضحة مع أي استخدام ديري أو رهباني في أي مكان يدفعنا إلى التأكيد على أنه يشير إلى سهر ليلي كاتدرائي يُمارس بين الحين والآخر، كما نرى ذلك في كل من الإسكندريَّة والقسطنطينيَّة في تلك الفترة عينها.

ويبدأ القدِّيس باسيليوس وصفه لهذه الخدمة بآية من سفر إشعياء (٩:٢٦): «بنفسي اشتهيتك في اللّيل، أيضاً روحي في داخلي إليك تبتكر ...» [١٢]. وهي نفس الآية التي نجدها في السَّهر اللّيلي في كنيسة

١٢- هذه هي بداية النبوة التي تُقرأ في الكنيسة القبطية في سهر ليلة سبت الفرح،

أنطاكية كما يخبرنا بذلك القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م)، والتي لازالت حتى اليوم هي افتتاحيَّة خدمة نصف اللَّيل في الطقس البيزنطي بحسب دير القدِّيس سابا[١٣] Byzantine Sabaitic Office بالإضافة إلى وصف ترتيل الأبصلموديَّة (المزامير). فهو يتنقَّل بين طريقتين في التَّرتيل، أولهما هي طريقة الأنتيفونا، وثانيهما طريقة المرد الجماعي الذي يجاوب مرتل واحد responsorial وما يتخلَّل هاتين الطريقتين من صلوات. وهو نفس ما يمارسه رهبان بيت لحم في سهر ليلة الجمعة كما يصف ذلك القدِّيس كاسيان[١٤]. حيث البنية الأساسيَّة لهذا السَّهر هي وحدة ليتورجيَّة من ثلاث أنتيفونات، وثلاثة مزامير تُرتَّل بطريقة المرد الجماعي على أداء منفرد، وثلاثة فصول كتابية. ثم تتكرَّر هذه الوحدة الليتورجيَّة على مدى اللَّيل كله، مما يحملنا على الاعتقاد بأن القدِّيس باسيليوس يصف سهراً ليلياً يتم بين الحين والآخر، أي في مناسبات معينة occasional وليس سهراً يومياً daily vigil[١٥].

وصف لخدمة السَّهر اللَّيلي في أحد أديرة أنطاكية

يمدنا القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م) بوصف لخدمة نصف اللَّيل nocturn في أحد أديرة أنطاكية قبل سنة ٣٩٧م، وهو وصف نجده يتكرَّر بعد ذلك بسنين قليلة في بعض نقاطه عند القدِّيس يوحنا كاسيان، وذلك في حديث هذا الأخير عن ممارسات أديرة بيت لحم. وما يذكره القدِّيس يوحنا ذهبي الفم قد وصل إلينا في وثيقتين تذكران الحياة الدَّيرية أيام

فانظر مقدار قدَم هذه القراءة وانسجامها مع التقليد الشرقي العام.

١٣- هو دَير شهير بالقرب من أورشليم، كان له تأثير كبير على طقس وليتورجيا الكنيسة البيزنطية. بل قد شكَّل كثيراً من أوجه الطقس البيزنطي الحالي.

14- Cf. *Institutes* III, 8 : 4.

15- Robert Taft, S. J., *op. cit.*, p. 40.

أن كان فم الذَّهب لازال راهباً في الدَّير فيما بين سنة ٣٧٠ - ٣٧٦م.

ففي وصف ذهبي الفم لخدمة نصف اللَّيل في دير بأنطاكية طبقاً لما جاء في عظته الرابعة عشر عن الإصحاح الرابع من رسالة القدِّيس بولس الأولى إلى تلميذه تيموثاوس، يقول:

[... وعند صياح الدِّيك يأتي الرَّئيس في الحال، وبلطافة يلكز النَّائم بقدمه موقظاً الجميع. وما أن يستيقظوا فيقفوا حتى يرتِّلوا الألحان النبويَّة باتفاق عظيم وأنغام شجيَّة.

والمرتِّلون أنفسهم هم أناس صالحون ممتلئون من محبَّة الله يقولون: «في الليالي ارفعوا أيديكم إلى الله» (مزمور ٢:٣٣)، وكذلك «في اللَّيل روحي تبكِّر إليك يا الله، لأن أوامرك هي نور على الأرض» (إشعياء ٩:٢٦).

وعندما يرتِّلون تجرى من عيونهم أنهار من الدُّموع لأن آيات المزامير تشحذ محبَّتهم الشَّديدة نحو الله] (١٦).

والآيات من المزامير التي استشهد بها ذهبي الفم لم تكن هي آيات المزامير التي تُقال في هذه الخدمة من السَّهر اللَّيلي، ولكنه كان ينتقي آيات عشوائية من المزامير تخدم الموضوع الذي يتحدَّث عنه.

ولكن في حديثه التالي يستشهد القدِّيس يوحنا ذهبي الفم بالمزمور ١٤٨ مما يوضِّح أنه مزمور يُمارس بالفعل في هذه الخدمة، فيقول:

[وعندما يرتِّلون مع الملائكة: «سبِّحوا الرَّب في

١٦- استشهد فم الذهب بالآيات الآتية (حسب السبعينية): مزمور ٦:٧ ، ١٠:١٠١ ، ٥:٨ ، ٤:١٤٣ ، ١٧:٤٨ ، ٧:٧٦ ، ١٦٤:١١٨ ، ١٦:٤٨ ، ٤:٢٢ ، ٥:٩٠ ، ٢٣:٤٣.

السَّموات» (مزمور ١٤٨:١) ...

فتفكَّر كيف يقضون اللَّيل في خدمة التَّسبيح ... بينما نحن نغط في النوم.

وعندما يشرق النُّور يعودون إلى الرَّاحة مرَّة أخرى لأننا عندما نبدأ أعمالنا ينالون هم قسطاً من الرَّاحة ...

كل واحد في النَّهار يستضيف قريبه ... وهناك من يذهب إلى المسرح، ومن ينصرف إلى أعماله: أما هؤلاء فبعد أن يكمِّلوا صلواتهم النَّهاريَّة وألحانهم، يكرِّسون نفوسهم لقراءة الكُتُب المقدَّسة ...].

من هذه الأقوال السَّابقة نعرف أن الخدمة تبدأ عند صياح الدِّيك بمزمور افتتاحي هو المزمور ١٣٣ وفصل كتابي من سفر إشعياء (٩:٢٦ - الخ) تتبعها مزامير مختلفة، حيث يكمل ترتيلها قبل الفجر مباشرة، ومع الفجر تُرتل مزامير السَّحَر (١٤٨ - ١٥٠).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المزمور ١٣٣ هو أحد الافتتاحيَّات الثابتة في صلاة نصف اللَّيل عند الأقباط والأحباش والسِّريان والكلدان والتكريت والموارنة وطقس بيزنطة القديم. بينما نجد أن تسبحة إشعياء النَّبي في الطقس البيزنطي الحالي (وهو الطقس السَّابي[١٧]) هي تقليد يعود في أصوله إلى فلسطين.

ويتحدَّث القدِّيس يوحنا ذهبي الفم في النَّص السَّابق ذكره عن أن الرُّهبان يستيقظون بعد فترة راحة قصيرة لتكميل صلوات وألحان الصَّباح

١٧- نسبة إلى الطقس الذي نشأ في دير القدِّيس سابا بالقرب من أورشليم.

في خدمة صباحيَّة قصيرة جداً. فهو يخبرنا أن النَّهار قد لاح وربما يعني بذلك شروق الشَّمس، لأن السَّهر اللّيلي يكتمل قبل الفجر مباشرة.

وعن هذه الخدمة الصباحيَّة القصيرة يتحدَّث القدِّيس يوحنا فم الذَّهب في عظة أخرى له (العظة ٦٨) عن الأصحاح الثّالث من إنجيل القدِّيس متى، فيقول:

[وحالما تشرق الشَّمس أو قبل شروقها ... ينهضون من فراشهم ... ويشكّلون خورساً واحداً ... وكلُّهم ينشدون بصوت واحد كما من فم واحد.

ويرتِّلون ألحاناً لإله الكُل مقدِّمين له الإكرام والشُّكر على كل إحساناته الخاصة والعامة.

ما هو الفرق بين الملائكة وهذه الجوقة من البشر الذين يرتِّلون على الأرض ويقولون «المجد لله في الأعالي ...»...

وبعدما يرتِّلون تلك التَّراتيل يحنون ركبهم ويتضرَّعون إلى الله ...

وهم لا يسألون شيئاً في صلواتهم لأجل الأمور الحاضرة، فهم لا يعتنون بهذا. ولكنهم يسألون أن يوجدوا بلا لوم أمام كرسي الدَّيان العادل عندما يأتي ابن الله الوحيد ليدين الأحياء والأموات ...

وعندما ينهضون ويختمون صلواتهم المقدَّسة هذه، تكون الشَّمس قد أشرقت فينصرفون إلى أعمالهم ليحصلوا منها على ما يسد احتياجاتهم].

وهنا أمامنا خدمة هي مزيج من ممارسات كاتدرائيَّة وأخرى ديريَّة.

فتسبيح الأبصلموديَّة المقدَّسة في خدمة نصف اللَّيل هي ممارسة رهبانيَّة خالصة، ومن جهة أخرى نجد عناصر كاتدرائية مثل "المجدلة" أي "المجد لله في الأعالي ..."، وبعض الطلبات Intercession [١٨].

في نفس هذه الفترة التي يتحدَّث فيها القدِّيس يوحنا ذهبي الفم عن نظام السَّهر اللَّيلي وتسبيح السَّحَر في طقس أنطاكية، نجد أيضاً أن كتاب المراسيم الرسوليَّة والذي تم تأليفه باليونانيَّة في سنة ٣٨٠م قريباً من أنطاكية يحوي وصفاً تفصيلياً بل أوَّل وصف تفصيلي كامل عما تحويه ثلاث خدمات كاتدرائيَّة هي: خدمة الصَّباح، وخدمة المساء، وخدمة السَّهر اللَّيلي في تسبحة يوم الأحد الذي هو يوم القيامة، وذلك في الكتاب الثاني والفصل ٥٩، فيقول بخصوص سهر ليلة الأحد:

"... ولكن تقابلوا بأكثر اجتهاد خصوصاً في السُّبوت ويوم الرَّب الذي فيه قام الرَّب من بين الأموات مرسلين تسبيحاً لله الذي صنع كل شئ من خلال يسوع، وأرسله لنا، وسمح له أن يتألم وأقامه من الموت، وإلاَّ فكيف سيدافع الإنسان عن نفسه أمام الله عندما لا يجتمع في الكنيسة في هذا اليوم ليسمع كلمة الخلاص التي للقيامة، اليوم الذي فيه نكمِّل ثلاث صلوات وقوفاً. متذكِّرين ذاك الذي قام في اليوم الثالث، اليوم الذي تم فيه ما كُتب في الأنبياء، وكُرز بالإنجيل، وتُرفع فيه الذَّبيحة، ويوهَب فيه الخُبز المقدَّس holy food ".

وواضح هنا أن سهر ليلة الأحد يحوي إنجيل القيامة وثلاث صلوات من أجل تكريم القيامة التي صارت في اليوم الثالث حيث العادة أن تُصاحب هذه الخدمة بليتورجيَّة الكلمة، يعقبها رفع الذَّبيحة أي الأنافورا التي هي القدَّاس الإلهي، والتَّناول من الأسرار المقدَّسة communion .

18- Robert Taft, S.J., *op. cit.*, p. 80 - 83.

ولقد شرحتُ بإسهاب في كتاب "المراسيم الرسوليَّة" = وهو برقم (١/٣) ضمن هذه الدِّراسات الطقسيَّة - كيف أن هذا الكتاب قد نقل عن كتاب الدِّسقوليَّة السِّريانيَّة، وقد أضاف المؤلِّف ما لم تورده الدسقوليَّة عن وجود سهر ليلة الأحد يسبق تقديم الإفخارستيَّا. بالإضافة إلى أن كتاب المراسيم الرسوليَّة يتحدَّث عن اجتماعات عامة صباحاً ومساءً في الكنيسة، وهو ما لم يرد ذكره في كتاب الدسقوليَّة، مما يتَّضح معه أن السَّهر اللَّيلي ليلة الأحد قد دخل الكنيسة كخدمة رسميَّة مقنَّنة في غضون القرن الرَّابع الميلادي. ولاسيَّما إذا عرفنا أن تيؤدوريت المؤرِّخ (٣٩٣- ٤٦٦م) وهو أنطاكي المولد وأسقف مدينة قورش Cyr يحكي في مؤلَّفه "تاريخ الكنيسة ٢٤:٢" والذي ألَّفه سنة ٤٢٣م أن اثنين من العلمانيين من مدينة أنطاكية هما فلافيان وتيودور كانا قد ألَّفا تسبحة سنة ٣٤٨م تقال بطريقة الأنتيفونا يُرتَّل فيها المزامير Antiphonal psalmody لتُستخدم في سهر اللَّيل في الكنيسة.

توضيح لبعض المصطلحات الأجنبيَّة

في كلا النِّظامين الكاتدرائي الخالص والرَّهباني الخالص نجد لكل منهما اجتماعين يوميين، واحد في السَّحَر عند الفجر matins ، والآخر في المساء vespers ، أي في بداية اليوم ونهايته. وفي الوجه البحري في مصر تبدأ خدمة صلاة السَّحَر matins الدَّيرية مبكرة عن نظيرتها الكاتدرائيَّة، لأن الرُّهبان يستيقظون مبكراً قبل العلمانيين، ولكن حدث بعض المزج بين هذين النظامين في تطور لاحق متأخر.

(أ) فبعض الخدمات الكنسيَّة والتي هي نتاج مزج بين النِّظامين الرَّهباني أي الدَّيري والكاتدرائي حوت صلاتين أو خدمتين في الصَّباح؛ واحدة عند صياح الدِّيك، والأخرى عند الفجر. الأولى نسميها خدمة

نصف اللّيل[١٩] Nocturn والثّانية نسميها خدمة السَّحَر Matins .

(ب) وبعض الخدمات الكنسيَّة الأخرى والتي هي نتاج مزج بين النِّظامين الرَّهباني والكاتدرائي حفظت صلاة السَّحَر matins عند الفجر، ثم أضافت عليها صلاة نصف اللّيل اليوميَّة mesonyktikon .

(ج) بعض الممارسات الكنسيَّة الأخرى استخدمت الاصطلاح vigil لتشرح به إما السَّهر اللّيلي اليومي، وهو المُسمى nocturn أو mesonyktikon أو السَّهر اللّيلي الذي يمتد طوال اللّيل في المناسبات الكنسيَّة الكبرى والأعياد كما في سهر ليلة عيد الفصح Eastern Vigil .

وقد أشرتُ إلى هذا التَّوضيح هنا حتى يمكننا أن نفرِّق جيداً بين اصطلاحين ليتورجيَّين يردان بكثرة في أي دراسة ليتورجيَّة تختص بصلاة نصف اللّيل وصلاة السَّحَر.

الاصطلاح الأوَّل: nocturn أو mesonyktikon ويحل أيهما محل الآخر، ليعني أيهما "خدمة نصف اللّيل" والتي تبدأ عادة عند صياح الدِّيك في الاستخدام الدَّيري، وكانت تُمارس في نفس هذا الوقت في الاستخدام الكاتدرائي في غضون القرن الرَّابع الميلادي وبعده بقليل عندما انتقلت لتصبح خدمة قرب الفجر أو قبله بقليل.

الاصطلاح الثاني: vigil والذي يعني سهراً ليلياً يمتد طوال اللّيل،

١٩- في الغرب ولاسيَّما في الطقس الرَّهباني الذي وضعه القدِّيس بندكت يأتي اصطلاح "خدمة نصف اللّيل nocturns" بالتَّبادل دائماً مع اصطلاح ليتورجي آخر هو vigil أي سهر ليلي يمتد إلى فترة طويلة من اللّيل في المناسبات الكنسيَّة الكبرى، ولكن ليس كسهر يومي. أما الاصطلاحات الغربيَّة الحديثة فقد دعت الـ nocturns باسم جديد هو matins والذي كان يعني سابقاً صلاة السَّحَر. وأعطت للاصطلاح matins اسماً جديداً هو lauds ، وهذا التَّداخل لا يظهر إلاَّ في الطقس اللاتيني.

ليس كل يوم من أيام السنة الليتورجيَّة، بل فقط في المناسبات الكنسيَّة الكبرى وأعياد بعض القدِّيسين والشُّهداء المشهورين لكل كنيسة حسب تقليدها المحلي.

وهذا يقودنا بالضَّرورة للحديث عن أصل صلاة نصف اللّيل وأصل صلاة السَّحَر، ومن ثمّ علاقة كل منهما بالأخرى.

الفَصل الثَّاني

الأصول الأولى
لتسبحة نصف اللَّيل وتسبحة السَّحَر
والعلاقة بينهما

تمهيد

لقد ناقش كثير من علماء الليتورجيًّا[1] موضـــوع الأصـــول الأولى لتسبحتي نصف اللَّيل والسَّحَر إما بطريقة مباشرة في دراسة متخصِّصـــة، أو في معرض حديثهم عن أمور ليتورجيَّة أخرى، ولكنهم لم يتَّفقوا كلهم على رأي واحد، لأن معظم طقوس الكنائس المختلفة تحوي صـــلاة (أو تسبحة) نصف اللَّيل متبوعة مباشرة بصلاة (أو تسبحة) السَّحَر، وهـــذا المزج بين التَّسبحتين كان هو السَّبب وراء صعوبة البحث في هذا الشأن. فالموضوع الذي يبحثه علماء وآباء الليتورجيًّا هو: ما هي الأصول الأولى أو ما هي العناصر الأساسيَّة الأولى أو الوحـــدات الليتورجيَّـــة الأوليَّـــة لتسبحة نصف اللَّيل nocturns ونظيرتها التي لتسبحة السَّحَر matins [2]؟ ثم ما هي العلاقة التي تربط بين هاتين التَّسبحتين؟.

١- أمثال العالم الليتورجي الألمـــاني بومشـــتارك Baumstark ، والأب برادشـــو Bradshaw ، والعلماء كالويرت Callewaert ، وشادويك Chadwick ، وفروجـــر Froger ، وهانسين Hanssen ، ويونجمـــان Jungmann ، ومـــاركورا Marcora ، وماتيوس Mateos ، وونكلر Winkler .

٢- بحسب المصطلحات الغربية الحديثة أصبحت صلاة نصف اللَّيل تُسمى matins أما صلاة السَّحَر فتُسمى lauds لسبب بسيط هو أن صلاة نصف اللَّيل كصلاة تبدأ مع صياح الديك (أي الثالثة بعد منتصف اللَّيل) قد أُلغيت في الكنيسة الغربية، إذ تبدأ الصَّلاة عندهم قرب فجر اليوم أو قبله بقليل. وهو نفس ما نجده قد تسحَّب قلـــيلاً قليلاً على ممارسة بعض الكنائس الشرقيَّة.

إن بعض المصادر الليتورجيَّة المبكِّرة تتحدَّث عن خدمة صلاة واحدة قبل صلاة باكر Prime ، أو قبل صلاة السَّاعة الثَّالثة Terce في طقوس الكنائس التي ليس لديها صلاة باكر. بينما تتحدَّث بعضها الآخر عن خدمتي صلاة أي تسبحتين.

فبعض الشّهادات الدَّيرية المبكِّرة تشير إلى وجود خدمة صلاة واحدة تُقام قبل ظهور نور النَّهار، وهي الخدمة التي اتفق معظم الشرَّاح الكنسيين على أنها هي صلاة نصف اللَّيل nocturns ، أما المصادر التي تتحدَّث عن خدمتي صلاة، فهما تسبحة نصف اللَّيل، وتسبحة السَّحَر lauds ، إلاَّ أن هذه الصَّلاة أو التَّسبحة الثَّانية (تسبحة السَّحَر) كانت تُلحق مباشرة على خدمة الصَّلاة الأولى (أي تسبحة نصف اللَّيل).

وهكذا اتجه بعض علماء الليتورجيًّا إلى اعتبار أن صلاة نصف اللَّيل هي الأصل الذي أُلحق عليه فيما بعد صلاة السَّحَر. بينما أخذ البعض الآخر الرأي المقابل، معتبرين أن صلاة السَّحَر Lauds هي الأصل في صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة، ثم أُلحق عليها صلاة نصف اللَّيل كسهر ليلي ظل يُمارس في الأديرة كصلاة قائمة بذاتها ومنفصلة تماماً عن صلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة، ثم أُدمجت الصَّلاتان معاً، وذلك بعد المزج الذي حدث بين الممارسات الكاتدرائيَّة والممارسات الدَّيريَّة، فنشأت صلاة واحدة هي مزيج من كلاهما معاً.

ولكن مع ذلك تظل أديرة كنيسة مصر تُستثنى من هذا المزج الذي حدث في كل طقوس الكنائس الأخرى، لأن التَّقليد القبطي ظل يمارس خدمة صلوات السَّواعي اليومية كممارسة ديريَّة نقيَّة خالصة لم تختلط بأي ممارسات كاتدرائيَّة أخرى.

وهنا يتَّضح أمامنا رأيان:

• **الرأي الأوَّل:** أن صلاة نصف اللَّيل كممارسة ديريَّة هي الأصل، ثم أُلحق عليها فيما بعد صلاة السَّحَر كممارسة كاتدرائيَّة[٣].

• **الرأي الثَّاني:** أن صلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة هي الأصل كصلاة نشأت في كنائس المدن أولاً، أي أنها ممارسة كاتدرائيَّة أُلحق عليها وقبلها مباشرة صلاة نصف اللَّيل فيما بعد كممارسة ديريَّة[٤].

وهنا يلاحظ القارئ العزيز أن كلا الرأيين يتَّفقان على أن صلاة نصف اللَّيل هي ديريَّة الأصل، أي نشأت أولاً في الأديرة ثم انتقلت إلى كنائس المدن. ويتَّفقان أيضاً على أن صلاة السَّحَر هي كاتدرائيَّة الأصل أي نشأت أولاً في كنائس المدن، ثم انتقلت إلى كنائس الأديرة. ولكنهما يختلفان في أمر واحد هو: أي الخدمتين أسبق من الأخرى، هل هي صلاة نصف اللَّيل الدَّيريَّة أم هي صلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة؟ وذلك قبل أن تُمزج الخدمتان معاً في خدمة صلاة أو تسبحة واحدة، فأصبحت خدمة صلاة كاتدرائيَّة ديريَّة مختلطة.

لقد كان الرأي الثَّاني هو الرأي السَّائد تقريباً في كافة الأوساط الكنسيَّة، يتناقله علماء الليتورجيَّا كحقيقة راسخة حتى كان ظهور الكتاب الذي ألَّفه الأب برادشو Paul F. Bradshaw ونشره سنة ١٩٧٨م بعنوان "الصَّلاة اليوميَّة في الكنيسة المسيحيَّة المبكِّرة – *Daily Prayer in the Early Church*" والذي حاول فيه أن يثبت رجاحة الرأي الأوَّل على الثاني ضداً لعُرف ساد سنين كثيرة. ولكن ما هي إلاَّ بضع سنوات قليلة لا تتعدَّى سبع سنوات حتى قام الأب روبرت تافت Robert Taft

---

٣- من بين مؤيدي هذا الرأي الأب برادشو.

٤- من بين مؤيدي هذا الرأي الأب روبرت تافت.

في سنة ١٩٨٤م بتأليف كتابه "خدمة صلوات السَّواعي في الشَّرق المسيحي: أصولها، معناها، موقعها في حياة الكنيسة – *The Liturgy of the Hours in the Christian East: Origins, Meaning, Place in the Life of the Church*" فأعاد الأمور إلى نصابها. أي تأكيد الرأي الثَّاني على الأوَّل. وهذا هو محور حديث هذا الفصل من الكتاب.

فإن كنتَ قارئي العزيز لستَ من هواة الخوض في معرفة طقسيَّة أكاديمية من هذا النَّوع، فيكفيك أن تقرأ "الخلاصة" التي سترد عقب شرح كل بند من بنود هذا الفصل.

وفي النهاية سنتفق جميعاً على أن ترتيل تسبحة نصف اللَّيل، وتسبحة السَّحَر بمزاميرها الشَّهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠)[٥] هو طقس موغل في القِدَم استقرَّ في جميع الكنائس شرقاً وغرباً، حتى وإن تعذَّر على علماء الليتورجيَّا الوصول إلى أي التَّسبحتين أقدم من الأخرى بسبب ندرة الوثائق وشُحها، مما دفعهم إلى الحدْس أحياناً، علَّهم يمسكون ببداية الخيط. لكنها على كل حال دراسة شيِّقة، يستسيغها محبو الطُّقوس الكنسيَّة حتى الثُّمالة.

والآن علينا أن نجيب على الأسئلة الآتية فيما يختص بموضوع بحثنا:

أولاً: ما هي أقدم العناصر الليتورجيَّة لصلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة؟

ثانياً: ما هو المكان الطَّقسي السَّحيق في القدم لمزامير تسبحة السَّحَر (المزامير ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠)؟

ثالثاً: ما هي العلاقة بين كل من تسبحة نصف اللَّيل Nocturns وتسبحة السَّحَر Lauds ؟

٥- هذه المزامير الثلاثة الشهيرة تُسمي في الكنيسة القبطية "الهوس الرابع".

أولاً: أقدم العناصر الليتورجيَّة لصـــــلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة

Cathedral Matins

تشير الوثائق المبكِّرة لخدمة صلاة الصَّباح[٦] الكاتدرائيَّة – وبوضوح كامل – إلى أن المزمور (٦٣/٦٢) «يا الله إلهي إليك أبكِّر، لأن نفسي عطشت إليك ...» هو مزمور الصَّباح الرَّئيسي. أما المجدلة الكبرى – أي "تسبحة الملائكة" كما نسميها في الكنيسة القبطيَّة – "المجد لله في الأعالي ..." فكانت هي الأخرى جزءاً أساسياً في هذه الخدمة الصَّباحية. وتُختتم الخدمة بمجموعة طلبات Intercessions ، تعقبها بعض الصَّلوات الختامية لصرف أو تسريح المؤمنين Dismissals .

فهل كانت خدمة الصَّباح الكاتدرائيَّة لا تحوي سوى مزمور واحد فقط كما تشير الوثائق المبكِّرة إلى ذلك؟ لا نعتقد ذلك بل هناك حتماً أكثر من مزمور واحد في هذه الخدمة ودليلنا على ذلك أن نفس هذه الوثائق لا تخبرنا سوى عن مزمور واحد يختص بخدمة المساء في الكنيسة وهو المزمور (١٤٠) «يارب إليك صرخت فاستمع لي، أنصت يارب إلى صوت تضرعي إذا ما صرخت إليك. لتستقم صلاتي بالبخور قدامك، وليكن رفع يديَّ كذبيحة مسائيَّة ...». فهو المزمور الرَّئيسي في هذه

٦- يلزم هنا أن ننوه إلى أن "صلاة الصَّباح" المذكورة هنا لا تعني "صلاة باكر" كما نعرفها اليوم، ولكنها صلاة تبدأ قرب الفجر أو مع شروق الشَّمس. وفي حين أن المزمور (٦٢)، وتسبحة الملائكة، هما من أساسيات صلاة باكر في الكنيسة القبطية اليوم، إلا أنهما يُحسبان ضمن عناصر "صلاة السَّحَر" في بعض الطقوس الشرقيَّة الأخرى مثل الطقس البيزنطي مثلاً. لذا لزم التنويه.

الخدمة أيضاً، ولكنه ليس بالضرورة هو المزمور الوحيد فيها، لأن صلاة الغروب في المدينة المقدَّسة أورشليم – كما تخبرنا الوثائق الليتورجيَّة – كانت تحوي مزامير عديدة، ولكن مع ذلك يظل المزمور (١٤٠) هو مزمور الغروب الشَّهير بين هذه المزامير العديدة.

وإذا طبَّقنا نفس هذه القاعدة السابقة على صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة، نوقن أنها هي الأخرى كانت تشمل مزامير كثيرة، إلى جانب المزمور الرئيسي فيها وهو المزمور (٦٢)[٧]. ثم إن الوثائق الليتورجيَّة في النِّصف الثاني من القرن الرَّابع الميلادي والتي تشير إلى التَّسبيح بالمزامير، يأتي عنوانها دائماً في صيغة الجمع matutini hymni matins مما يعني أنها تحوي أكثر من مزمور واحد. فضلاً عن أن المصادر الوثائقيَّة لصلاة الصَّباح والتي تعود إلى نفس هذه الفترة تظهر فيها مزامير أخرى استُخدمت في صلاة الصَّباح مثل المزمور الخمسين الشَّهير «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك ...»، وكذلك المزمور (٨٩) «يارب ملجأً كنتَ لنا من جيل إلى جيل. من قَبلِ أن تكونَ الجبالُ. قَبلِ أن تُخلقَ الأرضُ والمسكونةُ. منذ الأبد وإلى الدَّهر أنتَ هو ...». بالإضافة إلى التَّسابيح الكتابيَّة[٨] والتي ربما استُخدمت في صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة في هذه الفترة المبكِّرة من تاريخ الكنيسة[٩].

٧- وهذه المزامير طبقاً لمصادر تعود إلى أواخر القرن السادس الميلادي أو أوائل السابع هي: ٣، ٣٧، ٦٢، ٨٧، ١٠٢، ١٤٢

٨- التَّسابيح الكتابية هي التَّسابيح التي تؤخذ نصوصها من أسفار الكتاب المقدس مباشرة.

٩- يرى الأب برادشو Bradshaw أن المزامير لم تكن تمثل جزءاً رئيسياً في صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة. بل يرى أيضاً أن تسبحة السَّحَر الكاتدرائيَّة لم تكن تشمل مزامير في أصولها الأولى. وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى فيما بعد.

Cf. Robert Taft, S.J., *op. cit.*, p. 192

ثانياً: المكان الطقسي السَّحيق في القدم لمزامير تسبحة السَّحَر

إن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠)[١٠] تمثل اليوم ومنذ القديم ركناً أساسياً في تسبحة السَّحَر في كل طقوس الكنائس المختلفة. ولقد ساد الاعتقاد زمناً طويلاً بأن هذه المزامير الثلاثة هي العنصر الرَّئيسي في تسبحة السَّحَر الكاتدرائيَّة في الكنيسة المسيحيَّة منذ القرون المبكرة. ولكن الأب برادشو Bradshaw شرح في كتابه "أصول الخدمة اليومية – *The Origins of the Daily Office*" الذي نشره سنة ١٩٧٨م، أن هذه المزامير هي في الحقيقة ختام خدمة صلاة السَّهر اللَّيلي الدَّيري، وليس بداية خدمة صلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة. وكان العالم الليتورجي فروجر J. Froger قد سبق برادشو في وضع اللبنة الأساسية لهذا الموضوع قبل ذلك بثلاثين سنة في كتابه: أصول صلاة باكر Les Origins de Prime .

فيرى فروجر J. Froger أن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) لم تكن جزءاً أساسياً في صلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة في الشرق المسيحي، ولكنها ظهرت فيما بعد لتحتل مكانها في صلاة السَّحَر في الخدمة الكاتدرائيَّة الدَّيريَّة المختلطة، فهي في حقيقتها – أي هذه المزامير – استعارة من السَّهر اللَّيلي الدَّيري أُضيف أو أُلحق على تسبحة السَّحَر الكاتدرائيَّة.

ولقد انتهج برادشو Bradshaw نفس هذه النظريَّة فيقول إن القدِّيس يوحنا كاسيان قد سلَّط بعض الضَّوء على أصل مزامير صلاة السَّحَر (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) في الخدمة اليومية الكنسيَّة متحدثاً عنها أنها تشكِّل مركز أو نواة خدمة الصَّباح في الممارسة الكاتدرائيَّة، وأن هذه الخدمة قد

١٠– وهي التي ندعوها في الكنيسة القبطية بالهوس الرابع.

انتقلت إلى الكنيسة المسيحيَّة من المجمع اليهودي. واستقرت هذه الحقيقة التي يوردها القدِّيس يوحنا كاسيان وتناقلها مئات من علماء الليتورجيَّا عبر سنين طويلة. إلاَّ أن الأب برادشو حاول أن يغيِّر من هذا الواقع الرَّاسخ، واجتهد أن يثبت أن الشَّواهد عن وجود هذه المزامير في صلوات المجمع اليهودي الصَّباحية في القرن الأوَّل المسيحي واهية جداً. مضيفاً أن كلاً من القدِّيس يوحنا كاسيان والقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م) يشهدان على أن هذه المزامير كانت تمثِّل نهاية صلوات السَّهر اللَّيلي في سوريا وفلسطين. فضلاً عن أنه ينبغي ألاَّ نغفل أبداً أن السَّهر اللَّيلي في مصر كان يُختتم دائماً بمزمور من المزامير التي تحوي "الليلويا"، الأمر الذي يحتمل معه وجود هذه المزامير عينها (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) كختام للسهر اللَّيلي في مصر!.

ويستطرد الأب برادشو Bradshaw قائلاً: لكن ما هو السَّبب الذي جعل من هذه المزامير الثلاثة ختاماً لصلوات السَّهر اللَّيلي في مصر وسوريا وفلسطين؟ ألعلَّ ذلك قد نشأ من الممارسة المبكرة للرُّهبان الذين كانوا يرتِّلون كل كتاب المزامير على مدى ٢٤ ساعة، فكانوا يصلُّون إلى نهاية سفر المزامير كل يوم في ختام سهرهم اللَّيلي؟ وإن كان الأمر كذلك فكيف احتلَّت هذه المزامير الثلاثة مركز الصَّدارة في خدمة السَّحَر الكاتدرائيَّة في القرون التالية؟ فيجيب برادشو بقوله: هذا أمر لا يصعب تفسيره، ذلك لأن السَّهر اللَّيلي الدَّيري في بعض الأماكن مثل أورشليم، كان يعقبه مباشرة خدمة السَّحَر فيها. وهذا الدَّمج بين الخدمتين أدى بسهولة إلى الاعتقاد بأن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) هي بداية خدمة السَّحَر أكثر من كونها نهاية السَّهر اللَّيلي. وممارسة هذه المزامير بتواتر مع ما كان للرَّهبنة من تأثير قوى على الكنيسة أدى إلى أن تبنَّت الكنيسة هذه المزامير كبداية لخدمة السَّحَر حتى في التَّقليد الكاتدرائي أيضاً. وهذا

هو عينه ما يسجله لنا يوحنا كاسيان عن نظام الصَّلوات في إيطاليا حيث يقول: "وعندما تنتهي "ألحان الصَّباح" يُرتِّل المزمور الخمسون في جميع الكنائس". ومن سياق النَّص يتَّضح لنا أن ما يعنيه من تعبير "ألحان الصَّباح" هي المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) والتي تشكِّل الآن بداية خدمة السَّحَر مع المزمور الخمسين، والذي كان هو البداية الأصليَّة لهذه الخدمة قبل أن يصبح تالياً للمزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠).

وهذا النِّظام نجده بوضوح حتى اليوم في خدمة الصَّباح في الطقس الكلداني، ذلك الطقس الذي لازال الأقرب جداً إلى التَّقليد القديم بين الطقوس الشرقيَّة الأخرى، إذ نجد أن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) تسبق المزمور الخمسين في خدمة السَّحَر في أيام الأسبوع.

أما في باقي الطقوس الشرقيَّة الأخرى فإن هذه المزامير قد أصبحت تمثِّل المزامير النهائيَّة التي عندها تكتمل خدمة السَّحَر. وربما كان ذلك كمرحلة أكثر تطوراً، ذلك لأننا نجد في مقالة البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) عن البتولية *De Virginitate* أن المزمور الخمسين قد انتقل ليقف على رأس كل هذا الطقس أي صار المزمور الخمسون هو بداية هذا الطقس. ولكن الأمر لم يكن كذلك في زمن ما قبل القدِّيس أثناسيوس. ومن أجل هذا يمكننا القول إن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) قد شكَّلت خاتمة خدمة السَّهر اللَّيلي. وليس ذلك فقط، بل وأيضاً كل ألحان ومزامير خدمتي اللَّيل والصَّباح. وهكذا ولمرة أخرى يتَّضح أمامنا تأثير الرَّهبنة على الليتورجيَّا الكنسيَّة، إذ أثَّرت الممارسة الرَّهبانيَّة على انتشار هذه الخدمة وتعميقها.

هذا ما يذكره الأب برادشو بخصوص المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) وأصلها، وكيف أخذت مكان الصَّدارة في خدمة السَّحَر الكاتدرائيَّة بعد

أن انتقلت إليها من خدمة السَّهر اللَّيلي الدَّيري. ثم يأتي الأب روبـــرت تافت Robert Taft ويناقش نفس هذه النقطة بالذات ليعيد الأمـــور إلى نصابها، ويؤكّد ما كان مستقراً منذ سنين طويلة لدى جمهرة كثيرة مـــن علماء الليتورجيًّا، فيثبت بما لا يدع مجالاً لتأويل بعد، أن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) كانت جزءاً رئيسياً أصيلاً في صلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة منذ البداية، وأن مزامير السَّحَر هذه في النظام الـــدَّيري هـــي نتـــاج تـــأثير كاتدرائي عليها.

فيقول الأب روبرت تافت Robert Taft : لنبحث وضع هذه المزامير وما أثير حولها من شهادات وأحداث في هذه الفترة المبكرة من تـــاريخ الكنيسة، ونعني بها تحديداً أواخر القرن الرَّابع الميلادي، إذ نجـــد لـــدينا مصدران واضحان لمزامير صلاة السَّحَر.

المصدر الأوَّل: وصف القدِّيس يوحنا ذهبي الفـــم (٣٤٧ - ٤٠٧م) للخدمة الدَّيرية في أنطاكية كما عاشها هو بنفسه في الدَّير في الفترة مـــا بين سنة ٣٧٠ - ٣٧٦م. وذلك في العظة الرابعة عشر له عـــن تفســـير رسالة القدِّيس بولس الرَّسول الأولى إلى تلميذه تيموثاوس.

المصدر الثاني: أشهر مقطع للقدِّيس يوحنا كاسيان أثـــيرت حولـــه الأسئلة، وهو الذي يسجله في مؤلَّفه "المعاهد" واصفاً فيه الخدمة الدَّيريَّة كما عرفها في بيت لحم خلال الفترة من سنة ٣٨٢ - ٣٨٦م.

فيؤكّد القدِّيس يوحنا ذهبي الفم أن المزمور (١٤٨) كان هو المزمور الذي يُقال في نهاية السَّهر اللَّيلي الدَّيري.

ومن جهة أخرى يصف كاسيان مكان مزامير السَّحَر في الخدمـــة الدَّيريَّة في فلسطين ويقارنها بما يُمارس في أديرة الغال (فرنسا حالياً).

ففي فلسطين (بيت لحم) كان هناك في الأصل خدمة صلاة واحدة قبل السَّاعة الثالثة، هي خدمة السَّهر اللَّيلي أو بأكثر تحديد خدمة نصف اللَّيل حيث كانت تُختتم بالمزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠). وبعدها يعود الرُّهبان إلى الرَّاحة في قلاليهم فينامون حتى موعد صلاة السَّاعة الثالثة[11]. ومنعاً لنوم الرُّهبان كثيراً أُضيفت خدمة صباح جديدة قرب شروق الشَّمس حتى ينهض الرُّهبان من نومهم ميكراً. وهذه الخدمة الجديدة – مثل السَّاعتين الثالثة والسادسة – كانت تحوي هي الأخرى ثلاثة مزامير هي المزامير (٥٠، ٦٢، ٨٩) مع صلوات أخرى.

أما في بلاد الغال وإيطاليا، فإن المزامير (١٤٨ ١٤٩، ١٥٠) لم تكن هي نهاية أو خدمة السَّهر اللَّيلي، ولكنها كانت بداية خدمة الصَّباح الجديدة والتي أعقبت خدمة السَّهر اللَّيلي بعد فاصل زمني قصير بينهما.

إن الخدمة الصَّباحيَّة الجديدة التي أنشأها كاسيان في دير بيت لحم في فلسطين في سنة ٣٨٢م أو ٣٨٣م تشابه تلك الخدمة الدَّيريَّة في أديرة أنطاكية كما يصفها القدِّيس يوحنا ذهبي الفم قبل ذلك بما لا يزيد عن ست سنوات فقط وهي فترة زمنيَّة قصيرة جداً. كما كانت هناك خدمة مشابهة لهذه الخدمة الصَّباحية الجديدة في نفس هذه الفترة الزَّمنيَّة (حوالي سنة ٣٩٥م) في كنيسة شمال أفريقيا وفي النِّظام الدَّيري لها.

> [... سنصف كيف يجب أن نصلِّي ونكمِّل ترتيل المزامير psalmody . ففي السَّحَر matins تقال ثلاثة مزامير (٦٢، ٥٠، ٨٩) وفي الثالثة ...].

فنلاحظ هنا أن الحديث يتركَّز حول خدمة صلاة السَّحَر matins إذ

11- *Inst.* III, 5.

لا توجد خدمة صلاة باكر prime ، كما أن خدمة صلاة السَّاعة الثالثة تأتي مباشرة بعد صلاة السَّحَر. وحيث أن النَّص المختص بكنيسة شمال أفريقيا قد أشار قبل ذلك إلى خدمة نصف اللَّيل، لذلك فلا يجب أن نتسرَّع ونحكم على الخدمة الصَّباحية الجديدة التي أنشأها كاسيان في فلسطين وندعوها صلاة باكر prime . وواضح هنا أن كاسيان كان يقتدي بأنظمة قد استقرَّت من قبل سواء في أنطاكية أو في شمال أفريقيا.

إن الفقرة ذات الإشكال في كتاب "المعاهد" لكاسيان[١٢] هي السَّبب فيما ظهر من آراء متباينة. فماذا كان يعني كاسيان بالتَّحديد؟ فهو يقول بوضوح:

١ـ في الغرب هناك خدمة صباح منفصلة عن صلاة نصف اللَّيل بفاصل زمني قصير.

٢ـ هذه الخدمة الصَّباحية هي نتاج دير بيت لحم الذي عاش فيه كاسيان قبل أن ينتقل إلى أديرة الغال.

٣ـ هناك خدمة صباحيَّة تسبق تلك الخدمة الصَّباحيَّة الجديدة التي ذكرها كاسيان، وهذه الخدمة الصَّباحيَّة في بلاد الغال منفصلة عن صلاة نصف اللَّيل بفترة راحة قصيرة، ولكنها - أي هذه الخدمة الصَّباحيَّة - تنتهي في بيت لحم في نفس الوقت كخدمة نصف اللَّيل.

أو بمعنى آخر أن هناك خدمة صباحيَّة غير التي ذكرها كاسيان كخدمة صباحيَّة جديدة يفصلها عن صلاة نصف اللَّيل في أديرة الغال فترة راحة، ولكنها في أديرة بيت لحم مرتبطة بصلاة نصف اللَّيل مباشرة.

فإذا وضعنا هذه المعطيات معاً بالإضافة إلى ما ذكره كاسيان في مؤلَّفه، يتَّضح لنا أن القدِّيس يوحنا كاسيان اعتبر أن مزامير السَّحَر في

12- *Inst.* III, 4.

كل من بيت لحم والغال تمثل مزامير خدمة السَّحَر matins . ولكن هذه الخدمة في أديرة الغال أكثر وضوحاً لأنها خدمة منفصلة عن صلاة نصف اللَّيل. أما في بيت لحم فإن مزامير السَّحَر كانت تُرتَّل مباشرة في نهاية تسبحة نصف اللَّيل. ولقد أشار كاسيان إلى هذا الجزء الختامي للسَّهر اللَّيلي على أنه خدمة صباح morning office ، مما يعني أنه يتحدَّث عن نفس الشئ تماماً في كل من بيت لحم وبلاد الغال ولكن بعد فترة راحة قصيرة في الغال. هذه الفترة التي كانت غير موجودة في بيت لحم، حيث تأتي مزامير السَّحَر عقب صلاة نصف اللَّيل مباشرة كما ذكرنا غير مرَّة.

لقد دُعيت مزامير السَّحَر في الغال باسم مزامير الصَّباح، فيقول يوحنا كاسيان:

[لأنه حتى ذلك الوقت نجد أن خدمة الصَّباح كانت تنتهي (في بيت لحم) مع صلاة السَّهر اليومي daily vigil ...].

وإن استقلاليَّة مزامير صلاة السَّحَر كخدمة مستقلَّة متميِّزة، حتى وإن كانت ملحقة بخدمة صلاة نصف اللَّيل نجدها واضحة بالأكثر فيما يذكره يوحنا كاسيان في حديثه عن المزمور (١١٨:١٦٤) «سبع مرَّات سبَّحتك على أحكام عدلك» وذلك في سياق حديثه عن خدمة الصَّباح الجديدة التي أنشأها في بيت لحم، فيقول[١٣]:

[... فبإضافة هذه الخدمة (الجديدة)، والتمسُّك بهذه الاجتماعات الرُّوحيَّة نجد أننا بكل تأكيد نسبِّح الرَّب سبع مرَّات في اليوم].

ولكن مع ذلك نجد أن كاسيان لم يذكر حتى هذه اللَّحظة سوى ست خدمات يوميَّة فقط في مؤلَّفه "المعاهد"، وهي صلاة نصف اللَّيل،

13- *Inst.* III, 4.

خدمة الصَّباح الجديدة، الثالثة، السَّادسة، التاسعة، والغروب. مما يعني أن الخدمة السَّابعة هي صلاة السَّحَر كخدمة مستقلّة متميزة في نظر كاسيان حتى وإن أُلحقت مباشرة بخدمة نصف اللَّيل. وإن العالم الليتورجي شادويك[١٤] O. Chadwik يعتقد بهذا الأمر عينه

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أن القدِّيس يوحنا كاسيان قد ذكر فيما بعد في نفس مؤلّفه "المعاهد[١٥]" حديثاً عن مزامير تُقال قبل الإيواء إلى فراش النَّوم مباشرة. ولقد وجد بعض الشرَّاح في هذا الحديث أساساً أو أصلاً لصلاة النَّوم التي عُرفت فيما بعد. وهنا ربما يظن البعض أن هذه الصَّلاة يمكن أن تكمِّل السَّبع صلوات اليومية التي لم يذكر منها كاسيان سوى ست صلوات فقط، دون الحاجة إلى اعتبار أن صلاة السَّحَر هي خدمة صلاة مستقلّة قائمة بذاتها. أما شرحنا لهذا الأمر فيتلخَّص فيما يلي:

• لم يعتبر يوحنا كاسيان نفسه أن المزامير التي تُقال قبل الإيواء إلى الفراش Bed time psalmody هي أحد السَّواعي السَّبع، لأنه لم يأت على أي ذكر لها في شرحه المُسهب والمُفصَّل عمَّا كان يُمارس من صلوات في أديرة بيت لحم.

• فضلاً عن أن كاسيان عندما أورد قائمة الخدمات اليومية في مؤلفه "المعاهد[١٦]" أشار إلى صلاة الغروب بقوله: [... وفي النهاية ...]، معتبراً أن صلاة الغروب هي الخدمة الأخيرة في اليوم. فلم يكن إذاً هناك أي ذكر لصلاة النَّوم.

• بالإضافة إلى يوحنا كاسيان قد ميَّز المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) بذكر خاص لها في سياق حديثه عن خدمة السَّهر اللَّيلي في بيت لحم،

14- O. Chadwik, *The Origins of Prime*, J.T.S. 49, 1948, p. 179 – 181.
15- *Institutes* IV, 19 : 2.
16- *Institutes* III, 1.

ربما بسبب أن هذه المزامير عينها موجودة أيضاً في خدمة السَّحَر matins في أديرة الغال، أو لكونها ذات أهميَّة خاصة أكثر من كونها مجرد مزامير ختامية تُختتم بها خدمة السَّهر اللَّيلي.

والآن لنعد إلى الرأي الذي يفترض أن رهبان بيت لحم كانوا يرتِّلون كل كتاب المزامير على مدى اللَّيل كله، ومن ثمَّ كانت المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) تأتي في ختام سهرهم اللَّيلي، وهو الرأي الذي كان يهدف إلى إثبات أن هذه المزامير الثلاثة هي ختام تسبحة نصف اللَّيل، ثم أُلحقت فيما بعد على تسبحة السَّحَر.

وفي الحقيقة هذا أمر يصعب تطبيقه عملياً، لأننا من جهة لا نعرف سوى القليل والقليل جداً عن عدد ونظام المزامير في هذه الفترة المبكِّرة من تاريخ الكنسية. ومن جهة أخرى فإن البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) في مقاله عن "البتوليَّة - *De virginitate* " يحض على ترتيل عدد من المزامير على قدر الاحتمال. وأيضاً يخبرنا كالينيكوس Callinicus في سرده لحياة القدِّيس هيباتيوس Hypatius (+ ٤٤٦م) أنه كان يرتِّل مائة مزمور ومجموعة صلوات كل يوم. وحتى رهبان مصر لم يُذكر أنهم وصلوا إلى مثل هذا الحد في ترتيلهم للمزامير، إلاَّ في حالات فردية لبعض الرُّهبان المتوحِّدين. ويشير كاسيان بكل وضوح إلى أن نظام العبادة في دير بيت لحم منقول عما يمارسه الرُّهبان الأقباط في أديرة مصر[١٧]، وفي وصفه المفصَّل جداً لما كان يمارسه رهبان بيت لحم من صلوات، لم يذكر شيئاً عن ترتيل كتاب المزامير كله في كل ليلة أثناء خدمة السَّهر اللَّيلي.

ففي بيت لحم كان هناك سهر ليلي يستمر طيلة ليلة الجمعة حيث

17- *Institutes* III, 1.

يبدأ السَّهر اللَّيلي من غروب شمس يوم الخميس حتى صياح الدِّيك (أي بحوالي ساعتين قبل الفجر) من أجل تكريم آلام الرَّب[١٨]، كما رأينا ذلك في أورشليم في مذكرات السائحة الأسبانية إيجيريا (٢٧:٧).

ومن مصدر يوناني يعود إلى أواخر القرن السَّادس أو أوائل السَّابع الميلادي يصف لنا تفاصيل الزِّيارة التي قام بها كل من الأب يوحنا والأب صفرونيوس للأب نيلس السِّينائي، نعرف منها أن رهبان فلسطين كانوا يراعون سهراً ليلياً ليوم السَّبت، وكان كتاب المزامير كله يُقسَّم إلى ثلاث قومات، كل قومة تحوي خمسين مزموراً، وكانت تُرتَّل كل هذه المزامير ويتخلَّلها قراءات كتابيَّة من العهد الجديد. وتخبرنا هذه الرواية أيضاً أنه بعد انتهاء ترتيل المزامير الـ ١٥٠ مع نهاية القومة الثَّالثة، كانت العادة أن تقال ثلاثة مزامير ثابتة في صلاة السَّحَر التي تعقب القومة الثَّالثة، وهي مزامير السَّحَر الثابتة محافظة على مكانها التَّقليدي في هذه الخدمة غير مرتبطة بالقانون الدَّيري في ترتيل الـ ١٥٠ مزموراً.

والجدول التالي يبين ذلك الأمر، وهو تقسيم مألوف في الطقس البيزنطي وقد انتقل إليه من طقس فلسطين ومن دير القدِّيس سابا Palestinian Sabaitic . والجدول يوضح المشابهة مع صلاة السَّحَر البيزنطية كما تُمارس اليوم.

القومة الأولى: المزامير ١ – ٥٠
أبانا الذي في السَّموات
كيريالیسون ٥٠ مرَّة
فصل من رسالة القدِّيس يعقوب

18- *Institutes* III, 8 , 9.

القومة الثّانية: المزامير ٥١ – ١٠٠
أبانا الذي في السَّموات
كيرياليسون ٥٠ مرَّة
فصل من رسالة القدِّيس بطرس الرَّسول الأولى أو الثانية

القومة الثّالثة: المزامير ١٠١ – ١٥٠
أبانا الذي في السَّموات
كيرياليسون ٥٠ مرَّة
فصل من إحدى رسائل القدِّيس يوحنا الثلاث
تسع تسابيح كتابية مع أبانا الذي وكيرياليسون ٥٠ مرَّة بعد التسبحتين الثّالثة والسَّادسة

صلاة السَّحَر: المزامير ١٤٨ – ١٥٠
المجد لله في الأعالي
قانون الإيمان
أبانا الذي في السَّموات
كيرياليسون ٣٠٠ مرة
صلاة ختاميَّة

وعلى الرَّغم من أن هذا السَّهر اللّيلي يمثل مرحلة متأخِّرة في خدمة أديرة فلسطين عن ذاك الذي وصفه كاسيان، إلاّ أنه يصعب أن نجد فيه ما يؤيِّد وجهة النَّظر التي تقول إن مزامير السَّحَر (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) هي ببساطة نهاية كتاب المزامير الذي كان يُرتل كله في الخدمة الدَّيرية، لأنه رأي لا تسنده الدَّلائل. فالرُّهبان الفلسطينيون يرتِّلون كل كتاب المزامير في خدمة نصف اللّيل على مدى أيام الأسبوع. وكيف يمكننا أن نفسر التَّركيز الذي أشار إليه كل من كاسيان وذهبي الفم على هذه المزامير الثلاثة إن كانت لا تعود لأكثر من كونها مجرد مزامير ختاميَّة لترتيل كتاب المزامير كله؟ ومن جهة أخرى كيف يمكننا تفسير تلك السُّرعة التي بموجبها انفصلت هذه المزامير الثلاثة عن كتاب المزامير كله

لتتَّصل بصلاة السَّحَر في جميع التقاليد الكاتدرائيَّة والدَّيريَّة شرقاً وغرباً؟

الخلاصة

نخلص من كل ذلك إلى وجهتي نظر بخصوص مزامير السَّحَر (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) وأصلها:

وجهة النَّظر الأولى: إن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) هي مزامير ختامية يُختم بها السَّهر اللَّيلي الدَّيري الذي كان يُرتل فيه كل كتاب المزامير، ثم انتقلت هذه المزامير إلى خدمة صلاة السَّحَر.

ويؤيِّد ذلك برهانان:

(أ) ما شهد به كاسيان عن هذه المزامير في خدمة الصَّباح الدَّيريَّة في بيت لحم. وما شهد به فم الذهب عن نفس هذه المزامير في أديرة أنطاكية، عن أن هذه المزامير وُجدت متَّصلة مباشرة بنهاية السَّهر اللَّيلي الدَّيري.

(ب) الشَّهادات المبكِّرة للخدمتين الكاتدرائيَّة الصَّباحيَّة والمسائيَّة في هذه الفترة المبكرة تتحدث عن المزمور (٦٢) كأساس لصلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة. والمزمور (١٤٠) كأساس لصلاة الغروب الكاتدرائيَّة، دون أي إشارة إلى أن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) تمثل جزءاً من صلاة الصَّباح.

وجهة النَّظر الثَّانية: إن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) هي أساس صلاة الصَّباح (السَّحَر) الكاتدرائيَّة، وانتقلت إلى صلاة السَّهر اللَّيلي الدَّيري كنتيجة لتأثير كاتدرائي على الخدمة الدَّيرية.

ويؤيد ذلك براهين أخرى:

(أ) ما شهد به كاسيان في بداية القرن الخامس الميلادي عن

الخدمة الدَّيريَّة في الغرب في بلاد الغال وإيطاليا.

(ب) كل الوثائق الغربيَّة بدءاً من القرن السَّادس الميلادي فصاعداً تضع المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) في نهاية صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة، وليس في خدمة السَّهر اللَّيلي. وصلاة الصَّباح منفصلة عن السَّهر اللَّيلي، ولكن باستثناء النظام الدَّيري ordo monasterii .

(ج) على الرَّغم من أن مصادر شرقيَّة مبكِّرة مثل القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م)، والسَّائحة الأسبانيَّة إيجيريا، ومقالة في البتوليَّة للبابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م)، لا تذكر مزامير السَّحَر صراحة، إلاَّ أنها تشير إلى "ألحان الصَّباح" أو تستخدم بعض الاصطلاحات المشابهة التي لا يمكن إلاَّ أن تحوي إشارات ضمنية لوجود المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠).

(د) على ضوء ما يُمارس الآن في كل الشَّرق باستثناء الممارسة الدَّيريَّة المصريَّة الخالصة لمزامير السَّواعي، فإن هذه الثلاثة مزامير موجودة في بداية صلاة السَّحَر، وتتَّضح الصُّورة بأكثر جلاء عندما تصبح خدمة السَّحَر خدمة صباح مستقلَّة قائمة بذاتها في كل التَّقاليد الشَّرقيَّة.

فهل يمكننا القول أن وجود المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) في نهاية السَّهر اللَّيلي في بعض الاستخدامات الكاتدرائيَّة الدَّيريَّة المختلطة - باستثناء الممارسة الدَّيريَّة الخالصة لمزامير السَّواعي في مصر - يمكن أن يشير إلى تأثير كاتدرائي على صلاة نصف اللَّيل الدَّيريَّة أكثر من كونها تأثير ديري على الاستخدام الكاتدرائي. أو بمعنى أكثر اختصاراً؛ هل يمكننا

القول أن مزامير السَّحَر هي عناصر قديمة لصلاة السَّحَر الكاتدرائيَّة[١٩]؟

إن الأب روبرت تافت Robert Taft بعد هذا الجهد الذي بذله ليثبت أن تسبحة السَّحَر الكاتدرائيَّة هي الأصل، ثم أُلحق عليها - وقبلها مباشرة - تسبحة نصف اللَّيل، لم يجد أمامه من وثائق أو شهادات قديمة تسعفه لاسيَّما في الشَّرق. وهو يقرر هذه الحقيقية بنفسه فيقول: "إن كل الشهادات المبكّرة جداً عن صلاة السَّحَر في الشَّرق غامضة مبهمة[٢٠]". فكنيسة الشَّرق كنيسة حارة بالرُّوح، وقد صهرت هذه الحرارة الروحيَّة نظام العبادة فيها سواء في كنائسها التي في الدَّير أو كنائسها التي في المدن. فالاستيقاظ في نصف اللَّيل لتسبيح الرَّب حتى إلى قرب بزوغ نور الفجر هو تعليم كنسي قديم - لاسيَّما في مصر - لكل أبناء الكنيسة سواء الرُّهبان منهم أم العلمانيين[٢١]. بل إن أي ممارسة كاتدرائيَّة سرعان ما وجدت صداها في الدَّير، كما أن كنائس المدن كانت تقتدي بنظام صلوات الرُّهبان وسهرهم، فالأساقفة في الكاتدرائيَّات هم أصلاً من الرُّهبان الذين نقلوا نظام صلواتهم الدَّيرية إلى كنائسهم الكاتدرائيَّة. ومن هنا كان الفارق الزَّمني بين ما هو كاتدرائي وما هو ديري طفيف للغاية لا يسعف الباحثين في تقسيم نظام العبادة في المدن والأديرة تقسيماً أكاديمياً منهجياً بين ما هو كاتدرائي وما هو ديري. وإذ لا نغفل أبداً المجهود العظيم الذي يبذله علماء الليتورجيَّا في هذا المضمار، ننوِّه هنا إلى سبب صعوبة خوضهم في هذا المضمار.

وبينما يرتبك العلماء في خضم وجهات نظر متباينة، تظل الكنيسة حتى اليوم في كل الطقوس المختلفة ترتل مزامير السَّحَر (١٤٨، ١٤٩،

19- Robert Taft, S.J., *op. cit.*, p. 193 – 201.

20- Robert Taft, S.J., *op. cit.*, p. 202.

٢١- ارجع في ذلك إلى قوانين هيبوليتس القبطية. وقوانين الرسل القبطية.

١٥٠) في بساطة وإخلاص متناهيين، بأنغام متمايزة أظنها لو اجتمعت يوماً – وسوف يكون – لشكّلت سيمفونية سماويَّة رائعة، هي بعينها لحن الخلود، قادم من وراء الأزل "سبِّحوا الله في جميع قدِّيسيه، سبِّحوا الرَّب في السَّموات، هلليلويا. سبِّحوه في الأعالي، أنشدوا للرَّب نشيداً جديداً، هلليلويا. لأن تسبحته في بيعة القدِّيسين، لأن الرَّب يُسر بشعبه، هلليلويا. كل نسمة فلتسبِّح اسم الرَّب إلهنا، هلليلويا".

ثالثاً: العلاقة بين تسبحة نصف اللّيل Nocturns

وتسبحة السَّحَر Lauds

لقد ظلّت العلاقة بين صلاة نصف اللّيل وصلاة السَّحَر تعترض تأريخ تأسيس صلوات السَّواعي. وعلى الرغم من أنه لا يستطيع أحد الزَّعم أنه بمقدوره أن يميط اللثام عن هذه العلاقة بجلاء كامل، إلاّ أننا سنحاول أن نقتفي آثار الأحداث رجوعاً قهقرياً، أي بدءاً من أشكالها المتعدِّدة والمتشابكة حتى إلى نقطة الأصل فيها.

إن النِّظام الدَّيري الخالص لصلوات السَّواعي كان يتلخَّص ببساطة في كلمة واحدة هي "صلّوا كل حين". وفي مصر وبدءاً منها بالتَّحديد وُضع قانون بواسطة ملاك أن يُصلى اثنتا عشرة صلاة في النَّهار، واثنتا عشرة صلاة في اللّيل. وكان هذا هو الأساس الأوَّل الذي قُسِّمت بموجبه خدمة ترتيل المزامير في الاجتماعين اليوميين الصَّباحي والمسائي في الكنيسة إلى مجموعة من اثنتي عشر مزموراً.

وهذا ما تعرَّفنا عليه من القدِّيس يوحنا كاسيان في هذا الوقت في أديرة الوجه البحري بمصر، اجتماعان يوميان، واحد عند الاستيقاظ من النَّوم في الساعات الأولى من الصَّباح، والثّاني بعد الظُّهر وقبل الإيواء إلى الرَّاحة، مع اثني عشر مزموراً وقراءات في كل منهما.

أما مصادر الاستخدام الكاتدرائي الخالص في أواخر القرن الرابع الميلادي - والمعاصرة لكاسيان أيضاً - فتعطينا صورة عن اجتماعين؛ واحد صباحي وهو تسبحة الصَّباح أو تسبحة السَّحَر matins عند شروق نور النَّهار، وآخر عند غروب الشَّمس وهو تسبحة المساء evening song .

وهذان الاجتماعان في كنائس المدن كانا متأخرين نوعاً عن نظيريهما في الأديرة. ولكن هذا لا يعني أننا نتعامل مع صلوات سواعي متباينة أو مختلفة بين ما هو ديري وما هو كاتدرائي. فكلا التَّقليدين هما وارثان تماماً للعادة القديمة أي الصَّلاة في بداية اليوم ونهايته.

فعادة الرُّهبان أنهم يستيقظون مبكراً، ويصلُّون لفترة أطول، لذلك نجد أن الصَّلاة الصَّباحية في الممارسة الكاتدرائيَّة تصبح في الممارسة الدَّيريَّة سهراً ليلياً يمتد لفترة أطول من اللَّيل وحتى شروق نور النَّهار.

فلدينا إذاً خدمتان، واحدة صباحيَّة وأخرى مسائيَّة:

الخدمة الصَّباحيَّة في الأديرة تبدأ مبكرة لتشمل تسبحة نصف اللَّيل ويعقبها مباشرة تسبحة السَّحَر قرب شروق النور. أما في كنائس المدن فإن هذه الخدمة الصَّباحية هي خدمة السَّحَر فقط.

أما الخدمة المسائيَّة فهي صلاة أو تسبحة الغروب في كلا الممارستين الكاتدرائيَّة والدَّيريَّة.

ثم مع الوقت ظهرت الممارسة المختلطة أي الكاتدرائيَّة والدَّيريَّة معاً لاسيَّما في الأديرة القريبة من المدن كما حدث في أديرة بيت لحم وأنطاكية وكبادوكية وبلاد الغال. فنجد في هذه الخدمات الدَّيريَّة شواهد مختلفة لتقاليد مختلطة حاوية كل العناصر الدَّيريَّة والكاتدرائيَّة معاً في خدمة صلوات السَّواعي. وهذه الخدمات المختلطة لا تقع في إطار نظام واحد، بل في عدة أنظمة مختلفة تعتمد على ما يناسب كل منطقة على حدة. أي أن الرُّهبان القريبين من المدن عندما يبدأون في تطوير عناصر هذه الخدمات الليتورجيَّة لتحوي مزيجاً من الممارستين الدَّيريَّة والكاتدرائيَّة فإنهم حتماً سيسلكون واحداً من عدة أساليب مختلفة:

(١) فالبعض يبدأون بالاستخدام الدَّيري كأساس يضيفون إليه عناصر ليتورجيَّة كاتدرائيَّة.

(أ) ففي أديرة بيت لحم وأنطاكية، أضاف الرُّهبان المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) المستخدمة في صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة إلى نهاية صلوات سهرهم اللَّيلي الدَّيري، محتفلين بالخدمتين معاً دون فاصل بينهما. وبعد ذلك؛ ولكي يستيقظوا مع شروق الشَّمس بعد أن عادوا إلى فراشهم لأخذ قسط من الرَّاحة بعد هذه الخدمة اللَّيلية vigil أُنشئت صلاة صباحية جديدة تحوي عناصر ليتورجيَّة واضحة من صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة مثل المزامير (٥٠، ٦٢، ٨٩). وعلى ذلك فقد استوعبوا في صلواتهم عناصر صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة، وقسَّموها إلى قسمين: القسم الأوَّل هو إضافة مزامير السَّحَر الكاتدرائيَّة إلى نهاية خدمة السَّهر اللَّيلي الدَّيري، كي يُفتتح بها اليوم الجديد. والقسم الثاني هو إضافة عناصر أخرى من صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة إلى صلاة الصَّباح الجديدة. وهكذا يتَّضح لنا ما ذكره القدِّيس يوحنا كاسيان في مؤلَّفه "المعاهد[٢٢]" حين يذكر خدمتي صلاة، هما صلاة الصَّباح الجديدة ومزامير السَّحَر في نهاية السَّهر اللَّيلي على أنها - أي المزامير - خدمة صباح أو خدمة سَحَر هي الأخرى.

(ب) في أديرة الغال يختم الرُّهبان سهرهم الدَّيري. وبعد فترة راحة قصيرة يحتفلون بخدمة السَّحَر حاوية مزامير السَّحَر التي يُظن أنها مستعارة من الممارسة الكاتدرائيَّة.

(٢) البعض الآخر يبدأون بالممارسة الكاتدرائيَّة ويضيفون إليها عناصر ديريَّة. ففي الصُّبح وفي ساعة صلاة الصَّباح الكاتدرائيَّة، يحتفل

٢٢- *Institutes* III, 3 , 6

النسَّاك الكبادوك بصلاة السَّحَر matins حاوية المزامير (٥٠، ٦٢) بالإضافة إلى "ألحان وتسابيح" أخرى. وإلى هذه الخدمة الصَّباحية ألحقوا قبلها خدمة صلاة نصف اللَّيل mesonyktikon الدَّيريَّة. وهذا ما نود أن نشرحه كنظام مختلط، جاءت أصوله الأوليَّة من الممارسة الكاتدرائيَّة كصلاة كاملة ومستقلة تقال عند الفجر، أضاف إليها الرُّهبان فيما بعد عناصر صلاة السَّهر اللَّيلي كممارسة الأديرة. وربما يكون هذا الأمر هو تفسير ما ورد في كتاب القدِّيس باسيليوس الكبير، وفي مقال "في البتولية" للبابا أثناسيوس الرَّسولي.

فأي نظام من هذين النِّظامين كان هو الأكثر قدماً؟

كان كاسيان قد وصل إلى بيت لحم حوالي سنة ٣٨٥م، وانتقل إلى أديرة الغال حوالي سنة ٤١٥م. لذلك فإن الممارسة الدَّيريَّة لأديرة الغال كإحدى المقاطعات التابعة لروما آنئذ جاءت متأخرة عما نجده في الممارسة الدَّيريَّة لدير بيت لحم بحوالي ٣٠ سنة. ولكن لم تكن الممارسة المختصَّة بأديرة الغال للمزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) في خدمة الصَّباح أو السَّحَر – كممارسة منفصلة ومتميزة عن خدمة السَّهر اللَّيلي vigil – هي نتاج ممارسة قديمة لدير بيت لحم. إذ ظلَّت خدمة صلاة السَّحَر في أديرة بيت لحم خدمة متَّصلة مباشرة بخدمة صلاة السَّهر اللَّيلي أو صلاة نصف اللَّيل بدون فاصل زمني بينهما.

إننا نلاحظ أن صلاة السَّحَر كخدمة منفصلة عن صلاة اللَّيل هي الأمر الأكثر شيوعاً في كثير من الأماكن في الممارسة الكاتدرائيَّة، وفي بعض الممارسات الكاتدرائيَّة الدَّيريَّة المختلطة أيضاً. ولكن يُستثنى من ذلك الممارسة الدَّيريَّة المصرية الخالصة، إذ ظلَّت الخدمة الدَّيريَّة في أديرة مصر بالذَّات خدمة ديريَّة نقيَّة لم تختلط بممارسات كاتدرائيَّة.

وبالمقارنات الليتورجيَّة نجد أن التَّرجيح يميل بالأكثر لصالح النظام الذي يرى أن مزامير السَّحَر هي الأساس في الممارسة الكاتدرائيَّة الخالصة، ثم دخلت بعد ذلك إلى الممارسة الدَّيريَّة بطرق مختلفة معتمدة على تقليد كل كنيسة على حدة.

وربما كان الرَّاهب أرنوبيوس الأصغر Arnobius the Younger (+٤٧٠م) وهو راهب من كنيسة شمال أفريقيا قد أشار إلى تلك الممارسة الكاتدرائيَّة في تعقيبه على المزمور (١٤٨) عندما يذكر أنه يُرتل في كل العالم عند الفجر.

• **خدمة صلاة واحدة أم خدمتان؟**

يميل بعض علماء اللِّيتورجيَّا[٢٣] إلى اعتبار أن ترتيل الأبصلموديَّة في خدمة اللَّيل المختلطة كما نراها اليوم هي في الأساس خدمة سَهر ليلي منفصلة ومتميزة عن خدمة السَّحَر Lauds ، التي أُلحقت عليها فيما بعد، وهو ما نراه في معظم الخدمات الباقية للآن[٢٤].

ولم يكن يُحتفل بهاتين الخدمتين دائماً كخدمتين منفصلتين عن بعضهما. إلاَّ أن هناك بعض الوثائق القديمة التي تميِّز بين خدمة السَّهر اللَّيلي vigil وخدمة السَّحَر matins المركَّبة كخدمتين وليس كخدمة واحدة متَّصلة، وفي ذات الوقت لم تخبرنا هذه الوثائق تحديداً كيف كان يُحتفل بهما.

ويرى العالم ليروي J. Leroy أنه في القرن التاسع الميلادي وفي

٢٣- أمثال الأب ماتيوس Mateos ، والأب روبرت تافت Robert Taft .

24- Lelya - Sapra, *Les Matines Chaldéenes, Maronites et Syriennes*, p. 54, 55, 58, 61.

السَّنوات التي أعقبت مباشرة نياحة ثيؤدور الإستوديتي (٧٥٩- ٨٢٦م) كانت خدمة السَّحَر في القسطنطينيَّة خدمة مركَّبة واحدة one composite office أي تشمل خدمة صلاة نصف اللَّيل nocturns وخدمة السَّحَر matins معاً، وهو ما صار معمولاً به في كل الكنائس حتى اليوم. ولكن إدخال سهر القيامة بين خدمة نصف اللَّيل وخدمة السَّحَر في الآحاد والأعياد فيما يُعرف باسم السَّهر اللَّيلي طوال اللَّيل All - night Vigil في ممارسة الأديرة البيزنطيَّة وكاتدرائيَّات بطريركيَّة موسكو كشف عن الأصل الحقيقي لهاتين الخدمتين أنهما في حقيقتهما خدمتان منفصلتان عن بعضهما.

وفي الطَّقس البيزنطي فإن خدمة نصف اللَّيل mesonyktikon وهي الخدمة التي تأتي الآن بين خدمة صلاة النَّوم compline وخدمة السَّحَر orthros تُحذف عندما يُحتفل بسهر يمتد طوال اللَّيل. حيث تُتبع خدمة الغروب Vespers مباشرة بترتيل مزامير السَّحَر. وهذا يوضح لنا أمرين على قدر من الأهميَّة:

الأمر الأوَّل: أن خدمة صلاة السَّحَر لم تكن في أصلها خدمة ليليَّة، ولكن الخدمة اللَّيليَّة هي التي أُلحقت بصلاة السَّحَر لتكون سابقة عليها كمقدِّمة لها.

الأمر الثَّاني: أن خدمة نصف اللَّيل هي خدمة أُضيفت في زمن متأخِّر نوعاً لتملأ فراغاً في الممارسة الكنسيَّة، وهو الفراغ الذي نشأ بسبب المزج أو الخلط بين أصل صلاة اللَّيل وبين صلاة السَّحَر[٢٥].

• الخلاصة

إن موضوع أصل وتاريخ تسبحة نصف اللَّيل وتسبحة السَّحَر وعلاقتهما ببعضهما البعض يضعنا أمام أبحاث كلاسيكيَّة في الليتورجيَّا

25- Robert Taft, S.J., *op. cit.*, p. 202 – 206.

المقارنة، نوجزها فيما يلي:

(١) هناك مجموعة من المتشابهات تظهر لنا إما أصل مشترك في التَّقليد المبكّر الأولى. أو استعارة متأخرة، وتأثير مختلط متبادَل بين التَّقاليد المختلفة.

(٢) هناك مجموعة من الافتراضات يجب أن تُفسَّر بطريقة لا تتعارض مع ما ذُكر في البند السَّابق. ولنعرض الآن للمعطيات ثم التَّفسير.

(أ) المعطيات

هناك عدَّة حقائق واضحة نوجزها كالآتي:

• في كلا الممارستين الكاتدرائيَّة والدَّيريَّة كانت توجد أساساً خدمة واحدة في بدء اليوم. وهذه الخدمة هي صلاة السَّحَر matins في الممارسة الكاتدرائيَّة، أو صلاة نصف اللَّيل nocturns في الممارسة الدَّيريَّة.

• كان ترتيل المزامير في الممارسة الدَّيريَّة ترتيلٌ متصلٌ مستمرٌ، وبنفس ترتيبها الذي وردت به في كتاب المزامير، هو الأساس أو الأصل.

• المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) وُجدت في نهاية خدمة اللَّيل الدَّيريَّة في بيت لحم وأنطاكية طبقاً لما يذكره ذهبي الفم وكاسيان.

• في بلاد الغال وإيطاليا، طبقاً لكاسيان، وفي أي مكان آخر بدءاً من القرن السادس، تمثل المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) جزءاً ثابتاً في صلاة الصَّباح في كافة الخدمات الكاتدرائيَّة أو الدَّيريَّة الكاتدرائيَّة المختلطة، ولكن ظل الاستخدام الدَّيري الخالص في كنيسة مصر غير خاضع لهذا التَّعميم.

• في معظم الطُّقوس الحالية اشتملت صلاة السَّحَر على خدمة ديريَّة طويلة لترتيل المزامير تصدَّرت صلاة السَّحَر أي أصبحت سابقه عليها.

• بدءاً من القرن السادس فصاعداً أُتبعت خدمة السَّحَر بصلاة

باكر Prime .

(ب) التَّفسير

ليس هناك أي جدال في الحقائق السَّابق ذكرها في المعطيات التي ذكرناها للتَّو، ولكن كان الجدل هو في كيفيَّة تفسير هذه الحقائق. فالأب برادشو Bradshaw يرى أن أصل مزامير السَّحَر هو السَّهر الدَّيري، وليس السَّحَر الكاتدرائي. وإن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) ليست سوى الختام الطبيعي لترتيل كل كتاب المزامير الذي يمتد طوال اللَّيل. ومن هنا انتقلت هذه المزامير الثلاثة الأخيرة إلى خدمة السَّحَر الكاتدرائيَّة وإلى الخدمات المختلفة بين الكاتدرائيَّة والدَّيريَّة.

ولكن الأب روبرت تافت Robert Taft لا يوافق الأب برادشو، ويقول: إن خدمة السَّحَر الكاتدرائيَّة هي خدمة كنسيَّة وليدة موطنها الذي نشأت فيه. أي أن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) هي عنصر أصلي في صلاة السَّحَر استعارها السَّهر اللَّيلي من السَّحَر الكاتدرائي كما يشرح كاسيان وذهبي الفم، وذلك للأسباب التالية:

- ليس هناك دليل يفيد أن كتاب المزامير كان يُرتل كله في كل ليلة في خدمة السَّهر الدَّيري. وحتى إن كان هذا الأمر قد حدث فعلاً، فهذا لا يثبت أن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) كانت جزءاً أساسياً في خدمة السَّحَر الكاتدرائيَّة كما في سهر السَّبت الذي وُصف في رواية اللقاء الذي حدث مع القدِّيس نيلس Nilus السِّينائي.
- لم يعتبر القدِّيس يوحنا كاسيان أن المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) هي مجرد نهاية للمائة والخمسين مزموراً، لكنه أشار إليها كوحدة ليتورجيَّة مستقلَّة داعياً إياها "خدمة الصَّباح" حتى في بيت لحم حيث كانت هذه المزامير ملحقة بصلاة اللَّيل noturns .

• المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) هي آخر مزامير تُرتل في صلاة السَّحَر وليس في ختام صلاة نصف اللَّيل في كل الطقوس الموجودة حالياً.

• بعيداً عن كاسيان في بيت لحم، وفم الذَّهب في أنطاكية، يُظهر لنا الوصف المبكِّر للخدمات الدَّيريَّة العلمانيَّة Urban monastic أو الخدمات الكاتدرائيَّة المتأخِّرة المختلطة أنه كان لصلاة السَّحَر مزامير أخرى غير المزمور (٦٢)، وهذه المزامير الأخرى ربما كانت هي المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠).

لم يكن من الممكن أنه في خلال قرن واحد من الزَّمان تنتقل المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) من السَّهر الدَّيري إلى السَّحَر الكاتدرائي أو السَّحَر المختلط (الكاتدرائي الدَّيري) في كل مكان في العالم المسيحي، وعلى نسق واحد عام. وإن حدث وكان هذا ممكناً فإنه من غير المرجَّح ألاَّ يترك هذا التطوُّر أي أثر قديم له في أي مكان، ولا حتى في الخدمة الدَّيريَّة الخالصة في مصر، ومعروف أن كنيسة مصر من أكثر كنائس المسكونة حفاظاً على التَّقليد القديم، لاسيَّما في كنائس الأديرة.

وفي النهاية وبعد كل هذا البحث نورد من داخل الطَّقس القبطي، والتقليد الليتورجي المستقر في الكنيسة القبطيَّة، ما يثبت أن مزامير تسبحة السَّحَر (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) أي الهوس الرَّابع في التَّسبحة القبطيَّة هي بداية خدمة قائمة بذاتها وليست ختاماً لتسبحة نصف اللَّيل.

فالهوسات الثَّلاثة الأولى تأتي متتابعة، أما الهوس الرَّابع فيفصله عنها مجمع القدِّيسين في التَّسبحة، ومن بعده الذُّكصولوجيَّات أيضاً.

كما أن الهوس الرَّابع – مع ما يتبعه من إبصاليَّة وثيؤطوكيَّة – هو بداية تسبحة رفع بخور عشيَّة، مما يعني أنه جزءٌ مستقلٌ بذاته، يمثل

تسبحة كاملة تمهِّد لصلوات رفع بخور عشيَّة، ويمثل تسبحة سَحَر متَّصلة، بتسبحة نصف اللَّيل، تمهد لصلوات رفع بخور باكر.

ومما هو جدير بالذِّكر أن خدمة تسبحة السَّحَر في الكنيسة الإثيوبيَّة والتي تبدأ بالهوس الرَّابع (المزامير ١٤٨ – ١٥٠) قد أُسبقت في المخطوطات الإثيوبيَّة بعنوان "باسم الثالوث القدُّوس. صلاة عند صياح الدِّيك".

الفَصل الثَّالث

عناصر تسبحة نصف اللَّيل
في الطقـــوس الشَّرقيَّة المختلفة

تمهيد

يشتمل السَّهر اللّيلي في الطقوس الشَّرقيَّة على ثلاثة أشكال رئيسية:

- السَّهر الأسبوعي ليلة الأحد من كل أسبوع لتذكار القيامة.
- سهر ليلي في المناسبات الكنسيَّة حسب كل منطقة وتبعاً لتقاليدها.
- سهر ليلة عيد القيامة وبعض الأعياد الكنسيَّة الأخرى.

ويمكن أن يمتد هذا السَّهر اللّيلي ليشغل إما وقتاً طويلاً من اللّيل، أو يُختصر ليحتل وقتاً أقل طبقاً للمناسبة التي أُقيم من أجلها، وربما يحتل طيلة اللّيل كله بدءاً من صلاة الغروب وحتى نهاية صلاة السَّحَر قرب ظهور النُّور.

كما أن الاحتفال بهذا السَّهر اللّيلي يمكن أن يكون احتفالاً قائماً بذاته بمعزل عن أي خدمات كنسيَّة أخرى كإقامة القدَّاس الإلهي مثلاً.

وقبل أن أعرض موجزاً لما تحويه صلاة نصف اللّيل من عناصر ليتورجيَّة في الطُّقوس الشَّرقيَّة المختلفة، أود أن أنبِّه ذهن القارئ إلى أن تسبحة السَّحَر في هذه الطُّقوس الشَّرقيَّة المختلفة لم أسجِّلها هنا، إذ وجدتُ أنه من الأوفق نقلها إلى حيث الحديث عن "طقس رفع البُخور في باكر" في الكنيسة القبطيَّة، إذ أن تسبحة السَّحَر في هذه الطُّقوس

المختلفة هي تسبحة كاتدرائيَّة تتَّفق في كثير من عناصرها مع طقس رفع البُخور في الكنيسة القبطيَّة، ولاسيَّما أننا نود أن نركِّز حديثنا عن تسبحة نصف اللَّيل وتسبحة السَّحَر في الكنيسة القبطيَّة في البَاب القادم.

عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطقس الأرمني

صلوات افتتاحيَّة:	الذُكصا "المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس ..."، أبانا الذي في السَّموات.
ابتهال:	«الذبيحة لله روح منسحق، القلب المنكسر والمتواضع يا الله لا ترذله» (مزمور ٥٠: ١٧).
المزامير:	٣، ٨٧، ١٠٢، ١٤٢
ترتيل Chant	
أدعية Biddings	
ترتيل مرة أخرى	
صلاة قصيرة Collect	
ترتيل الأبصلموديَّة:	ذُكصا.
	المزامير.
	صلاة على المنتقلين (أُضيفت حديثاً).
	تسبحة من تسبحات العهد القديم.
	مرد على التَّسبحة Anthem of the Canticle .
صلوات ختاميَّة:	طلبات.
	صلاة قصيرة[1] Collect .
	ترتيل ختامي وصلوات ختاميَّة.

وخدمة صلاة نصف اللَّيل في الكنيسة الأرمينيَّة الشَّقيقة هي الوحيدة بين كل خدمات نصف اللَّيل في باقي الطقوس المختلفة التي يتم فيها

١- ويقابلها في الطقس القبطي صلاة التحليل في ختام الصلوات.

ترتيل كتاب المزامير كله بعد تقسيم هذه المزامير إلى مجموعات.

وطبقاً للدِّراسة التي قام بها وينكلر G. Winkler على هذه الخدمة الأرمينيَّة، فإن كتاب المزامير كله – باستثناء مزامير السَّحَر – يُقسم إلى ثمانية مجموعات (أي بتعبير أدق "ثمانية قوانين"). وكل مجموعة أو كل قانون يحوي تسبحة من تسبحات العهد القديم. وترتيل المزامير اليومي لخدمة صلاة نصف اللَّيل يتكوَّن من قانون واحد مع تسبحته المصاحبة له من العهد القديم.

وسابقاً، كان كل قانون Canon يحوي سبعة أقسام فرعيَّة subsections ، أما القسم السَّابع منها فقط، فكان هو المُستخدم فعلياً في الصَّلاة. والآن حلَّت الألحان محل تسبحات العهد القديم.

ونلاحظ أن المزامير التي تُفتتح بها هذه الخدمة invitatory psalms هي المزامير (٣، ٨٧، ١٠٢، ١٤٢) والتي تحوي أربعة من السِّتة مزامير التي تتضمَّنها بداية صلاة السَّحَر الحالية في الطقس البيزنطي. أما المزمور الأساسي فيها فهو المزمور الثالث «يارب لماذا كثر الذين يحزنونني ... أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت، لأن الرَّب ناصري ...». وهو نفسه المزمور الافتتاحي لمزامير صلاة نصف اللَّيل nocturns في الطقس القبطي. ويشترك معهما أيضاً في هذا الشأن الطقس الكلداني والتكريتي والبيزنطي الحالي والبيزنطي القديم، كما أنه يوجد أيضاً في الخدمة الدَّيريَّة في الطقس اللاتيني.

عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطَّقس السِّرياني الأنطاكي

تكتنف دراسة تسبحة نصف اللَّيل الأنطاكيَّة والسَّهر الكاتدرائي الأنطاكي مشاكل صعبة بسبب ازدواج تسبحة السَّحَر والتي نشأت من

إدماج صلاتي السَّحَر الدَّيريَّة والكاتدرائيَّة معاً.

فتسبحة السَّحَر المزدوجة هذه أصبحت تحوي بقايا صلاة نصف اللَّيل الكاتدرائيَّة مع بقايا السَّهر الكاتدرائي، بالإضافة إلى إحلال الألحان الكنسيَّة الأنطاكية محل ترتيل الأبصلموديَّة (المزامير) المتَّصل. وهكذا لم يبق من السَّهر الكاتدرائي الأنطاكي سوى بقايا أُلحقت على صلاة السَّحَر الأنطاكية، ثم المارونية بعد ذلك.

أما عناصر بقايا السَّهر الكاتدرائي في كلا هذين الطَّقسين الأنطاكي والماروني فهي:

بقايا السَّهر الكاتدرائي الأنطاكي	بقايا السَّهر الكاتدرائي الماروني
مزمور ٥٠	تعظم نفسي الرَّب
مزمور ٦٢	مزمور ٦٢
مزمور ١٨	مزمور ٩٠ في الأعياد
تسبحة إشعياء (٤٢: ١٠-١٣، ٤٥: ٨)	

عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطقس الكلداني

تُدعى صلاة نصف اللَّيل nocturns في هذا الطَّقس باسم: "ليليا – Lelya". وهناك عدة أنواع من السَّهر الدَّيري Monastic Vigil في التقليد الكلداني تعتمد على العيد أو اليوم الذي يُقام فيه هذا السَّهر.

ففي الأيام العادية Ferial days [٢] يستيقظ الرُّهبان لتأدية صلاة

٢- الكلمة اللاتينية feria هي كلمة قديمة تعني "يوم عيد"، أو "يوم عطلة". وفي اللغة الكنسيَّة أصبحت الكلمة تعني بعض الأيام دون بعضها الآخر، وهي غالباً أيام

نصف اللَّيل في منتصف اللَّيل يتبعها فترة راحة قبل بداية صلاة السَّحَر. أما البنية القديمة لهذه الخدمة الليليَّة في السَّهر الدَّيري فهي:

صلاة افتتاحيَّة Invitatory :	مزمور ٦:٣ - ٩ «أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت لأن الرَّب عضدني ...». مزمور ١١٣ «البحر رآه فهرب، والأردن رجع إلى خلف ... ليس لنا يارب، ليس لنا، بل لاسمك القدُّوس أعط مجداً من أجل رحمتك ...» أو مزمور ٦٢:١١٨ - ٦٤ «في نصف اللَّيل نهضت لأشكرك على أحكام برك ...». أو مزمور ٥٧:١١٨، ٥٨ «نصيبي أنت يارب ...». مزمور ٩١ «حسن هو الحمد للرَّب ... أن يُخبر برحمتك في الغداة، وحقَّك في كل ليلة ...»
ترتيل الأبصلموديَّة: قطع شعرية موزونة ذات مرد: مزمور مع مرده لحن ثم طلبة	وهي تُقسَّم إلى سبعة هولاَّل Hallal [٣] وتُسمى "عونياتا د ماوتبا – Onyata d- mawtba"

ويقسَّم كتاب المزامير في الليتورجية السريانية الشَّرقيَّة (أي الآشوريَّة أو النَّسطوريَّة) إلى ٦٠ مارمياتا marmyata ، وكل مارمياتا تحوي غالباً ثلاثة مزامير. وقد جُمعت هذا المارمياتا marmyata في عشرين هولاَّل

الأسبوع عدا السبوت والآحاد. وتعني أيضاً الأيام التي لا يُحتفل فيها بأي عيد. فهي إذاً تعني الأيام العادية. أي الأيام التي لا تقع فيها أعيادٌ كنسيَّة، وكذلك أيام السبوت والآحاد. وتاريخ تغير معنى الكلمة يكتنفه الغموض والإبهام.

Cf. Cross, F. L., & Livingstone, E. A., *The Oxford Dictionary of the Christian Church (ODCC)*, (2nd edition), 1988, p. 508

٣- انظر معنى الكلمة في المتن مباشرة بعد قليل.

Hallal ، كل هولاّل Hallal منها يحوي ثلاثة مارمياتا.

أما المصطلح "ماوتبا – mawtba " فيعني قطعة شعريَّة تعقب ترتيل المزامير لها نفس المعنى والاستخدام. وهي تقابل المصطلح الطقسي "كاثيسما[٤] – kathisma " المستخدم في الكنيستين القبطيَّة والبيزنطيَّة.

وفي الأيام التي تُصلى فيها صلاة النَّوم Compline ، فإن صلاة نصف اللَّيل الدَّيرية Lelya تتبع صلاة النَّوم مباشرة دون فترة راحة بينهما.

أما في أيام الآحاد، وبدلاً من الرجوع إلى الفراش للرَّاحة بعد صلاة نصف اللَّيل Lelya فإن الرُّهبان يرتِّلون قسمين آخرين من كتاب المزامير، حيث ينتقلون بذلك إلى السَّهر الكاتدرائي[٥] Cathedral Vigil مباشرة، ثم يعقبه تسبحة السَّحَر Sapra ، ويُلحق به للتَّو الاحتفال بالإفخارستيَّا.

وفي عشية الثَّلاثة أعياد التي للميلاد والغطاس والجمعة العظيمة فإن السَّهر اللَّيلي يمتد أيضاً ليشمل اللَّيل كله.

عناصر تسبحة السَّهر الكاتدرائي في الطقس الكلداني

يُحتفل بتسبحة السَّهر الكاتدرائي في هذا التَّقليد في "النارثكس – narthex[٦]" في مؤخِّرة صحن الكنيسة، نظراً لغياب "البيما – bema "

---

٤ – "كاثيسما" أي فترة راحة أو جلوس بعد ترتيل طويل للأبصلمودية. ولازال الطقس القبطي يحتفظ بهذا التقليد في ترتيل الأبصلموديَّة، أما الطقوس البيزنطية والكلدانية فتُرتل فيها "الكاثيسما" الآن وقوفاً.

٥ – يُسمى السَّهر الكاتدرائي في السريانية "كالدصاهرا – qale d- šahra ".

٦ – "النارثكس" كلمة يونانية νάρθηξ تعني غرفة واسعة توصِّل إلى صحن الكنيسة، ويفصلها عنه حائط أو صف من الأعمدة. وكان يقف في النارثكس الموعوظون وطالبو المعمودية والتائبون. و"النارثكس" غير "الإكسونارثكس –

الذي كان يقع في منتصف صحن الكنيسة.

ونورد فيما يلي عناصر السَّهر الكاتدرائي Cathedral Vigil في التَّقليد الآشوري (الكلداني) القديم، مقارناً بسهر ليلة أحد القيامة في أورشليم، والذي وصفته السَّائحة الأسبانيَّة إيجيريا في القرن الرابع الميلادي (٢٤:٩ - ١١). إذ نلاحظ وجود تشابه بينهما حتى اليوم.

السَّهر الكاتدرائي الكلداني	السَّهر الكاتدرائي في أورشليم
فتح أبواب الهيكل	دخول الأسقف
موكب الأسقف إلى البيما	
ثلاثة مارمياتا marmiata وهي تتكون أساساً من تسبحات من العهد القديم، تُتبع بصلوات.	ثلاثة مزامير وصلوات
	تذكارات ثم فصل من الإنجيل.
موكب من البيما إلى الهيكل، ويُرتل في أثنائه "عونيتا - onyta"، أي قطعة شعرية ذات مرد.	موكب إلى الصَّليب مصحوباً بلحن.
مزمور ذو مرد، ويُسمى في السريانية "صُبَّاحا - šubbaha". المجدلة، وهي قطعة شعرية تبدأ بكلمة "المجد ..." وتُسمى في السريانية "تصبوحتا - Tešbohta".	مزمور
طلبة وصلاة ختاميَّة.	صلاة.

والموكب من البيما إلى الهيكل في السَّهر الكاتدرائي الكلداني هو تطبيق مباشر للموكب الذي وصفته إيجيريا من القبر المقدَّس إلى موضع

---

exonarthex " وهو سقفية الباب الخارجي porch والذي يفتح على الشارع مباشرة.

الصَّليب المقدَّس أي الجلجثة Calvary (١١:٢٤). ولكن يلزم أن نشير هنا إلى أن المعنى الأصلي لهذا الموكب الأورشليمي إلى الصَّليب (الجلجثة) قد فقد معناه، وأصبح في الطقس الكلداني متعارضاً مع هذا المفهوم. لأن مذبح البيما يمثِّل الجلجثة. وطقس البيما يمثل حياة الرَّب بيننا على الأرض التي أكملها في أورشليم. وموكب الكهنة صوب الهيكل يوضِّح أن الصعود قد تم، لأن الهيكل في الكنيسة هو رمز السَّماء[٧].

تسبحة نصف اللَّيل والسَّهر الكاتدرائي في الطقس البيزنطي

إن صلاة اللَّيل البيزنطيَّة هي مزيج من أربع خدمات متمايزة وتحمل جميعها اسم Matins وهي:

الأولى: تسمى الخدمة الملكيَّة Royal Office ، وهي خدمة مختصرة يحتفل بها الرُّهبان في حضور الإمبراطور البيزنطي. ويُظن أنها كانت تُمارس في أديرة ملكيَّة، أي تابعة للإمبراطور. وقد أضافها الرُّهبان على نظام خدمتهم الدَّيريَّة الأصيلة، فجاءت غريبة لا تلقى رواجاً في كنائس الإيبارشيَّات. وهي تتلخَّص في صلوات افتتاحيَّة، والمزموران ١٩، ٢٠، وفي النهاية طروباريَّة.

الثَّانية: هي صلاة نصف اللَّيل nocturns الدَّيريَّة التي تُرتَّل فيها المزامير ترتيلاً متَّصلاً continuous psalmody .

الثَّالثة: السَّهر الكاتدرائي Cathedral Vigil ، ويُحتفل به في الآحاد والأعياد في كنائس المدن. وهو من النَّوع الذي وصفته إيجيريا، وورد أيضاً في المراسيم الرسوليَّة.

الرَّابعة: تسبحة الصَّباح الكاتدرائيَّة والتي تبدأ بالمزمور الخمسين،

7- Robert Taft, S. J., *op. cit.*, p. 231, 232

وتحوي مزامير السَّحَر الشَّهيرة (١٤٨ - ١٥٠)، مع طلبات وصلوات[٨].

عناصر تسبحة نصف اللَّيل البيزنطيَّة

افتتاحيَّة

ستة مزامير (٣، ٣٧، ٦٢، ٨٧، ١٠٢، ١٤٢).

اثني عشر صلاة يقولها الكاهن أثناء ترتيل السِّتة مزامير.

السينابت الكبير[٩] Great Synapt .

ثم في الأعياد يُقال	ثمَّ في الأيام العادية يُقال
آيات من المزمور ١١٧	آيات من المزمور ١١٧ (وفي الصَّوم الكبير يُقرأ إشعياء ٢٦)
. طروباريَّة	طروباريَّة
أبصلموديَّة ديريَّة (أي ترتيل المزامير)، وتُحذف غالباً في كنائس الإيبارشيَّات.	أبصلموديَّة ديريَّة (ترتيل للمزامير)
أبصلموديَّة: قومتان أو هجعتان يُقال بعد كل منهما السِّينابت الصَّغير	أبصلموديَّة مع طروبارية، ويُقال السِّينابت الصَّغير بعد كل قومة.

عناصر تسبحة السَّهر الكاتدرائي البيزنطيَّة

أبصلموديَّة (ترتيل للمزامير) وألحان.

مزمور ١١٨ أو المزامير (١٣٤، ١٣٥) يُضاف عليها المزمور ١٣٦ في الصَّوم المقدَّس الكبير. وهذه المزامير الثلاثة الأخيرة تُسمى في الطقس البيزنطي Polyeleos .

رفع البخور.

٨- هذه الخدمة الرابعة عرضنا لعناصرها في كتاب "صلوات رفع البخور في عشية وباكر".

٩- الرجاء الرجوع إلى كتاب "معجم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الثاني" للمؤلف.

إفلوجيطاريا.
السِّينابت الكبير.
إيباكوئي (في الآحاد) أو ألحان موسميَّة.
طروباريَّات أي ألحان.
بروكيمينن "فلنصل للرب".
إيكفونيسيس Ekphonesis "كل نسمة فلتسبِّح الرَّب ...".
فصل الإنجيل المقدَّس. وفي الآحاد والأعياد يُقال فصل إنجيل القيامة. ثم طروباريَّة القيامة.

وإن ما يذكره ابن كبر في الباب السَّادس عشر من كتابه "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة" عن عناصر التَّسبحة، فلا علاقة له بالتَّسبحة القبطيَّة، بل هو ما كانت تتبعه الكنيسة البيزنطيَّة من نظام التَّسبيح حين يقول: "... وأما الذي رُسم في التَّسابيح على ما ورد في القوانين، صلاة تسبحة الثلاثة فتية في كل يوم، وتختم الصَّلاة أبدا بصلاة السيِّدة (ربما تسبحة تعظم نفسي الرَّب ...). تسبحة موسى الأولى يوم الاثنين، تسبحة موسى الثانية يوم الثلاثاء، تسبحة حنَّة أم صموئيل يوم الأربعاء، تسبحة حبقوق النبي يوم الخميس، تسبحة إشعياء النبي يوم الجمعة، تسبحة يونان النبي يوم السَّبت. وجميع هذه التَّسابيح تقال يوم الأحد ...".

خدمة السَّهر اللَّيلي في كنيسة روسيا

تُعد خدمة السَّهر اللَّيلي في كنائس إيبارشيَّات روسيا أو كنائس أديرتها من بين أبدع الخدمات الليتورجيَّة في العالم المسيحي[١٠]. وهو سهر تبدأ خدمته بصلاة المزامير في الغروب، ثم يعقبها سهر ليلة الأحد باعتبار يوم الأحد هو تذكار عيد القيامة، ويليها مباشرة صلاة السَّحَر Orthros .

10- Orientalia Christiana Periodeca, 42, 1976, p. 117 - 155, 402 – 425.

وفي كنائس الأديرة تغطي هذه الخدمة كل اللّيل مع ترتيل الأبصلموديَّة (المزامير)، أما في كنائس المدن أي كنائس الإيبارشيَّات فإما أن يُقسَّم هذا السَّهر إلى صلاة الغروب في مساء السَّبت والباقي منه يكون قبل قدَّاس الأحد صباحاً، أو يُحتفل به بدءاً من مساء السَّبت ولكن بدون ترتيل الأبصلموديَّة الدَّيري الطَّويل . ويستغرق هذا السَّهر الكاتدرائي المختصر حوالي ساعة ونصف. وهو خدمة مبدعة ذات بهاء وعمق روحانيين. بدءاً من فتح أبواب الهيكل في المساء حيث يبدأ الطقس بغمر من النُّور والبخور، فتتألق الكنيسة بنور لامع قبل أن يحل ظلام اللّيل على الأرض، فيعلن المحتفل بلحن ديني وقور "المجد للثالوث القدُّوس المساوي المحيي، غير المنقسم، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين".

ولأن ليلة الأحد من كل أسبوع هي ليلة تذكار قيامة الرَّب من بين الأموات، لذلك فإن افتتاحيَّة السَّهر اللّيلي فيها تكون المزمور ١١٧ (في السبعينيَّة) ملخِّصاً لموضوع النُّور، ومرَّكزاً معناه في شخص السيِّد المسيح: «الله الرَّب أضاء علينا. مبارك الآتي باسم الرَّب. اشكروا الرَّب فإنه صالح وأن إلى الأبد رحمته».

لقد حُذفت خدمة ترتيل المزامير الدَّيريَّة في السَّهر اللّيلي من كنائس الإيبارشيَّات، حيث نعبر مباشرة إلى الثلاثة مزامير الخاصة بالخدمة الثالثة Third Nocturn والتي تبدلت في مساء السَّبت إلى ترتيل لمزامير سهر القيامة الذي ذكرته إيجيريا (٢٤:٩ - ١١) والمراسيم الرسوليَّة (٥٩:٢ ، ٢ - ٤). أما عناصر هذه الخدمة فهي:

- ثلاثة مزامير تذكاراً للثلاثة أيام في القبر.
- رفع البخور تذكاراً للطيب العطر الذي أحضرته النِّسوة لتكفين جسد الرَّب، مفتتحين بذلك تباشير السَّهر أمام القبر، وهو ما أصبح

نموذجاً لسهر القيامة اللَّيلي في معظم الطقوس الشَّرقيَّة حاوياً ما صار يُعرف اصطلاحاً باسم "سهر القيامة". أما فصل الإنجيل المقدَّس في هذا السَّهر فهو بشارة القيامة تذكاراً للملاك الذي وقف على الحجر الذي دُحرج عن باب القبر ليعلن «قد قام».

وفي التَّقليد البيزنطي الحالي يُفتتح السَّهر اللَّيلي بترتيل لآيات مختارة من المزامير (١٣٤، ١٣٥، ١١٨) متبوعاً بمردات refrains عن النِّسوة حاملات الطيب، اللائي ذهبن إلى القبر لتكفين جسد الرَّب فأصبحن أوَّل شاهدات بقيامته.

وبمجرد أن يرتِّل الخوروس "سبِّحوا اسم الرَّب" من المزمور (١٣٤)، تُفتح أبواب الهيكل، وتوقد جميع المصابيح والشُّموع في الكنيسة، ويعبر رئيس الاحتفال اللِّيتورجي أرجاء الكنيسة كلها حاملاً في يده مبخرة ويتقدَّمه شماس حاملاً شمعة.

وبعد ترتيل مردات حاملات الطيب يبدأ التَّرتيل المقدَّس لإنجيل القيامة، حيث يُحمل بعده الإنجيل المقدَّس في مهابة إلى حيث منتصف الكنيسة، فيوضع على عرش هناك بينما يرتِّل الخوروس لحن القيامة: "إذ قد رأينا قيامة المسيح، فلنسجد للرَّب القدُّوس يسوع المسيح الذي بلا خطيَّة وحده ..."[١١].

وبعد الطلبات Intercessions يُرتَّل واحد من الثَّمانية قوانين التي للقيامة، بينما يتقدَّم المؤمنون لتكريم الإنجيل المقدَّس حيث يُدهنون بالزَّيت، ويتقبَّلون جزءاً من الخبز المقدَّس رمزاً لما يحتاجونه من صبر

١١- وهو نفسه لحن ⲧⲉⲛⲛⲁϥ (تين ناف) الذي يُقال في بدء تسبحة نصف اللَّيل في الطقس القبطي، وقبل الهوس الأوَّل مباشرة في ليلة الأحد من كل أسبوع.

ومثابرة في سهرهم الحقيقي، سهر الحياة كلها.

عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطقس الإثيوبي

وهي تُسمى "ماواديس – Mawaddes "، وهي تُصلى عند صياح الدِّيك الأوَّل (الثالثة صباحاً)، وذلك بعد فترة راحة تعقب صلاة الغروب. أما صلاة السَّحَر والتي تُسمى في الحبشيَّة "صبحاتا ناف – Sebhata nagh " فتعقب صلاة نصف اللَّيل. ويلي ذلك مباشرة الاحتفال بالإفخارستيَّا دون فاصل زمني بين صلوات نصف اللَّيل والسَّحَر والقدَّاس، كالطقس القبطي تماماً وهو أبو الطقس الإثيوبي.

وتسبحة نصف اللَّيل الإثيوبية الكاتدرائيَّة تتكوَّن من مجموعة من المزامير، بالإضافة إلى صلوات وعناصر أخرى مختلطة من عناصر كاتدرائيَّة وغيرها ديريَّة. ونورد فيما يلي بنية هذه الخدمة في الأيام العاديَّة غير أيام التَّوبة. وما بين القوسين ( ) هو اسم العنصر الليتورجي في اللغة الكنسيَّة الإثيوبيَّة:

- صلاة افتتاحيَّة ثابتة.
- الثلاثة تقديسات Trisagion (قدُّوس Qeddus).
- صلاة اللَّيل (كيدان Kidan).
- مزمور ذو مرد (ميسباك Mesbāk).
- طلبة توسلية Supplication .
- مزمور ذو مرد.
- طلبة (ليطون Liton).
- صلاة من أجل المرضى.
- المزامير ٦٢، ٦٣، ٦٥ .
- صلاة من أجل المسافرين.

- المزامير ٣٩ - ٤١ مع أنتيفونا (أرباعيت Arbã't).
- صلاة من أجل المطر.
- المزامير ٤٢ - ٤٤
- صلاة من أجل نباتات الحقل.
- مزامير ٤٦، ٤٧
- صلاة من أجل مياه النهر.
- المزامير ٤٨، ٤٩ مع أنتيفونا (بحاميستو bahamestu).
- المزمور ٥٠ مع أنتيفونا (أرباعيت Arbã't).
- صلاة من أجل الملك وأخرى من أجل الحكام.
- مزامير ١١٧، ٩١ ثم أنتيفونا (بحاميستو bahamestu).
- مزمور ٩٢
- صلاة من أجل السلام.

هذه هي بنية صلاة نصف اللّيل الإثيوبية الكاتدرائيَّة[١٢]. ويحتوي هذا الطقس أيضاً ممارسة ديريَّة خالصة لتسبحة نصف اللّيل ظلّت منفصلة عن نظيرتها الكاتدرائيَّة، ولم تندمج فيها في خدمة واحدة.

عناصر تسبحة نصف اللّيل والسَّحَر في الطقس القبطي

- صلوات افتتاحيَّة ثابتة.
- أرباع من آيات مختصرة من المزامير ⲧⲉⲛⲑⲏⲛⲟⲩ (تين ثينو).
- مديح القيامة في الآحاد والخمسين المقدَّسة ⲧⲉⲛⲛⲁϥ (تين ناف).
- الهوس الأوَّل: تسبحة موسى وبني إسرائيل (خروج ١٥:١ - ٢١).
- الهوس الثّاني: (مزمور ١٣٥).
- الهوس الثّالث: (دانيال ٣:٥٢ - ٨٨).

١٢- أما عن صلاة الغروب وصلاة السَّحَر الكاتدرائيتين فتردان في كتاب "صلاة رفع بخور عشية وباكر".

- إبصاليَّة الثلاثة فتية القديسين ⲁⲣⲓⲁⲍⲁⲣ (أريبصالين).
- قطعة يونانية تُقال باللحن للثلاثة فتية في شهر كيهك ⲧⲉⲛⲉⲛ (تينين).
- مديح للثَّلاثة فتية في أتون النار ⲧⲉⲛⲟⲩⲉⲥⲛⲁⲩ (تين أوويه إنسوك).
- المجمع
- الهوس الرَّابع (مزامير ١٤٨ - ١٥٠).
- إبصاليَّة اليوم أو العيد.
- ثيؤطوكيَّة اليوم واللبش.
- الدِّفنار مع مقدمته.
- ختام الثيؤطوكيَّات.
- قانون الإيمان ومقدِّمته.
- طلبة ختاميَّة
- قدُّوسٌ Sanctus .
- أبانا الذي
- صلوات ختاميَّة مع التَّحليل.

وهذه العناصر السَّابقة في الطقس القبطي يأتي الحديث تفصيلاً عنها في البَاب التَّالي من الكتاب.

البَاب الثَّاني

الطَّقس القبطي لتسبحة نصف اللَّيل

الفَصل الأوَّل

حول أنواع التَّسبيح وطرائقه

أولاً: أنواع التَّسبيح

تنقسم التَّسبحة في الكنيسة القبطيَّة إلى الأنواع التالية:

التَّسبحة السَّنوية: وهي تُدعى أيضاً "التَّسبحة اليوميَّة" وهي التي تُرتَّل على مدار الأيام العادية من السنة الليتورجيـــة. ويحويهـــا كتـــاب الأبصلموديَّة السَّنوية المقدَّسة. وأوَّل كتاب مطبوع له كان في القـــاهرة سنة ١٩٠٨م بواسطة أقلاديوس بك لبيب، وآخر في الإسكندريَّة في نفس هذه السَّنة المذكورة بواسطة القُمُّص مينا البراموسي[1].

وتبتدئ التَّسبحة السَّنوية في الأيام العاديَّة في السَّاعة الثَّالثة أو الرَّابعة بعد منتصف اللَّيل وتنتهي بتسبحة السَّحَر قرب ظهور النُّور.

التَّسبحة الكيهكيَّة: وهي التَّسبحة السَّنوية مضافاً إليهـــا الهـــوس الكبير، وإبصاليَّات وطروحات[2] تناسب الشَّهر المريمي. ثم لحقها كـــمٌ

١ـ طُبع كتاب الأبصلموديَّة السَّنوية أوَّل مرة في روما بواسطة روفائيل الطـــوخي سنة ١٧٤٤م تحت اسم "كتاب الإبصاليَّات والهوسات"، أما في مصر فقـــد طبعـــه أقلاديوس بك لبيب للمرة الأولى في القاهرة تحت نفس الاسم السابق ذكـــره ســـنة ١٨٩٧م. وأقدم أبصلموديَّة سنويَّة في مكتبة دير القديس أنبا مقار فهي مخطوط رقـــم (١٠٣ طقس) ويعود تاريخه إلى سنة ١٧٧٤م.

٢ـ جدير بالذكر أن طروحات المناسبات المختلفة أقدم في تأليفها من كثير مـــن إبصاليات المناسبات، ومعاني هذه الطروحات أعمق في معانيها من بعض إبصـــاليات المناسبات، وكانت هذه الطروحات تُرتل باللحن بكاملها، مع مقدمة بديعة تســـبقها سواء باللحن الواطس أو اللحن الآدام. وبعد انهيار اللغة القبطيَّة كلغة تخاطب ومحادثة

ضخمٌ من المدائح العربيَّة، ودخل أوَّل مديحٍ عربي إلى التَّسبحة الكيهكيَّة في القرن السَّابع عشر، ولم يكن يتعدى في البداية عشرة أبيات[٣].

وهي التَّسبحة التي تُرتَّل في الكنيسة على مدى آحاد وأيام شهر كيهك. ويحويها كتاب الأبصلموديَّة الكيهكيَّة المقدَّسة، والذي عنى بطبعه لأوَّل مرَّة أقلاديوس بك لبيب في القاهرة سنة ١٩١١م[٤]، وذلك نقلاً عن مجموعة مرجان، المجلد الثَّالث عشر وعنوانه: "كتاب التَّفاسير المقدَّسة"، والمجلد الرَّابع عشر وعنوانه: "كتاب الدِّفنار المقدَّس للشُّهداء وأعياد القدِّيسين كما وضعه معلِّمو الكنيسة".

وهي تسبحة عشيَّة السَّبت، ثم تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر التي تبتدئ بعد فترة راحة قصيرة من انتهاء صلوات رفع بخور عشيَّة يوم السَّبت، حيث تمتد لتشمل اللَّيل كله. ويعقبها مباشرة صلوات رفع بخور باكر مع قرب إشراقة شمس اليوم الجديد، ويليها القدَّاس الإلهي مباشرة.

تسبحة الصوم المقدَّس الكبير: وهي التَّسبحة اليوميَّة مضافاً إليها الهوس الكبير، ومجموعة إبصاليَّات وطروحات على الهوسات والمجمع. وهي موجودة في "كتاب دورة عيدي الصَّليب والشعانين وطروحات الصَّوم الكبير والخمسين حسب ترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة"[٥].

اقتُصر في ترتيلها على الربع الأوَّل من الطرح بعد المقدمة، ثم يُقرأ باقي الطرح دبحاً أي قراءة عادية، ثم أُهملت هذه الطروحات في بعض الكنائس.

٣ـ لشرح أكثر استفاضة، انظر كتاب "التَّسبحة الكيهكيَّة".

٤ـ طبع روفائيل الطوخي الشكل الأوَّلي لكتاب الأبصلموديَّة الكيهكيَّة لأوَّل مرَّة في روما سنة ١٧٦٤م تحت اسم "التاودوكيات (الثيؤتوكيات) كترتيب شهر كيهك". أما أقدم أبصلموديَّة كيهكية في مكتبة دير القديس أنبا مقار فهو مخطوط يعود إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر تحت رقم (٩٧ طقس).

٥ـ طبع على نفقة القمُّص عطاالله أرسانيوس المحرقي. طبع بأمر صاحب النيافة الأنبا

تسبحة برموني وعيدي الميلاد والغطاس: وهي التَّسبحة اليوميَّة مضافاً إليها الهوس الكبير ومجموعة إبصاليَّات وطروحات على الهوسات والمجمع، ويحويها "كتاب الطروحات والإبصاليَّات الواطس والآدام التي تُتلى في برموني وعيدي الميلاد والغطاس المجيدين حسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة"(٦).

تسبحة عيد القيامة والخمسين المقدَّسة: وهي التَّسبحة اليوميَّة مضافاً إليها الهوس الكبير، ومجموعة إبصاليَّات وطروحات آدام على الهوسات وإبصاليَّة وطرح واطس على المجمع. ويحويها "كتاب دلاَّل وترتيب جمعة الآلام وعيد الفصح المجيد حسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة"(٧).

تسبحة الأعياد السَّيديَّة الأخرى: وهي التَّسبحة السَّنوية مضافاً إليها إبصاليَّة - سواء واطس أو آدام - تختص بمناسبة العيد، وكثير من هذه الإبصاليَّات قد أُلحق مؤخراً بكتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنوية.

أثناسيوس مطران بني سويف القائمقام البطريركي. سنة ١٩٥٨م/ ١٦٧٥ للشهداء.

٦- طبع بأمر نيافة الأب الجليل الأنبا يؤانس مطران الإسكندريَّة والبحيرة والمنوفية ووكيل الكرازة المرقسيَّة الجزيل الاحترام. وفي عهد صاحب الغبطة الجالس على السدة الرسوليَّة بابا وبطريرك الكرازة المرقسيَّة الكلي الطوبي والاحترام الأنبا كيرلس الخامس الثاني عشر بعد المائة من خلفاء القدِّيس مرقس الرسول.

عني بتصحيحه وتنقيحه وضبطه وطبعه القُمُّص باخوم البرموسي وكيل بطريركخانة إسكندرية والشماس عريان فرج مدرس اللغة القبطيَّة بالمدارس المرقسيَّة بالإسكندرية: سنة ١٦٣٧للشهداء/ ١٩٢٠ميلادية.

مطبعة الشمس بشارع كلوت بك بأوَّل الدرب الواسع نمرة ٤٠ بمصر.

٧- طُبع بأمر غبطة السيِّد البابا المعظم الأنبا كيرلس الخامس ١١٢ في غدد باباوات الكرسي المرقسي الإسكندري.

عني بتصحيحه وتنقيحه وضبطه وطبعه القُمُّص فيلوثاؤس المقاري، والقمص برنابا البرموسي، والمعلم ميخائيل جرجس مرتل الكنيسة المرقسيَّة الكبرى. سنة ١٦٣٧للشهداء/ ١٩٢٠ميلادية.

تسبحة صومي العذراء والرُّسل: وهي نفس التَّسبحة اليوميَّة مضافاً إليها إبصاليَّة – سواء واطس أو آدام – تختص بكل صوم منهما، وهي مدوَّنة في كتاب الأبصلموديَّة السَّنوية.

تسبحة لعيد أي قدِّيس: وهي تسبحة سنويَّة يُضاف إليها الإبصاليَّة المختصَّة بعيد القدِّيس، وهي مأخوذة من "كتاب الإبصاليَّات والطُّروحات الواطس والآدام المستعمل تلاوتها في جميع كنائس الكرازة المرقسيَّة"[٨].

هذه هي أنواع التَّسبحة في الكنيسة القبطيَّة على مدار السَّنة الطَّقسيَّة. وكل نوع منها يشتمل على: تسبحة عشيَّة، وتسبحة نصف اللَّيل، وتسبحة السَّحَر.

ثانياً: طرائق التَّسبيح

من المعروف أن كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة (سواء السَّنوية أو الكيهكيَّة)، وكذلك كتب الإبصاليَّات والطُّروحات للمناسبات الكنسيَّة المختلفة، تتكوَّن كلها من أرباع قبطيَّة، وعلى هذه الأرباع تنبني طرائق التَّسبيح الثلاث:

الطَّريقة الأولى: وهي أقدم طرائق التَّسبيح وتكون باشتراك الشَّعب كله. وفي ذلك يقول سفر أعمال الرسل «رفعوا بنفس واحدة صوتاً إلى

٨– اهتم بطبعه بعد ضبط ألفاظه بمقابلتها على عدة نسخ قديمة بخط اليد: القُمُّص فيلوثاؤس المقاري سكرتير غبطة الأب البطريرك، والمعلم ميخائيل جرجس مرتل الكنيسة المرقسيَّة بمصر. في عهد وبإذن غبطة البابا الأقدس الأنبا كيرلس الخامس بابا الكرازة المرقسيَّة الكلي الطوبى والجزيل الاحترام. الطبعة الأولى سنة ١٦٣٠ش/ ١٩١٣م. مطبعة القدِّيس مكاريوس بمصر القديمة. (وهو للسنة شهور الأولى فقط من السنة).

الله» (أعمال ٤:٢٤). ويقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م):

[في القديم كان الجميع يرتِّلون معاً ونحن كذلك] .

ويقول أيضاً موضحاً استمرار هذه الطَّريقة في التَّسبيح حتى زمانه:

[النِّساء والرِّجال والشيوخ والشَّباب المختلفون سناً وجنساً لا يختلفون في التَّرتيل، لأنهم جميعاً يمثِّلون ترنيمة شذيَّة (عذبة) واحدة].

ويذكر القدِّيس يوستينوس الشهيد (١٠٠ - ١٦٥م) في دفاعه الأوَّل (٦٧:٦):

[... بعد ذلك نقف جميعاً، ونرفع الصَّلوات. ومتى ختمنا صلاتنا ... يُقدَّم خبز وخمر وماء ...].

وهذه الطَّريقة الأولى تصلح لكل عناصر التَّسبحة وبالأولى الهوسان الأوَّل والرَّابع وطلبة ختام الصَّلوات.

الطَّريقة الثَّانية: وقد ظهرت في الكنيسة في أواخر القرن الأوَّل وأوائل الثَّاني الميلادي، وهي طريقة الأنتيفونا Anthem .

والكلمة "أنتيفونا" بحسب منطوقها في اليونانيَّة τὸ ἀντίφωνον (أنتيفونون) تتكوَّن من مقطعين: الأوَّل ἀντί (أنتي) أي "ضد" أو "مقابل". والثَّاني φώνον (فونون) أي "صوت". فالكلمة تعني إذاً "صوت مقابل صوت"، وهي تفيد في المصطلح اللِّيتورجي "ترتيل متبادَل بين خورسين". وهناك أنتيفونا المزامير، وأنتيفونا الأعياد السيديَّة، وأنتيفونا المصاعد (أناثيمي).

ويعود التَّرتيل الأنتيفوني بين خورسين إلى أواخر القرن الأوَّل وأوائل

الثَّاني للميلاد. وكان قد ظهر أولاً في كنيسة أنطاكية حين أدخله القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥- ١٠٧م) المتوشِّح بالله، فأصبح التَّرتيل الطَّقسي لدى السِّريان الغربيين والشَّرقيين يتم بين جوقتين. ومن ثمَّ امتد هذا الأسلوب إلى سائر الكنائس الشَّرقيَّة، ثم عرفه الغرب بواسطة القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) أسقف ميلان في القرن الرَّابع.

أي أن عادة تلاوة المزامير ملحَّنة بين جوقتين هي تقليد شَّرقي قديم يشهد له بليني الصَّغير، ويروي كل من المؤرِّخين سقراط وسوزومين وغيرهما بالاستناد إلى التَّقليد أن الترنُّم بالمناوبة كان مصدره كنيسة أنطاكية، ومنها انتشر إلى سائر الكنائس[٩].

ومادة الأنتيفونا إما آيات كتابيَّة، أو مزمور ذو مرد أو قرار refrain أو أرباع منظومة على الحروف الهجائيَّة القبطيَّة، وذو مرد أيضاً مثل الإبصاليَّات القبطيَّة.

وتُستخدم الأنتيفونا في الكنيسة الشَّرقيَّة في السَّهَر اللَّيلي وتسبحة الغروب على وجه الخصوص. وتستخدمها أيضاً الكنيسة اليونانيَّة في ثلاثة تراتيل Anthems تُقال في بداية الإفخارستيَّا. ويتغيَّر نغم الأنتيفونا مع تغير المناسبات والأعياد الكنسيَّة[١٠].

وهذه الطَّريقة تُعرف في الكنيسة القبطيَّة باسم "المرابعة" أي ترتيل "ربع[١١]" من الأرباع القبطيَّة مقابل "ربع" آخر بين جوقتين. ويوافقها من بين عناصر التَّسبحة، المجمع والذُّكصولوجيَّات والثيؤطوكيَّات.

9- *BSAC.*, t. 14, p. 26, 27.

10- *ODCC.*, (2nd edition), p. 66.

١١- "الربع" في القبطية أربعة إستيخونات أي أربعة أبيات شعريَّة.

وتكون المرابعة في الكنيسة القبطيَّة بين الخوروس البحري الذي يقف عن يمين باب الهيكل الرَّئيسي أي ناحية أيقونة السيِّدة العذراء على باب الهيكل. والخوروس القبلي الذي يتواجد عن شمال باب الهيكل الرَّئيسي أي عند أيقونة السيِّد المسيح له المجد. وتكون البداية دائماً في التَّسبيح للخوروس البحري، ويجاوب عليه الخوروس القبلي. أما في الكنيسة اليونانيَّة فالخوروس القبلي هو الذي يبدأ التَّسبيح ويجيب عليه الخوروس البحري.

الطَّريقة الثَّالثة: وهي أحد أوجه التَّرتيل الأنتيفونِي، وظهرت في القرن الرَّابع الميلادي. وهي أداء منفرد لشخص واحد soloist يجاوبه إما خوروس يرد عليه أو الشَّعب كله.

وغالباً يكون المرد الذي تردده الجماعة مرداً ذا كلمات ثابتة لا تتغيَّر. والمثال الواضح لذلك في الطقس القبطي هو الهوس الثاني والذي مرده "لأن إلى الأبد رحمته"، والهوس الثَّالث وله مردان: المرد الأوَّل ويحتل السِّتة أرباع الأولى من الهوس: "متزايد بركة ومتزايد علواً إلى الأبد"، بينما يحتل المرد الثاني بقية الهوس وهو: "سبحوه وزيدوه علواً إلى الآباد". وكذلك بعض الإبصاليَّات مثل إبصاليَّة السَّبت بمردها: "ياربي يسوع المسيح مخلِّصي الصَّالح".

ومع ذلك يمكن تسبيح أي عناصر من التَّسبحة بأي طريقة من الطرائق السَّابق ذكرها. ولكن هذه الطريقة الثَّالثة على وجه الخصوص لا يصلح غيرها من الطَّرائق في ترديد الهوس الكبير والذي يُقال في شهر كيهك والصوَّم المقدَّس الكبير والأعياد السَّيديَّة الكبرى، حيث يكون المرد كلمة واحدة هي: "هلليلويا".

ولازالت هذه الطُّرق الثَّلاث في التَّسبيح - السَّابق ذكرها - مستعملة في الكنيسة حتى الآن.

الفَصل الثَّاني

مقدِّمة تسبحة نصف اللَّيل القبطيَّة
ومزامير صلاة نصف اللَّيل

في كنائس الأديرة، وفي حوالي السَّاعة الثَّالثة أو الرَّابعة من بعد منتصف اللَّيل، تدق أجراس الكنيسة لتعلن بدء تسبحة نصف اللَّيل. وهي تسبحة يوميَّة سواء أعقبها القدَّاس الإلهي أو كانت هي خدمة ليتورجيَّة قائمة بذاتها. وفي تسبحة أيام الآحاد والتي يعقبها إقامة القدَّاس الإلهي الأسبوعي كتَّقليد الحياة الدَّيريَّة منذ القديم، تبدأ تسبحة نصف اللَّيل في حوالي السَّاعة الثَّانية بعد منتصف اللَّيل. أما في كنائس المدن فتُصلى تسبحة نصف اللَّيل قبل بدء القدَّاس الإلهي بحوالي السَّاعة أو السَّاعتين.

مقدِّمة الصَّلاة

تورد كتب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة المطبوعة مقدِّمة تسبحة نصف اللَّيل تحت أربعة بنود أساسيَّة هي:

(١) البسملّة: "باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس إله واحد، يارب ارحم، يارب بارك[١]، آمين".

(٢) ثم ترديد "الذُكصا" "المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس ...".

(٣) ثم صلاة الشُّكر.

(٤) ثم المزمور الخمسون.

١- هذا هو نص البسملة القبطي التقليدي كما يرد في كتب الطقس المدققة: وعلى سبيل المثال انظر كتاب الأبصلمودية المقدسة السنوية، التي عني بطبعها القس مينا البراموسي بالإسكندرية سنة ١٩٠٨، بأمر نيافة السيد الجليل أنبا يوأنس مطران البحيرة والمنوفية ووكيل الكرازة المرقسية بالإسكندرية، وفي عهد غبطة الأنبا كيرلس الخامس المائة والثاني عشر.

ولكن التَّقليد الشِّفاهي المتوارث من جيل إلى جيل ومن كـــاهن إلى كاهن لازال يحتفظ لنا بمقدِّمة الصَّلوات في عناصر أخري إلى جانب هذه البنود السَّابق ذكرها. بل وما يؤكِّد أصالة هذا التَّقليد الشِّفاهي المتوارث أنه مدوَّن في بعض مخطوطاتنا الطَّقسيَّة القديمة:

فبحسب التَّقليد القبطي، تبتدئ أي صلاة بقول الكاهن بالقبطيَّـــة: ⲓ̀ⲡⲟ̅ⲥ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ (إبشويس ناي نان) أي "يارب ارحمنا[٢]"، ثم يعقبـــها قوله أيضاً: "هلليلويا[٣]". وهنا فقط يمكن أن يبـــدأ الكـــاهن برشـــم الصَّليب مردداً البسملة.

وهذه هي المقدِّمة التَّقليديَّة في كل صلوات الكنيسة القبطيَّة الحاليَّة، وتتَّفق الكنيسة اليونانيَّة مع الكنيسة القبطيَّة في عنصـــرين منـــها هما: البسملة – باستثناء عبارة "إله واحد، يارب ارحم، يارب بارك" فهـــي تختص بالتَّقليد القبطي الخالص – والذِّكصا. أما صلاة الشُّكر فهي صلاة قبطيَّة لا تشاركها كنيسة أخرى فيها، وهي صلاة موغلة في القدَم[٤]. في حين يأتي المزمور الخمسين في الكنيسة البيزنطيَّة ضمن بعض الصَّـــلوات الليتورجيَّة فيها ولكن ليس في مقدِّمة الصَّلوات ختماً كمـــا في تقليـــد

٢– ويذكر ابن كبر أنها تقال ثلاث مرات.
انظر: كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كـــبر، الجـــزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

٣– كلمة "هلليلويا" تسبق البسملة ووجدناها مدوَّنة فعلاً (ثلاث مـــرات قبـــل البسملة) في بدء صلاة نصف الليل في كتاب الأبصلمودية المقدسة الكيهكيـــة الـــتي طُبعت بمعرفة أقلاديوس بك لبيب سنة ١٩١١م (ص ١٩٧) بأمر قداسة البابا كيرلس الخامس، وتصححت على نسخته ونسخة المتنيح الأنبا بطرس البطريرك المائة والتاسع، وعلى ست نسخ موجودة بدير السريان، وعلى إرشادات نيافة الأنبا إيساك مطران بـــني سويف. وذكرها أيضاً ابن كبر في كتابه مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

٤– لتفصيل أوفر عن هذه الصلاة، انظر كتاب: "الأجبية أي صلوات السواعي".

الكنيسة القبطيَّة.

ويذكر العالم الطَّقسي القس شمس الرِّئاسة أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، وتحت عنوان "ترتيب صلاة نصف اللَّيل" العناصر الليتورجيَّة لمقدِّمة الصَّلاة فيقول[٥]:

"... نبتدئ بذُكصا وأبانا والشِّبهمات (أي صلاة الشُّكر)، وأجيوس (أي قدوسٌ الله، قدوسٌ القوي، قدوسٌ الحي الذي لا يموت ...). وبعد ذلك تُقال ⲧⲱⲟⲩⲛⲟⲩ ⲉⲡⲭⲱⲓ (توأونو إي إبشوي)[٦]، وما يتلوها من قطع المزامير، ومزمور (٥٠)، ومزمور (٣)، ومزمور (٩٠)، ومزمور (١١٨)، وكيرياليسون ثلاث مرَّات، والطِّلبات المختصَّة بالخدمة الأولى وهي ها هوذا الختن يأتي إلى آخرها ...".

وما يذكره ابن كبر عن مقدِّمة تسبحة نصف اللَّيل القبطيَّة، مقارنة بما نعرفه اليوم من أربعة عناصر ليتورجيَّة فقط وهي السَّابق بيانها، يضعنا أمام الملاحظات البسيطة التالية:

(١) أن تبدأ الصَّلاة بالذُّكصا وأبانا مباشرة دون ذكر للبَّسملة، ربما كان هو الطَّقس الأقدم، وهو ما تؤكِّده عناصر تسبحة نصف اللَّيل في طقس الكنيسة الأرمينيَّة الشَّقيقة[٧].

(٢) إن ذكر "أجيوس" أي "قدوسٌ" (وهي الثلاثة تقديسات) "قدوسٌ الله، قدوسٌ القوي، قدوسٌ الحي ...". في مقدِّمة تسبحة

٥- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

٦- وهي نفس اللحن الآتي ذكره ولكن بنطق اللهجة القبطيَّة البحيري القديمة.

٧- انظر: الفصل الثالث من الباب الأوَّل من هذا الكتاب، وتحت عنوان: عناصر تسبحة نصف اللَّيل في الطقس الأرمني.

نصف اللّيل طقس سحيق في القدم تشهد له كتبنا الطقسيَّة القبطيَّة كما في طقس صلاة السَّجدة، وطقس صلوات اللّقان. بالإضافة إلى أن عناصر تسبحة نصف اللّيل في الكنيسة الإثيوبيَّة لازالت تحفظ هذا التَّقليد[٨]. وهو ما يذكره أيضاً كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة الكيهكيَّة الذي طُبع سنة ١٩١١م، في مقدِّمة تسبحة نصف اللّيل. وعلى ذلك فهو عنصر ليتورجي سقط من كتاب الأبصلموديَّة السَّنويَّة المطبوع.

(٣) يذكر ابن كبر أن المديح الآدام ⲧⲉⲛ ⲟⲩⲏⲩ ⲉⲡⲱⲟⲩ (تين ثينو إي إبشوي) يأتي بعد صلاة الشُّكر مباشرة، وهذا هو نفس ما وجدناه في الأبصلموديَّات الكيهكيَّة أو السنويَّة المخطوطة في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، وهو نفس ما يذكره أيضاً كتاب الأبصلموديَّة الكيهكيَّة المطبوع سنة ١٩١١م، (ص ١٩٧، ٢٠٤)، والذي روجع بدوره على أربعة مخطوطات بمكتبة دير السيِّدة العذراء السُّريان.

ولكن هذا المديح الآدام ⲧⲉⲛ ⲟⲩⲏⲩ ⲉⲡⲱⲟⲩ قد رُحِّل حالياً إلى مكان متأخر كثيراً عن مكانه التَّقليدي القديم، إذ يُقال مرَّة باللُّغة العربيَّة (سراً) بعد المزمور الخمسين وليس قبله بحسب التَّقليد القديم، ومرَّة أخرى بالقبطيَّة بعد انتهاء مزامير صلاة نصف اللّيل بخدماتها الثلاث.

أي نخلص إلى القول أن الطَّقس القديم كان يرتِّل المديح الآدام ⲧⲉⲛ ⲟⲩⲏⲩ ⲉⲡⲱⲟⲩ بلحنه قبل المزمور الخمسين، ثم أصبح يُرتَّل بعد المزمور الخمسين، ثم رُحِّل أخيراً إلى ما بعد انتهاء صلاة نصف اللّيل بخدماتها الثلاث ليُقال بلحنه بالقبطيَّة، واكتُفي بترديده سراً باللُّغة العربيَّة بعد المزمور الخمسين، فصار بذلك يُرتَّل مرَّتين.

٨- انظر: الفصل الثالث من الباب الأوَّل من هذا الكتاب، وتحت عنوان: عناصر تسبحة نصف اللّيل في الطقس الإثيوبي.

(٤) يذكر ابن كبر المزمور الخمسين كأحد عناصر مقدِّمة التَّسبحة، وهو طقس قبطي موغل في القدم، تشهد له مقالة "في البتوليَّة" للبابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) حين تشير إلى أن المزمور الخمسين يُقال في بدء صلاة نصف اللَّيل. ولذلك فإن الكنيسة القبطيَّة حين تنفرد بترديد المزمور الخمسين في بداية صلواتها، فهي تشير بذلك إلى تقليد مختص بها يعود إلى القرن الرَّابع الميلادي أو ربما قبله أيضاً، فهو يُذكر حتى اليوم في كتبنا الطقسيَّة القديمة، وتُستهل به كافة الصَّلوات والخدمات الكنسيَّة بعد صلاة الشُّكر. ولم يتزحزح هذا التَّقليد عن موضعه برغم تفاعل طقوس الكنيسة القبطيَّة مع غيرها من طقوس الكنائس الأخرى ولاسيَّما في هذه الفترة المبكِّرة من تاريخ الكنيسة.

ولقد تحيَّر بعض علماء الليتورجيَّا في كون البابا أثناسيوس يجعل من المزمور الخمسين بداية لصلاة نصف اللَّيل، فيقول الأب ماتيوس J. Mateos : "وفي الواقع، فإنه من التناقض أن تبدأ هذه الخدمة بالمزمور الخمسين ..."[٩]. وفي الحقيقة لستُ أحدُ في ترتيل هذا المزمور الخمسين - كمزمور للتَّوبة والتذلُّل - في بدء تسبحة نصف اللَّيل أي تناقض قط، فهو يقال مثلاً في رفع بخور باكر عيد القيامة المجيد، أعظم أعياد الكنيسة فرحاً وسروراً. فإن تقديم النَّفس للتَّوبة أمام الله وطلب غفرانه في كل حين هو فرح الخلاص الذي لا يدانيه فرح آخر. والمديح الآدام الذي نحن بصدد الحديث عنه بعد قليل يجعل من خلاص النَّفس وغفران الخطايا محوراً جوهرياً في بدء التَّسبيح والصَّلاة. كما أن تقليد الكنيسة اليونانيَّة يوافق هذا الأمر عينه حين تبدأ صلاة نصف اللَّيل عندهم بعبارة: "..."

9- Mateos, S.J., *Office de Minuit et Office du Matin chez St. Athanase*, dans OCP. 28, 1962, p. 173, 174.

أيها الرَّب يسوع المسيح إلهنا، ارحمنا وخلِّصنا آمين(١٠)".

الخلاصة

من كل ما سبق ذكره يتَّضح لنا أن عناصر مقدِّمة تسبحة نصف اللَّيل بحسب التَّقليد القديم هي:

(١) ⲡⲟ̅ⲥ ⲡⲟ̅ⲥ ⲛⲁⲓⲛⲁⲛ (إبشويس إبشويس ناي نان) هلليلويا.
(٢) البسملة.
(٣) الذُّكصا.
(٤) أبانا الذي في السَّموات ...
(٥) صلاة الشُّكر.
(٦) الثلاثة تقديسات.
(٧) المديح الآدام "قوموا يا بني النُّور ...".
(٨) المزمور الخمسون.

حول المديح الآدام "قوموا يا بني النُّور ..."

يبدأ المديح الآدام بلحن ⲧⲉⲛ ⲑⲏⲛⲟⲩ ⲉ̀ⲡϣⲱⲟⲩ (تين ثينو إي إبشوي) أي "قوموا ..."، وأما كلمات هذا اللَّحن الرَّائع فتنحصر في عبارة: "قوموا يا بني النُّور لنسبِّح ربَّ القوَّات".

واللَّحن ببدايته المتمهِّلة وموسيقاه الهادئة وإيقاعه المنساب يتناغم مع سكون اللَّيل الذي يبتهج بتسبيح بني النُّور. وبانتهاء اللَّحن تُكمَّل الأرباع التَّابعة له، وفي معظم هذه الأرباع القبطيَّة مرد يتكرَّر باليونانيَّة وهو: "المجد لك يا محب البشر". وتُختم الأرباع بإعطاء المجد للثالوث

١٠- كتاب السواعي الكبير، منشورات النور، ١٩٨٧م، ص ٤

القدُّوس، الآب والابن والرُّوح القُدُس، وكذلك للعذراء وجميع القدِّيسين.

وينبغي ألاّ يفوتنا أن النَّص اللّيتورجي للّحن يشير إلى مبادئ إيمانيَّة في غاية الأهميَّة، فتسبيح الرَّب يهدف في النهاية إلى حصولنا على خلاص نفوسنا، وتمجيده بيقظة وانتباه يمنحنا غفران خطايانا.

فنسبِّح هكذا قائلين:

– قوموا يا بني النُّور، لنسبِّح ربَّ القوَّات. لكي ينعم علينا بخلاص نفوسنا.
– عندما نقف أمامك جسدياً، انزع من عقولنا نوم الغفلة.
– أعطنا يارب يقظة لكي نفهم أن نقف أمامك وقت الصَّلاة.
– ونرسل لك إلى فوق التَّمجيد اللائق، ونفوز بغفران خطايانا الكثيرة.
– ها باركوا الرَّب يا عبيد الرَّب، القائمين في بيت الرَّب في ديار بيت إلهنا.
– في الليالي ارفعوا أيديكم إلى فوق، أيها القدِّيسون باركوا الرَّب.
– يباركك الرَّب الذي خلق السَّماء والأرض.
– فلتدن وسيلتي قدامك يارب كقولك فهمني.
– ليدخل ابتهالي أمامك، ككلمتك أحيني.
– تفيض شفتاي السُّبح إذا ما علمتني حقوقك.
– لساني يجيب بأقوالك، لأن جميع وصاياك هي حق.
– لتكن يدك لتخلصني، لأنني اشتهيت وصاياك.
– اشتقت إلى خلاصك يارب، وناموسك هو تلاوتي.
– تحيا نفسي وتسبِّحك، وأحكامك تعينني.
– ضللت مثل الخروف الضال، فاطلب عبدك، فإني لوصاياك لم أنس.
– المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس، الآن وكل أوان وإلى دهر الدَّاهرين آمين[١١].
– المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس، منذ الآن وإلى أبد الآبدين كلها آمين.
– المجد لك يا محب البشر الصَّالح. المجد لأمك العذراء وجميع قدِّيسيك.

١١– هذا الربع يُقال باليونانية.

- المجد لك أيها الابن الوحيد، أيها الثالوث القدُّوس ارحمنا[١٢].
- ليقم الله ولتتبدَّد جميع أعدائه، وليهرب من قدام وجهه كل مبغضي اسمه القدُّوس.
- أما شعبك فليكن بالبركة ألوف ألوف وربوات ربوات يصنعون إرادتك.
- يارب افتح شفتي، ولينطق فمي بتسبحتك.

مزامير صلاة نصف اللَّيل

بانتهاء اللَّحن مع أرباعه، يعقبه المزمور الخمسون، ثم تبدأ مزامير صلاة نصف اللَّيل بخدماتها الثلاث. وقد أوردنا شيئاً عن مزامير نصف اللَّيل في كتاب "الأجبية أي صلوات السَّواعي"، فارجع إليه إن شئت. أما هنا فنحمل المعنى الرُّوحي للثلاث خدمات.

تدور الخدمة الأولى مع إنجيلها حول موضوع العشر عذارى، وهو إنجيل انتظار النَّفس لعريسها السَّمائي، «في نصف اللَّيل صار صراخ هوذا العريس قد أقبل ...». وهو انتظار حقيقي حينما ننهض في نصف اللَّيل منتظرين بالفعل كل يوم مجيء الرَّب. وفي كل نصف ليل تخاطب العروس نفسها قائلة: "تفهمي يا نفسي ذلك اليوم الرَّهيب، واستيقظي وأضيئي مصباحك بزيت البهجة ..." زيت البهجة والتَّسبيح والصَّلاة.

وتدور الخدمة الثَّانية مع إنجيلها حول موضوع المرأة الخاطئة، كتعبير حي عن حالة النَّفس عند لقائها بالمسيح، عندما تنطرح عند قدميه تقبلهما بدموع التَّوبة والفرح معترفة بخطيئتها وإثمها، لأن قداسة حضور الرَّب تفضح كبرياءنا وعُرينا. فعند اللِّقاء سجود وتقبيل ودموع، فأعطني يارب ينابيع دموع كثيرة ... واجعلني مستحقاً أن أقبِّل قدميك اللَّتين

١٢- هذا الربع يُقال باليونانية.

أعتقتاني من طريق الضَّلالة، وأقدِّم لك طيب التَّسبيح والشُّكر.

وتدور الخدمة الثَّالثة بإنجيلها حول "القطيع الصَّغير" الذي صار له وعد الرَّب أن يهبه الملكوت. والشَّرط هنا أن يظل قطيعاً صغيراً لا في عدده بل في سيرة حياته. صغيرٌ لأن له أب يرعاه، وصغيرٌ لأنه إن كان المدعوون كثيرين فالمختارون قليلين. وصغيرٌ لأنه قطيع من حملان وديعة بين ذئاب شرسة. وصغيرٌ لأن الله اختار جهلاء العالم ليخزي بهم الحكماء، وأدنياء الأرض والمزدرى وغير الموجود ليبطل بهم الموجود.

فالخدمة الأولى هي سعي العروس للقاء العريس، والخدمة الثَّانية انسكاب العروس عند قدمي العريس، والخدمة الثَّالثة هي وعد العريس لعروسه بميراث ملكوته. هكذا تحيا الكنيسة كل يوم تترقَّب ذلك اليوم، ولن يبطئ الرَّب عن وعده بالمجئ سريعاً.

إذاً يكون من الطبيعي أن تُختتم الخدمة الثَّالثة بتسبحة سمعان الشَّيخ: «الآن يا سيِّد تطلق عبدك بسلام، لأن عينَّي قد أبصرتا خلاصك»، فهنا تعبِّر الكنيسة عمَّا صارت إليه من شوق بعد أن وعدها المسيح بميراث ملكوت السَّموات. جميلة هي الكنيسة، ومبدع هو طقسها، وطوبى لمن يتحصَّن بحصنها، فلن يهلك إلى الأبد، بل تكون له الحياة.

وتُختتم صلاة نصف اللَّيل بخدماتها الثلاث بـ"كيرياليسون" ٤١ مرة، ثم "قدوسٌ، قدوسٌ، قدوسٌ ..."، والصَّلاة الرَّبيَّة والبَركة الختاميَّة المعتادة في ختام الصَّلوات[١٣].

١٣- انظر: كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦.
أما تحليل صلاة نصف اللَّيل فيكون بعد انتهاء تسبحة نصف اللَّيل.

الفَصل الثَّالث

لحن "هلليلويا" الكـــــبير

لحن "أللي" نصف اللّيل

هنا يبدأ الكاهن قسماً جديداً من تسبحة نصف اللّيل فيقول المقدِّمة المعتادة لأي صلاة وهي : ⲓⲏ̅ⲥ̅ ⲓⲏ̅ⲥ̅ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ (إبشويس إبشويس ناي نان)، أما كلمة "هلليلويا"، فبدلاً من أن يقولها الكاهن دبحاً، تُرتِّل بلحن طويل بديع يدعوه ابن كبر "لحن الأبسطليمون" حيث يرتِّله أحد الشَّمامسة أمام باب الهيكل أي باب الحجاب[1]. ويذكر ابن كبر عن هذا اللّحن أنه ثلاثة ألحان، واحد مطوَّل والثّاني متوسِّط والثّالث مختصر. وجرت العادة أن يُرتَّل هذا اللّحن بواسطة شماس أو معلم (عريف) الكنيسة وهو ممسك في يده اليُمنى شمعة وواقف أمام باب الهيكل، بينما الكُل جلوساً يصغون إلى أعذب النَّغمات الكنسيَّة وأبدعها.

وهذا هو ما نسميه "أللي نصف اللّيل" أو "الألي الكبير" بلحنه المعروف. وبعده يبدأ ترتيل مديح القيامة أو قانون القيامة. ثم يعقبه "الهوس الكبير"، وهو قطع مختارة من المزامير[2] يردِّدها قائد التَّسبيح ويرد عليه الخوروس بكلمة "هلليلويا".

١- باب الهيكل لازال مغلقاً إذ يُفتح فقط عند بدء صلوات رفع البخور.

٢- أورد أبن كبر أرقام المزامير التي تكوِّن الهوس الكبير، ويقول إن وضعها المتوسط أن تكون ثماني عشرة قطعة تسبيح للرب والعذراء والملائكة والرسل والقديسين والشهداء والكهنة والشعب والمرتل.

فيكون التَّرتيب كالآتي:

- لحن أللي نصف اللّيل أي الألي الكبير.
- مديح القيامة أو قانون القيامة.
- الهوس الكبير. وهذا الهوس يختص بكل مناسبة من المناسبات الكنسيَّة فهناك الهوس الكبير في شهر كيهك، والهوس الكبير لعيد القيامة والخمسين، والهوس الكبير للصَّوم المقدَّس الكبير، وهكذا. وهو ما يختص بتسبحة المناسبات الكنسيَّة وليس بالتَّسبحة اليوميَّة التي نحن بصدد الحديث عنها في هذا الكتاب.

الفَصل الرَّابع

مـــديح القيـــــامة

الاسم الطَّقسي

اسمه "مديح Hymn القيامة" كما ورد في بعض المخطوطات[1]، وفي كتاب الأبصلموديَّة المطبوع أيضاً. وهو يُسمى في القبطيَّة بعنوان: ⲫⲁⲓⲉⲓⲧⲁⲛⲁⲥⲧⲁⲥⲓⲥ أي "إبصاليَّة للقيامة[2]" . أو باسم آخر هو ⲉⲃⲏ ⲡⲧⲁⲛⲁⲥⲧⲁⲥⲓⲥ أي "لأجل القيامة[3]".

وهذا المديح له اسم آخر هو "قانون القيامة"، وقد دُعي قانوناً للأسباب التَّالية:

- لأنه مقسَّمٌ إلى أرباع تُختم بالتَّتابع بالمرد "ذُكصابتري (المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس)"، والمرد "كانين (الآن وكل أوان وإلى دهر الدُّهور آمين)"، كما في قانون ختام الصَّلوات في الكنيسة.

- لأنه يُقال بنغمة القوانين التي يردِّدها الشَّعب في نهاية كل خدمة من الخدمات الكنسيَّة في الكنيسة القبطيَّة.

- لأن كلمة "قانون" في الطقس البيزنطي تعني ليتورجياً "تسبيح

1- Yassa Abd El-masih, *The Canon of The Resurrection*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC.)14, , Le Caire, 1950, p. 23, n.1

٢- انظر: القس مينا البراموسي، الأبصلمودية المقدسة السنوية، مرجع سابق، ص ٣٣، أقلاديوس لبيب (بك)، الأبصلمودية المقدسة الكيهكية، مرجع سابق، ص ١٩٧

٣- أقلاديوس لبيب (بك)، الأبصلمودية المقدسة الكيهكية، مرجع سابق، ص ٢٠٥

أو ترتيل". ولهذه الأسباب دُعي هذا المديح أو هذه الإبصاليَّة قانوناً.

مديح القيامة ذو أصل سكندري

يذكر العالم الليتورجي الألماني الشهير أنطون بومشتارك Anton Baumstark في كتابه "الليتورجيا المقارنة – *Comparative Liturgy* " أمراً في غاية الأهميَّة، حين يقرِّر أن هذا القانون قد وُجد مدوَّناً على بعض وثائق البردي المصريَّة والتي يبدو واضحاً منها أنها تعود في أصولها الأولى إلى كنيسة مصر[٤]. وإذا عرفنا أن هذا القانون ترتِّله الكنيسة اليونانيَّة حتى اليوم في نصه اليوناني، وترتله كنيسة روما أيضاً في ترجمته اللاتينيَّة، نوقن أن كنيسة مصر بمدرستها اللاهوتيَّة الشَّهيرة وآبائها الأوائل قد ذاع صيت علمها وتقليدها، لينتشر في كل أرجاء العالم شرقاً وغرباً.

ثم إن هذا المديح يحوي أفكاراً لاهوتيَّة وبعض مصطلحات لغويَّة تعود به إلى زمن سحيق في القدم، إذ تشهد بذلك وثائق البردي التي وُجد القانون مدوَّناً عليها[٥].

متى يُرتل هذا المديح في الكنيسة؟

يُرتَّل هذا المديح أو هذا القانون الخاص بالقيامة في الكنيسة القبطيَّة من عيد القيامة إلى آخر شهر هاتور. وهكذا ورد عنوانه في كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة التي طبعها أفلاديوس لبيب في القاهرة سنة ١٩٠٨م "مديح لأجل القيامة المقدَّسة يُقال من عيد القيامة إلى آخر شهر

4- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, *op. cit.*, p. 101
5- *Ibid*, p. 101

هاتور[٦]". فيُقال هذا المديح في تسبحة نصف اللَّيل لعيد القيامة، وبعد ذلك يُقال على مدى أيام الخمسين المقدسة، ثم في تسبحة نصف اللَّيل لأيام الآحاد حتى الأحد الأخير من شهر هاتور. وهذه الأيام في الطَّقس القبطي مكرَّسة للاحتفال بتذكار قيامة الرَّب من بين الأموات، وهي فترة تغطي تقريباً نصف السَّنة الليتورجيَّة[٧]. أي يتوقَّف ترتيل المديح بدءاً من شهر كيهك المبارَك حيث تنحصر ألحان الكنيسة وتسابيحها في أحداث الميلاد البتولي، والظُّهور الإلهي عند الأردن، ومن ثمَّ تدخل الكنيسة تواً لفترة الصَّوم المقدَّس الكبير التي تمتد ثمانية أسابيع.

الكتب التي تحوي نص مديح القيامة

يرد نص هذا المديح في كتب الأبصلموديَّة السنويَّة والكيهكيَّة المخطوطة والمطبوعة. وفي كتاب "الثاودوكيَّات وكترتيب شهر كيهك" الذي طبعه روفائيل الطوخي في روما سنة ١٧٦٤م. وفي كتاب دلاَّل وترتيب جمعة الآلام وعيد الفصح المجيد، والمطبوع في القاهرة سنة ١٩٢٠م.

ولكن لماذا يرد نص هذا المديح في الأبصلموديَّة الكيهكيَّة وهو مديح

٦- أقلاديوس لبيب (بك)، الأبصلمودية المقدسة السنوية، مرجع سابق، ص ٢٢ - ٢٩

٧- يُقال فصل إنجيل القيامة دائماً في رفع بخور باكر كل يوم أحد على مدار السنة الطقسية القبطيَّة فيما عدا فترتين طقسيتين:

الفترة الطقسية الأولى تبدأ مع الأحد الأول من شهر كيهك وحتى الأحد الثاني من شهر بشنس أي خلال شهور كيهك وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة ونصف شهر بشنس، حيث يعود فصل إنجيل القيامة ليُقال في الأحد الثالث من شهر بشنس.

الفترة الثانية: خلال آحاد شهر توت. ولكن لا يتوقف لحن القيامة في هذه الفترة الثانية، وهنا يتضح لنا أن وضع القراءات الكنسيَّة جاء تالياً من حيث الزمن لوجود لحن القيامة، إذ أن هذا الأخير هو الأقدم، فظل التقليد القبطي المحافظ حافظاً لترتيله خلال شهر توت.

للقيامة لا يُقال في شهر كيهك؟

يجيب عن هذا السؤال أقلاديوس بك لبيت ضمن الملاحظة التي أوردها تحت عنوان هذا المديح، وهو: ⲥⲟⲃⲉ ⲛ̀ⲧⲁⲛⲁⲥⲧⲁⲥⲓⲥ (لأجل القيامة) فيقول ما نصه: "يُقرأ هذا المديح من يوم عيد القيامة المعظمة وفي كل أيام الخمسين والآحاد التي بعد الخمسين لغاية الأحد الأخير من شهر هاتور. و(يقرأ) **إذا كانت** تأتي ليالي سبعة وأربعة في المدَّة التي تبتدئ من يوم عيد القيامة المعظمة، وإلاَّ فلا يُقرأ".

قانون القيامة في الكنيسة اليونانيَّة

يشمل قانون القيامة في الكنيسة البيزنطيَّة على قسمين:

– القسم الأول: إذ قد رأينا قيامة المسيح

Ἀνάστασιν Χριστοῦ Θεασάμενοι ...

– القسم الثاني: تبريكات Εὐλογητάρια (إفلوجيتاريا).

أما القسم الأوَّل فيُرتَّل في الكنيسة اليونانيَّة في المناسبات التَّالية:

– كل يوم أحد بعد فصل إنجيل خدمة باكر.
– في خدمة نصف اللَّيل ليوم عيد القيامة.
– في عشيَّة عيد الصُّعود.
– في عيد الصَّليب أياً كان يوم وقوعه.

والقسم الثاني الذي يبدأ بعبارة Εὐλογητός εἶ Κυρίε أي "مبارك أنت أيها السيِّد ..."، فيقال كل يوم أحد في خدمة باكر.

ولكن إن وقع أي عيد سيِّدي يوم أحد فلا يُرتَّل قانون القيامة بقسميه.

مقابلة بين التَّرجمة العربيَّة للنَّصين القبطي واليوناني لقانون القيامة

في السُّطور القادمة نقدِّم للقارئ العزيز التَّرجمة العربيَّة[٨] للنَّص القبطي البحيري[٩] لقانون القيامة، في المقابل مع التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني الذي تستخدمه الكنيسة اليونانيَّة، مع توضيح الفوارق بينهما.

ويلزم الإشارة إلى أن التَّرجمة العربيَّة للقانون مأخوذة بكل دقة عن النَّص القبطي الذي أورده المخطوط رقم (٢٩٨) بالمتحف القبطي[١٠] والذي يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر. ولأن التَّرجمة العربية للنَّص القبطي سيِّئة وضعيفة، لذلك قمتُ بتصحيح الأخطاء اللغويَّة فقط لبعض الكلمات القليلة. مع الأخذ في الاعتبار أن النَّص القبطي هو الذي نعتمد عليه في التَّرجمة. أما التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني فمأخوذة عن كتاب "التعزية الحقيقيَّة في الصَّلوات الإلهيَّة" جمع وترتيب رافائيل حواويني أسقف بروكلين، ورئيس وفد الكنيسة السِّريانيَّة الأرثوذكسيَّة الجامعة في أمريكا الشماليَّة. وقد طُبع الكتاب في نيويورك سنة ١٩٠٩م.

والقانون مقسَّم إلى أرباع بحري وقبلي ليقال بالتَّبادل بين خورسين، وهو يُرتَّل بنفس الطريقة في الكنيسة اليونانيَّة. أما ما يلزم ملاحظته جيداً هو أن هذا القانون في الكنيسة القبطيَّة ينقسم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأوَّل: يحوي ثمانية أرباع، وفيها يرد المرد "ذُكصابتري ..."،

٨- أورد الأستاذ يسى عبد المسيح الترجمة القبطيَّة للقانون ونظيرتها اليونانية مع عمل مقارنة بين النَّصين القبطي واليوناني، وقد أغفلنا ذلك لعدم الخوض في تفصيلات دقيقة ربما لا تناسب سوى الدارس المتخصص فحسب.

٩- حتى الآن لم يتم العثور على نص قبطي صعيدي لقانون القيامة.

Cf. Yassa Abd El-masih, *The Canon of The Resurrection*, op. cit., p. 25

10- Ms. 298 Lit., Coptic Museum Library, foll. 78v. - 79r. (XV Century).

ويعقبه المرد "كانين ..."، ثم يعقب هذين المردَّين أرباعٌ تُقال للسيِّدة العذراء (ثيؤطوكيون)، وهو نفس التَّرتيب التَّقليدي لقطع صلوات السَّواعي.

القسم الثَّاني: يحوي باقي الأرباع من التَّاسع حتى النهاية، ويرد فيه نفس التَّرتيب السَّابق ذكره، أي المردين "ذُكصابتري ... كانين ..."، ثم قطعة مختصَّة بوالدة الإله.

ولكن هذا القانون في الكنيسة البيزنطيَّة لا يرد به سوى مرد واحد "ذكصابتري ..."، ومرد واحد "كانين ..." (الرُّبعان ١٧، ١٩)، ثم قطعة مختصة بالسيِّدة العذراء.

إن تكرار القسمين السَّابق ذكرهما وبنفس التَّرتيب (أي ذُكصابتري ... كانين ... قطعة مختصَّة بالسيِّدة العذراء) في نص القانون كما تعرفه كنيسة الإسكندريَّة هو ما نجده بكل دقة في الأجبية القبطيَّة في قطع صلوات السَّواعي الثالثة والسادسة والتاسعة. وإذا عرفنا أن قطع هذه السَّواعي المذكورة هي بنفس هذا التَّرتيب وبنفس الكلمات والألفاظ في الكنيسة البيزنطيَّة كما في الكنيسة القبطيَّة، نوقن أن نص مديح القيامة أو قانون القيامة في التَّقليد الإسكندري هو الأكثر قدماً من نصه اللِّيتورجي في الكنائس الأخرى.

وقد أعطيتُ لكل ربع من أرباع القانون رقماً حتى يسهل التعقيب عليها بعد نهاية النَّص. والكلمات التي يدور حولها التَّعقيب كتبتها بالبنط الثَّقيل حتى يتيسَّر الرُّجوع إليها.

التَّرجمة العربيَّة للنَّص القبطي	التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني
(١) ننظر إلى قيامة المسيح،	إذ قد رأينا قيامة المسيح فلنسجد

التَّرجمة العربيَّة للنَّص القبطي	التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني
ونسجد للقدُّوس يسوع المسيح ربنا الذي بلا خطيَّة وحده.	للرَّب القدوس يسوع البرئ من الخطأ وحده.
(٢) نسجد لصليبك أيها المسيح، ونسبِّح ونمجِّد قيامتك. لأنك أنت هو إلهنا ولسنا نعرف أحداً سواك. **وباسمك دُعينا.**	لصليبك أيها المسيح نسجد، ولقيامتك المقدَّسة نسبِّح ونمجِّد، لأنك هو إلهنا، وآخر سواك ما نعرف. وباسمك نسمَّى.
(٣) المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس[١١].	
(٤) تعالوا كلكم أيها المؤمنون نسجد لقيامة المسيح، لأن **من قِبَل صليبه** أتى الفرح إلى العالم كله.	هلمُّوا يا معشر المؤمنين نسجد لقيامة المسيح **المقدَّسة**، لأن هوذا **بالصَّليب** قد أتى الفرح لكل العالم.
(٥) فلنسبِّح الرَّب في كل حين، ونمجد قيامته، لأنه صبر وسحق الموت بموته.	نبارك الرَّب في كل حين، ونسبِّح قيامته، لأنه إذ احتمل الصَّلب من أجلنا، بالموت للموت حطَّم.
(٦) الآن وكل أوان وإلى دهر الدُّهور آمين[١٢].	
(٧) كل الأفراح تليق بك يا والدة الإله، لأنه من قِبَلك رُدَّ آدم إلى الفردوس، **وتعزَّت** حواء من حزن قلبها، وعُتقت من أجلك مرَّة	

١١- هذه الذُكصا وردت في النَّص القبطي للمخطوط دون النَّص العربي.

١٢- ختام الذُكصا لا توجد في هذا الموضع في النَّص اليوناني، ولكنها وردت في نهاية القانون.

التَّرجمة العربيَّة للنَّص القبطي	التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني
أخرى بالخلاص الأبدي.	
(٨) ونحن أيضاً نمجدك لأنك كنز القيامة. افرحي أيتها الكنز المختوم الذي تملأنا بالحياة من جهته. افرحي يا من ولدت لنا المسيح، وأعطانا الحياة من **قبل قيامته.**	
(٩) مبارك أنت يارب علمني حقوقك.	
(١٠) العساكر الملائكيَّة بُهتوا عندما رأوك محسوباً مع الأموات. وسحقت قوة الموت أيها المخلِّص، وأقمت آدم معك، وعتقته من الجحيم.	جمع الملائكة أندهل متحيراً عند مشاهدتهم إياك محسوباً بين الأموات أيها المخلِّص، وداحضاً قوَّة الموت، ومنهضاً آدم معك، وعاتقاً إيانا من الجحيم كافة.
(١١) مبارك أنت يارب علمني حقوقك.	
(١٢) لماذا هذا الطيب والنَّحيب والبكاء ممتزج بعضه مع بعض يا تلميذات الرَّب. قال الملاك النوراني للنسوة حاملات الطيب عند القبر إن المخلِّص نهض قائماً من الأموات.	الملاك اللامع عند القبر تنغَّم نحو حاملات الطيب قائلاً: لماذا تمزجن الأطياب بالدموع. يا تلميذات انظرن اللَّحد وافرحن لأن المخلِّص قد قام من القبر.
(١٣) مبارك أنت يارب علمني حقوقك.	
(١٤) باكراً جداً أسرعت النسوة إلى قبرك[١٣] حاملات الطيب	إن حاملات الطيب سَحَراً جداً سارعن إلى قبرك نائحات. إلاَّ أن

١٣- النَّص القبطي يقول: "إلى قبرك - **ⲉ ⲡⲉⲕⲙⲁⲁⲩ** ". وهو ما نجده في كتاب

التَّرجمة العربيَّة للنَّص القبطي	التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني
ينحن، لكن الملاك وقف بهن وقال لهن: إن زمان البكاء فرغ، لا تبكين، بل افرحن[١٤] وبشرن بالقيامة للرُّسل.	الملاك وقف بهن وقال لهن: زمان النوح كفَّ وبطل، فلا تبكين، بل أخبرن الرُّسل مبشرات بالقيامة.

(١٥) مبارك أنت يارب علمني حقوقك.

(١٦) النسوة حاملات الطيب أتين إلى قبرك أيها المخلِّص مع البخور[١٥] وسمعن الملاك قائلاً لهن: لماذا تطلبن الحي مع الأموات، وهو كإله قام من القبر[١٦].	إن النسوة حاملات الطيب وافين بالحنوط[١٧] إلى قبرك أيها المخلِّص فسمعن ملاكاً متنغماً نحوهن قائلاً: لم تحسبن الحي مع الموتى؟ فبما أنه[١٨] إله قد قام من القبر ناهضاً.

(١٧) المجد للآب والابن والروح القدس[١٩].

(١٨) نسجد للآب والابن	نسجد للآب ولابنه ولروح

الأبصلمودية المطبوع الذي بين أيدينا. أما النَّص العربي للمخطوط فذكر "إلى القبر".

١٤- أضافها المترجم إلى العربية دون أي مقابل لها في القبطيَّة.

١٥- عبارة "مع البخور" سقطت من المترجم إلى العربية، وهي موجودة في النَّص القبطي: "ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲥⲑⲟⲓⲛⲟϥϥⲓ"، وموجودة أيضاً في كتاب الأبصلمودية المطبوع بين أيدينا.

١٦- النَّص القبطي: "قام من القبر – ⲁϥⲧⲱⲛϥ ⲉⲃⲟⲗ ⲃⲉⲛ ⲡⲓⲙⲁⲉⲁⲩ"، وهو نفس التعبير مثل نظيره اليوناني. ولكن المترجم إلى العربية ذكر: "قام من الأموات".

١٧- كلمتا "الطيب – ointments"، و"الحنوط – spices" جاءتا في النَّص اليوناني بنفس الكلمة اليونانية μύρον (ميرون).

١٨- في النَّص اليوناني "فبما أنه – for as" أما في القبطي "وهو – and as".

١٩- هذه الذكصا جاءت في النَّص القبطي للمخطوط ولكن برغم ذلك لم توردها الترجمة العربية له.

التَّرجمة العربيَّة للنَّص القبطي	التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني
والرُّوح القُدُس **بوحدانية الجوهر**، ونصرخ مع **الشَّاروبيم** قائلين: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ أنت يارب.	قدسه، **ثالوثاً مقدسا** بجوهر واحد، صارخين مع **السارافيم**: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ أنت يارب.

(١٩) الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين[٢٠].

(٢٠) أيتها العذراء ولدت معطي الحياة، وخلَّصت آدم من الخَطيَّة، وأعطيتِ حواء فَرحاً عوضاً عن حزنها، وأنعمت لها بالحياة والخلاص من الفساد **والتغيير**[٢١]. وصرت لنا شفيعة عند الإله **المتأنس** الذي تجسد منك.	أيتها العذراء، قد ولدت معطي الحياة، وأنقذت من الخطية آدم الذي تمور من الحياة، ومنحت حواء الفرح عوض الحزن. لكن **الإله والإنسان** المتجسد منك أرشدهما إليك.
له المجد دائماً وعلينا رحمته إلى أبد الأبد آمين[٢٢].	هلليلويا هلليلويا هلليلويا المجد لك يا الله. يا إلهنا وزجاءنا، المجد لك.

٢٠- جاءت في النَّص القبطي للمخطوط، ولم توردها الترجمة العربية له. وختام الذُكصا هذه في النَّص اليوناني يتبعها للتو بعد ذلك ما يُسمى θεοτόκιον (ثيؤطوكيون) أي ما يختص بوالدة الإله.

٢١- برغم أن النَّص القبطي يحوي كلمة "والتغيير - ⲛⲉⲙ ⲡⲱⲣϐ†"، إلاَّ أنها سقطت من المترجم إلى العربية. وعند هذا الحد صار من اللازم أن ننبه إلى ضرورة تحقيق نص أي مخطوط بين أيدينا، قبل بناء أي دراسة عليه.

٢٢- هذه الخاتمة أضافها المعرِّب للنص القبطي وهي لا توجد به. أما ما أغفله المعرِّب برغم أنه موجود في النَّص القبطي فهو تلك العبارة التالية: "آمين هلليلويا، يارب ارحم، يارب ارحم". وهذه هي البداية الطقسية للهوس الأول الذي يلي القانون مباشرة وليس ختام قانون القيامة.

تعقيبات على النَّص

الرُّبع رقم (٢)

النَّص القبطي في عبارة "وباسمك دُعينا" يوافق ما يرد في بعض نصوص الصَّلوات الليتورجيَّة القبطيَّة الأخرى مثل قول الكاهن في نهاية مجمع القدَّاس الإلهي: "أنقذنا من أجل اسمك القدُّوس الذي دُعي علينا". ولكن النَّص اليوناني يطابق ما ورد في سفر إشعياء (١٣:٢٦)، حين يقول: إننا نسميّ اسمك we name thy name . وهو أيضاً ما نجده في الطَّقس القبطي في صلاة التَّحليل للابن: "اسمك القدُّوس هو الذي نقوله".

الرُّبع رقم (٤)

النَّص القبطي يقول: "من قِبَل صليبه – ⲉⲃⲟⲗ ϩⲓⲧⲉⲛ ⲡⲉⲕⲥⲧⲁⲩⲣⲟⲥ" وهو نفس ما نجده في مواضع أخرى من الصَّلوات الليتورجيَّة في الكنيسة القبطيَّة. أما التَّرجمة العربيَّة للمخطوط فغير دقيقة حيث تذكر: "من جهة الصَّليب". أما النَّص اليوناني فيقول: "بالصليب – διὰ τοῦ Σταυροῦ".

كما يضيف النَّص اليوناني غالباً صفة القداسة على قيامة المسيح، أما النَّص القبطي فيذكر القيامة دون أية أوصاف لها، وهي أحد السِّمات التي توضح قِدَم النَّص القبطي.

الرُّبع رقم (٧)

عبارة: "وتعزَّت حواء من حزن قلبها" يقابلها في كتاب الأبصلموديَّة المطبوع عبارة "نالت حواء الزِّينة عوض حزنها". وسبب الاختلاف في المعنى هو أن الكلمة القبطيَّة ⲥⲟⲗⲥⲉⲗ (سولسيل) لها عدَّة معان من أهمها معنيان؛ الأوَّل هو: "زيَّن – زوَّق – زخرف"، والثَّاني

هو: "سلىَّ – عزَّى – تعزَّى – واسى" (٢٣).

وقد درج المترجم القبطي على ترجمة هذه الكلمة القبطيَّة ⲥⲟⲗⲥⲉⲗ بمعنى "زينة" في نصوص الصَّلوات الليتورجيَّة القبطيَّة كما في ذُكصولوجيَّة العذراء "زينة (أي تعزية) مريم في السَّموات العلوية ..."، وفي ثيؤطوكيَّة الأحد: "زيَّنت (أي عزَّيت) نفوسنا يا موسى النَّبي بكرامة القبَّة التي زينتها".

وهذا يناظر ما نجده في بعض آيات الكتاب المقدَّس مثل: «صاروا لي تسلية παρηγορία (باريجوريَّا)» (كولوسي ٤:١١) أي «صاروا لي تعزية». ومثل: «إن كانت تسلية παραμύθιον (باراميثيون) ما للمحبَّة» (فيلبي ٢:١) أي «إن كانت تعزية ما للمحبَّة». فكلا الكلمتين اليونانيتين παρηγορία و παραμύθιον تعنيان "تعزية – comfort"

الرُّبع رقم (٨)

هذا الرُّبع والرُّبع السَّابق له والمختصَّان بالعذراء القدِّيسة مريم لا يوجدان في التَّقليد اليوناني. وجدير بالذكر أن الصَّلوات الليتورجيَّة للكنيسة القبطيَّة لا تغفل أبداً أن تخاطب العذراء القدِّيسة في أهم مراحل الخلاص الذي صنعه الرَّب من أجلنا، سواء في أشد لحظات الصَّليب ألماً، وهي الساعة السادسة من يوم الجمعة العظيمة، أو في أسعد الأفراح بهجة وحبوراً وهي أفراح القيامة.

ولاحظ أيضاً التوافق بين عبارة "من قبَل قيامته" في هذا الرُّبع، وبين عبارة "من قِبَل صليبه" في الرُّبع الرابع.

٢٣- انظر: معوض داود عبد النور، قاموس اللغة القبطيَّة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، ص ٣٨٢، ٣٨٣

الرُّبع رقم (١٦)

"حاملات الطيب" تعبير لا يرد في نصوص الصَّلوات الليتورجيَّة القبطيَّة سوى هنا فقط، ولكنه يتكرَّر في غير موضع في صلوات الكنيسة البيزنطيَّة. وفي حين يتكلَّم النَّص القبطي عن الطيب والبُخور، يذكر النَّص اليوناني الطيبَ والحنوط.

والنَّص القبطي يقول: "لماذا تطلبن ..."، في حين أن النَّص اليوناني يقول: "لم تحسبن ...". والفعل القبطي "تطلبن – ⲧⲉⲧⲉⲛⲕⲱϯ ⲛⲥⲁϥⲏ" هو الأدق والأوفق مع نص الإنجيل بحسب بشارة القديس لوقا (٢٤:٥) من الفعل اليوناني "تحسبن – λογίζεσθε"، إذ يرد هذا الفعل في الإنجيل ⲍⲏⲧⲓⲉⲧⲉ (زيتيتي) أي يطلب.

الرُّبع رقم (١٨)

عبارة: "نسجد للآب والابن والرُّوح القُدُس بوحدانيَّة الجوهر". تلقي ضوءاً باهتاً على زمن تأليف مديح القيامة. لأن تعبير "وحدانية الجوهر" هو ما لم يكن قد تمخَّض اللاهوت عنه حتى إلى ما بعد مجمع نيقية المسكوني الأول سنة ٣٢٥م، بسنين كثيرة إذ ظل تعبير "مساواة الابن للآب في الجوهر" محل نزاع استغرق كل زمان البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨– ٣٧٣م). أما عبارة "ثالوثاً مقدَّساً" في النَّص اليوناني فلم ترد في النَّص القبطي للمديح.

والتسبحة "قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ أنت يارب" يتَّضح من نصها أنها قديمة للغاية لم تطرأ عليها الإضافات اللاحقة كما نعرفها اليوم. ولكن النَّص القبطي ينسب هذه التَّسبحة للشَّاروبيم، بينما ينسبها النَّص اليوناني للسارافيم.

الرُّبع رقم (٢٠)

يلاحظ القارئ العزيز الاختلاف الجوهري بين التَّقليدين القبطي واليوناني في هذا الرُّبع. فمخاطبة العذراء بالقول: "أنعمت لها (أي لحواء) بالحياة والخلاص من الفساد والتغيير، وصرت لنا شفيعة عند الإله المتجسِّد منك"، نص ينفرد به التَّقليد القبطي.

أما عن كلمة "المتأنِّس" والتي لم ترد في النَّص القبطي، فقد أضافها النَّاسخ من عنده ربما للشَّرح. ولكن العبارة القبطيَّة "صرت لنا شفيعة عند الإله الذي تجسَّد منك" هي دقيقة للغاية ولا تحتاج إلى شرح. وتوضِّح إيمان الكنيسة القبطيَّة القديم في كلمات بسيطة دقيقة مسنودة بروح الإنجيل وتعليم آباء الكنيسة.

ومن عبارة "الإله والإنسان" في النَّص اليوناني لهذا الرُّبع تتضَّح أمامنا عقيدة الطبيعتين في شخص السيِّد المسيح وهي العقيدة التي تؤمن بها الكنيسة البيزنطيَّة.

الفَصل الخَامس

الهـــــوس الأوَّل

تعريف بأصالة تسبحة موسى (الهوس الأوَّل) في الكنيسة المسيحيَّة

"هوس" كلمة قبطيَّة ϩωc تعني تسبحة أو تسبيح – canticle – ode . فالهوس الأوَّل أو التَّسبحة الأولى هي تسبحة موسى عبد الرَّب، والتي قالها مع الشَّعب بقيادة مريم أخته بالدُّفوف والرَّقص بعد أن عبروا البحر الأحمر ونجوا من أيدي المصريين، ورأوهم كيف غرقوا بمركباتهم وخيولهم في مياه البحر.

وهي تسبحة سحيقة في القدَم انتشرت بين كافة الطقوس المسيحيَّة شرقاً وغرباً، فهي مع تسبحة الثَلاثة فتية (الهوس الثالث) كانتا أوَّل التَّسابيح التي استُخدمت في الليتورجيَّة المسيحيَّة عموماً، حيث دخلت هاتان التَّسبحتان – ومعهما تسابيح أخرى لحقت بهما فيما بعد – إلى خدمة الصَّباح Morning Office .

ولدينا وثيقة fragment هامة هي قصاصة من البردي وُجدت في الفيوم، وهي عبارة عن ورقة من كتاب صلوات مصري قديم. وفي هذه القصاصة البرديَّة وُجدت التَّسبحتان معاً، تسبحة موسى وتسبحة الثلاثة فتية متتابعتان مباشرة دون فاصل بينهما. فعلى وجه recto ورقة البردي هذه يوجد جزء من نص تسبحة موسى، وعلى ظهرها verso تسبحة الثلاثة فتية القدِّيسين. ولازالت هاتان التَّسبحتان تحتلان مكانهما في

تسبحة نصف اللّيل في الكنيسة القبطيَّة، ولكن يفصل بينهما الهوس الثاني وهو المزمور (١٣٥).

إن أصول هاتين التَّسبحتين نجدها بوضوح في تسابيح السَّهر اللّيلي لكل من عيد الفصح وعيد الغطاس في القرون المسيحيَّة المبكّرة في كنيسة أورشليم، وذلك من مصادر ليتورجيَّة قديمة أهمها:

– كتاب القراءات الأرمني القديم. وهو وثيقة بالغة الأهميَّة تعود إلى القرن الخامس الميلادي. والحواشي التي دُوِّنت على هذه الوثيقة تُعد من أساسيَّات دراسة تاريخ الطقوس الشَّرقيَّة. وقد ترجمت هذه الحواشي إلى اللغة الإنجليزيَّة بواسطة العالم كونيبير Conybear ، في كتابه "الطقس الأرمني" والذي طبعه ونشره سنة ١٩٠٥م في جامعة أكسفورد بإنجلترا[١].

– المصادر السِّريانيَّة القديمة لبلاد ما بين النَّهرين. ومن الثابت أن هذه التَّسبحة تعرفها الكنيسة السِّريانيَّة ضمن تسابيحها اليوميَّة الأربع المأخوذة من تسابيح العهد القديم، ولازالت تصلي بها حتى اليوم[٢].

– كتاب القدَّاس للطقس الموزاراي.

فمن هذه المصادر السَّابق ذكرها نعرف أن السَّهر اللّيلي للأعياد الكنسيَّة، وأيضاً السَّهر اللّيلي لأيام الآحاد يحوي اثني عشر فصلاً كتابياً. وبعد القراءة السَّادسة تأتي تسبحة موسى (خروج ١٥)، وبعد القراءة الثانية عشر تأتي تسبحة الثلاثة فتية في أتون النَّار.

1- Cf. F.C. Conybear, Rituale Armenorum, Oxford, 1905, p. 522, 517, 516 – 527.

٢– هذه التسابيح الأربع هي: تسبحة موسى (تثنية ٣٢:١ – ٤٣) «أنصتي أيتها السموات ...». وتسبحة موسى (خروج ١٥:١ – ٢١)، وتسبحة إشعياء (٤٢:١٠ – ١٣ ، ٤٥:٨)، وتسبحة الثلاثة فتية (مختصرة) (دانيال ٣:٥٢).

Cf. Yassa Abd El-masih, *The Canon of The Resurrection*, op. cit., p. 29, 30.

أما اليوم فنجد أن تسبحة موسى (خروج ١٥) قد سقطت من بعض الطقوس، ولم يتبق عندها سوى تسبحة الثلاثة فتية القدِّيسين، والتي تُرتَّل في تسبحة السَّحَر في الطقس الماروني، والطقس الكلداني، والطقس الأرمني. وكانت تُرتَّل أيضاً في طقس السَّهر اللَّيلي لأيام الآحاد والأعياد في الطقس الدَّيري الأسباني القديم.

وفي الكنيسة اليونانيَّة لازالت تُقال تسبحتان كل يوم. وبينما تتغيَّر التَّسبحة الأوَّلى مع تغير أيام الأسبوع، فإن تسبحة الثلاثة فتية القدِّيسين تقال يومياً. أي أن تسبحة موسى تُقال عندهم مرَّة واحدة في الأسبوع.

أما في الغرب فقد حلَّ محل تسبحة موسى في خدمة السَّحَر في الطقس الأسباني الكاتدرائي تسبحة كتابيَّة أخرى لتوائم متطلبات السَّنة الليتورجيَّة فيما عدا الثمانية أيام التي تعقب عيد القيامة "أوكتاف القيامة"، وأيام الآحاد على مدى زمن الخمسين المقدَّسة Pascal Season .

وفي روما فإن التَّسبحتين الأصليتين أي تسبحة موسى وتسبحة الثلاثة فتيَّة فقد اختصرتا إلى تسبحة واحدة ويضاف إليها نصٌّ خاصٌ يتغيَّر مع تغيُّر أيام الأسبوع، وهو التَّرتيب التي اتبعه القدِّيس بندكت[٣].

إذاً لازال الطقس القبطي – وربما معه السِّرياني أيضاً – هو الوحيد بين كافة الطقوس الشَّرقيَّة المسيحيَّة شرقاً وغرباً الذي لازال يحافظ على التَّرتيل اليومي لأقدم تسبحتين عرفهما العالم المسيحي القديم – تسبحة موسى عبد الرَّب، وتسبحة الثلاثة فتية القدِّيسين – سواء في الأيام العاديَّة أو في أيام الأعياد والمناسبات الكنسيَّة بلا تفريق.

3- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, *op. cit.*, p. 35 – 37.

بل وظل الطقس القبطي وحده بلا منازع محافظاً على الموضع التَّقليدي الأصيل لهاتين التَّسبحتين، إذ ظلَّت فيه هاتان التَّسبحتان متجاورتين لا يفصل بينهما سوى المزمور (١٣٥) وهو الهوس الثاني. بل وإن هذا الهوس الثاني أصوله أيضاً قديمة تعود إلى زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨ – ٣٧٣م) كما سبق لنا أن أشرنا من قبل، أو ربما إلى زمن ما قبل القدِّيس أثناسيوس.

وإيجازاً لما سبق، نتيقَّن من أن السَّهر اللَّيلي القديم، وفي الأزمنة المبكرِّة للمسيحيَّة، كانت هناك تسبحتان كتابيَّتان مشهورتان من تسابيح العهد القديم، ترتلان في هذا السَّهر، واحدة لموسى والأخرى للثلاثة فتيَّة القدِّيسين. ومع مرور الوقت أضيف على هاتين التَّسبحتين عناصر ليتورجيَّة جديدة[٤].

حول النَّص القبطي لتسبحة موسى (الهوس الأوَّل)

(١) حينئذ سبَّح موسى وبنو إسرائيل بهذه التَّسبحة للرَّب وقال: ليقولوا فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد.

(٢) الفرس وراكب الفرس طرحهما في البحر. معيني وساتري وصار لي خلاصاً.

(٣) هذا هو إلهي فأمجده، إله أبي فأرفعه.

(٤) الرَّب مكسِّر الحروب. الرَّب اسمه. مركبات فرعون وكل قوته طرحهما في البحر.

(٥) رُكاباً منتخبين ذوي ثلاثة جنائب غرَّقهم في البحر الأحمر.

(٦) غطاهم الماء. انغمسوا إلى العمق مثل الحجر.

4- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy, op. cit.*, p. 112.

(٧) يمينك يارب تمجَّدت بالقوَّة. يدك اليمنى يا إلهي أهلكت أعداءك.
(٨) بكثرة مجدك سحقت مقاومينا. أرسلت غضبك فأكلهم مثل الهشيم.
(٩) بروح غضبك وقف الماء. وارتفعت المياه مثل السور. وجمدت الأمواج في وسط البحر.
(١٠) قال العدو إني أسرع فأدرك وأقسم الغنائم وأشبع نفسي وأقتل بسيفي ويدي تتسلَّط.
(١١) أرسلت روحك فغطاهم البحر. وغطسوا إلى أسفل كالرَّصاص في مياه كثيرة.
(١٢) من يشبهك في الآلهة يارب. من يشبهك. ممجداً في قدِّيسيك، متعجباً منك بالمجد، صانعاً عجائب.
(١٣) مددت يمينك فابتلعتهم الأرض. هديت شعبك بالحقيقة هذا الذي اخترته. وقويته بتعزيتك، إلى موضع راحة قدسك.
(١٤) سمعت الأمم وغضبت. والمخاض أخذ سكان فلسطين.
(١٥) حينئذ أسرع ولاة أدوم ورؤساء المؤابيين أخذتهم الرِّعدة.
(١٦) ذاب كل سكان كنعان، وجاءت عليهم الرِّعدة والخوف.
(١٧) بكثرة ساعدك فليصيروا كالحجر حتى يجوز شعبك يارب، حتى يجوز شعبك هذا الذي اقتنيته.
(١٨) أدخلهم واغرسهم على جبل ميراثك، وفي مسكنك المستعد، هذا الذي صنعته يارب.
(١٩) موضعك المقدس يارب الذي أعددته يداك. يارب تملك إلى الأبد ومنذ الأبد والآن.
(٢٠) لأنه قد دخل إلى البحر خيل فرعون ومراكبه وفرسانه.
(٢١) والرَّب جاب عليهم ماء البحر، وبنو إسرائيل كانوا يمشون في اليبس في وسط البحر.
(٢٢) فأخذت مريم النبيَّة أخت هرون الدُّف بيديها. وخرج في إثرها

جميع النسوة بالدُّفوف والتَّسابيح.
(٢٣) وابتدأت مريم قدامهن قائلة: فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد.
(٢٤) الفرس وراكب الفرس طرحهما في البحر. فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد.

لقد دُوِّنت هذه التَّسبحة الشَّهيرة في الأصحاح الخامس عشر من سفر الخروج. والتَّرجمة العربيَّة لتسبحة موسى (الهوس الأوَّل) مأخوذة عن النَّص القبطي، ومقسَّمة إلى أربعة وعشرين ربعاً. والنَّص القبطي يتبع عن قرب قريب النَّص اليوناني للعهد القديم المعروف بالتَّرجمة السبعينيَّة. وهي التَّرجمة المعتبرة في الكنيسة وفي التَّقليد أنها التَّرجمة الرَّسميَّة.

• الرُّبع الخامس يذكر: "ركاباً منتخبين ذي ثلاثة جنبات ΤΡΙCΤΑΤΗC غرقهم في البحر الأحمر". وهذا هو نص التَّرجمة اليونانيَّة (السَّبعينيَّة)، في حين أن التَّرجمة العبريَّة تقول "أفضل جنوده المركبيَّة". وهنا نقول إن النَّص اليوناني جاء أكثر تحديداً لنوعيَّة الذين غرقوا في البحر. ففي النِّظام اليوناني القديم كانت طبقات الناس العظماء تنقسم إلى ثلاث: الأوَّلى: الملك، والثانية المشيرون والوزراء، والثالثة أناس ممتازون في الدُّول. وعن هذه الطبقة الثَّالثة والتي منها قادة الجيش وكبار الضباط تحدثت التَّرجمة السَّبعينيَّة.

• الرُّبع العاشر يقول: "قال العدو أسرع فأدرك، وأقسم الغنائم، وأشبع نفسي وأقتل بسيفي ويدي تتسلَّط".
والقدِّيس الأنبا أنطونيوس صاحب الخبرة العظيمة في محاربة الشَّيطان، وكشف حيله، يقول:
[يذكر النَّبي ما قاله العدو "أتبع، أدرك، أقسم غنيمة"
وما قاله في موضع آخر أيضاً: «أقبض على كل الأرض في

يدي كعش، وأجمعها كما يُجمع بيض مهجور» (إشعياء ١٠:١٤). وهذا هو بإيجاز افتخارهم وادعاءاتهم، لعلهم يخدعون بها الأنقياء. ولكن لا ينبغي أن نخاف قط نحن المؤمنين من تظاهره، ولا نأبه بكلماته، لأنه كذّاب ولا يتكلّم كلمة واحدة بصدق. ورغم تعظمه وتبجحه بكلمات هذه كثرتها، فإنه بلا شك قد اصطيد بشص كتنين بواسطة المخلّص، وأوثقت خياشيمه بخزامة كهارب، وثقبت شفتاه بمثقب. وقد أوثقه الرَّب كعصفور، لكي نهزأ به، وقد خضعت معه الشياطين رفقاؤه كحيّات وعقارب نطأها نحن المسيحيين تحت الأقدام].

ورد في الرُّبعين التاسع والحادي عشر من الهوس ذكر لعمل الرُّوح القُدُس: "أرسلتَ روحك فغطاهم البحر ..."، وهنا تعبير في غاية الحبك، ورمز غاية في الدِّقة، لمعمودية الماء والرُّوح. حيث بالماء والرُّوح ندفن الإنسان العتيق، وبهذا الماء عينه، وبهذا الرُّوح نفسه، ينجو ويحيا الإنسان الجديد حينما يقول: "وبروح غضبك وقف الماء وارتفعت المياه مثل السُّور، وجمدت الأمواج في وسط البحر".

• لهذا جاء الرُّبع التالي مباشرة (الثاني عشر) ليقول: "من يشبهك في الآلهة يارب، من يشبهك؟ ممجداً في قدِّيسيك، متعجباً منك بالمجد، صانعاً عجائب". وتعبير "ممجَّداً في قدِّيسيك" تعبير فريد في كافة أسفار العهد القديم لم يرد فيها سوى في هذه التَّسبحة فقط. ولم يلمحه في العهد الجديد سوى القدِّيس بولس الرسول والذي يستشهد بالسبعينيَّة في تسبحة موسى حينما يقول في رسائله: «متى جاء في ذلك اليوم ليتمجد في قديسيه، ويُتعجَّب منه في جميع الأمم» (٢تسالونيكي ١:١٠).

• في الرُّبع التالي مباشرة (الثالث عشر): ذكر ليمين الـرَّب والـتي ترمز دائماً إلى أقنوم الابن. "مددت يمينك فابتلعتـهم الأرض ... الخ". هذا ما رآه إسطفانوس - يوم رجمه - وهو ممتلئ من الـرُّوح القُـدُس: «رأى مجد الله، ويسوع قائماً عن يمين الله، فقال: ها أنا أنظر السَّموات مفتوحة، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله» (أعمال ٧:٥٥، ٥٧).

وفي ذلك يقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م):

[اعترف موسى في تسبحته - بعد أن قاد شعب اليهود عبر البحر - بعمل الآب والابن والرُّوح القُدُس بقولـه: "يمينك يارب تمجَّدت بالقوَّة، يدك اليمنى يا إلهي أهلكت أعداءك". فها لديكم اعترافه بالابن والآب الذي يمينه هو الابن. ولم يغفل الرُّوح القُدُس، بل أضاف بعد ذلك قائلاً: "أرسلت روحك فغطاهم البحـر، وبـروح غضـبك انقسمت المياه" مما يفيد وحدة الثالوث ومساواته[٥]].

بل إن نفس هذا الرُّبع الثالث عشر يشهد لعمل الرُّوح القُدُس أيضاً في قوله: "هديت شعبك بالحقيقة، هذا الذي اخترته وقويته بتعزيتك إلى موضع راحة قدسك"، فالذي يعزِّي ويهدي ويرشد هو الرُّوح القُدُس[٦].

ويكرِّر القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) في شـرحه للمزمـور (٤٤:٣) هذه المعاني نفسها فيقول:

[... لأنه ليس بسيفهم امتلكوا الأرض، ولا ذراعهـم خلَّصتهم، لكن يمينك وذراعك ونـور وجهـك لأنـك رضيت عنهم. يمينك هي قوَّتك، وذراعك هو ابنك نفسه

5- *On the Holly Spirit*, book iii.

٦- انظر: يوحنا ١٥:٢٦، ١٦:١٣

ونور وجهك].

ويعلّق القدِّيس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) على آية إشعياء النبي «هوذا السيد الرَّب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له ...» (إشعياء ٤٠: ١٠) قائلاً:

[لأن ربَّنا يسوع المسيح أظهر لنا أنه قوَّة الله وذراعه ذات السُّلطة أي التي لها القوة والسِّيادة[٧]].

• في ثلاثة أرباع متتالية (١٤، ١٥، ١٦) نسمع عن الرِّعدة والخوف التي تملكت سكان فلسطين وأدوم وموآب وكنعان حتى ذابوا رعباً، فما هي علاقة هذه الشُّعوب مع ولائها بآية عبور البحر الأحمر؟ عن ذلك الأمر يجيب العلاَّمة أوريجانوس فيقول:

[من وجهة نظر التَّاريخ، لم يسجِّل أن أحداً من هذه الشُّعوب كانت له علاقة بالآيات التي جرت. فكيف يذكر هنا أنهم هُزموا وصاروا في رعدة؟، أو أنهم أسرعوا في الهرب كما قيل؟ أو أن الرِّعدة أخذت سكان فلسطين وموآب وأدوم وبقية الشُّعوب التي ذُكرت؟

لكن إذا أقبلنا إلى المفهوم الرُّوحي نجد أن الفلسطينيين؛ أي الشعوب التي سقطت، والأدوميين؛ الذين يعني بهم الأرضيين، ارتعدوا وهرب أقوياؤهم مرتجفين هنا وهناك، وولّوا مثخنين بالجراح عندما أبصروا أن ممالكهم التي كانت في الجحيم قد اجتاحها ذاك الذي «نزل إلى أقسام الأرض السُّفلى» (أفسس ٤: ٩)، لكي ينتزع منها الذي أسرهم الموت. وهذا هو السَّبب الذي من أجله ارتعدوا

7- Letter 1, 13

وأخذهم الرِّجفة، لأنهم تحقَّقوا من عظمة ذراعه. وبسبب ذلك أيضاً ذاب قلب سكان كنعان. هؤلاء المتقلِّبون والمتغيرون - كما يعني اسمهم - عندما رأوا ممالك تزلزلت «ورُبط القوي ونُهبت أمتعته» (مت ١٢:٩)[٨].

وعندما يقترب الهوس من نهايته يعود فيستدرج من جديد بدايته، وكأنه ترنيمة متَّصلة لا ينقطع تسبيحها من أفواه لا تسكت وقلوب لا تهدأ عن شكر الرَّب وتمجيده. "فأخذت مريم النبيَّة أخت هرون الدُّف بيديها وخرج في إثرها جميع النِّسوة بالدُّفوف والتَّسابيح، وبدأت مريم في مقدِّمتهن تقول: فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد. الفرس وراكب الفرس طرحهما في البحر، فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد".

ويكتب القدِّيس جيروم (٣٤٢- ٤٢٠م) رسالة إرشاد لأرملة تُدعى فيوريا كرَّست حياتها لخدمة الرَّب يقول لها فيها:

[مثل مريم، أخذت دفها ورنَّمت مع صفوف العذارى "رنموا للرَّب فإنه قد تعظَّم، الفرس وراكبه طرحهما في البحر" فقد كانت تعلِّم صاحباتها أن يصرن عازفات موسيقى، ولكن عازفات للمسيح، وضاربات على العود، ولكن للمخلِّص. وكانت تقضي اللَّيل والنَّهار في هذا العمل، والزَّيت في آنيتها مستعد لكي تضعه في المصابيح استعداداً لمجيء العريس. فهل لكِ إذاً أن تتمثلي بقريبتك؟[٩]].

ويقول القدِّيس أمبروسيوس أيضاً في كتابه الموجَّه للعذارى:

[إن مريم بأخذها الدُّف قادت الرَّقص بتواضع واحتشام

8- Hom. *sur L'éxode*, vi, 8
9- Letter liv, 14

يليق بالعذارى، ولكن فلنتأمَّل الآن إلى من كانت تشير؟ أليست مثالاً للكنيسة، كعذراء عفيفة بلا دنس الرُّوح تشارك في اجتماعات الشَّعب الدينيَّة في إنشاد الترانيم الإلهية؟[١٠]].

حول المعاني الروحيَّة لتسبحة عبور البحر الأحمر

• المفاهيم الماسيَّانيَّة عن مجد الله الذي تحقق بخلاص الإنسان، ومفهوم الاختيار والاقتناء، ويد الله ويمينه وذراعه، وملكوت الله الأبدي، والفداء والميراث، نجد بذورها الأُوَّلى في تسبحة موسى عبد الرَّب، حيث انجلت صورتها في العهد الجديد. أما استعلانها الكامل فيكون في مجيء المسيح الثاني عندما يرث مباركي الله الملك المعد لهم منذ تأسيس العالم.

• إن مياه البحر الأحمر التي كانت سبباً في نجاة قوم صارت هي نفسها سبباً في هلاك آخرين، لكي يكون دائماً فضل القوَّة لله وحده الذي يخلِّص بالكثير وبالقليل.

فيقول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م):

[نحن نقرأ في الكتب المقدَّسة عن ترانيم كثيرة أُنشدت، ولكن أولها جميعاً هو هذا النَّشيد. فبعد غرق المصريين وفرعون، أنشد شعب الله نشيد الظَّفر. وهذا في الواقع هو عادة القدِّيسين الذين عندما ينهزم العدو أمامهم، فإنهم كأناس يعلمون أن النَّصر لم يحرزوه بقوَّتهم بل بنعمة الله، يقدِّمون لله تسبحة الحمد والشُّكر. ويأخذون معهم أيضاً

10- *Concerning Virgins*, book 1, chap. iii, 12

انظر: مجلة مرقس نوفمبر ١٩٩١م، ص ١١

الدُّف بأيديهم لكي يرنِّموا النَّشيد، مثلما فعلت مريم أخت موسى وهارون.

وأنت أيضاً إذا كنت قد عبرت البحر الأحمر ورأيت المصريين غارقين، وفرعون قد اختفى هابطاً إلى عمق الجحيم، يمكنك أن ترتل تسبحة للرَّب، ويمكنك أن تخبر بعمل النعمة قائلاً: **فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد**، الفرس وراكب الفرس طرحهما في البحر[١١].

موسى نفسه في هذه التَّسبحة يمثل المسيح، وفرعون وقوَّاته رمز للشيطان وقوَّاته. والمعموديَّة موت للإنسان القديم الذي رُمز إليه بشعب مصر، وقيامة للإنسان الجديد الذي رُمز إليه بشعب إسرائيل.

• تسبحة عبور البحر الأحمر هي تسبحة العبور من الهلاك إلى النَّجاة، ومن الموت إلى الحياة. وكما كان عبور الإسرائيليين البحر الأحمر رمزاً لمعمودية العهد الجديد، كما قال القدِّيس بولس الرَّسول أنهم اعتمدوا لموسى في البحر، هكذا ترنِّم الكنيسة كل يوم ترنيمة معموديتها وعبورها من أرض الهلاك إلى سيناء الحياة وبريَّة العالم ساعية في جهاد يؤمنه معموديَّة الماء والرُّوح برجاء البلوغ إلى أرض الرَّاحة، كنعان السَّمائية. وهناك سنظل نسبِّح إلى الأبد مع جوقة المنتصرين ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف حينما ننشدها أمام البحر البللوري بقيثارات الله، فأي فرح هذا سنكون فيه.

• هذه التَّسبحة اليوميَّة هي قصَّة كل نفس تعبر أيام هذه الحياة الزمنيَّة ساعية لبلوغ الحياة الأبديَّة. أما نقطة البداية في سعي هذه النَّفس

11- *Homélies Sur L'exode*, VI,1

فهي قيامة يسوع المسيح من بين الأموات. تلك التي اقتنيناها فينا بالمعموديَّة لمّا متنا بشبه موته فقمنا بقيامته. وهكذا بالمعموديَّة صرنا أبناء الله، ولنا ملكوت أبينا، ولكننا لم نبلغه بعد لأنه يلزمنا أولاً أن نعبر سيناء القاحلة، وبرية هذا العالم، برية التَّوبة، برية التَّجارب والآلام «بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أعمال ١٤:٢٢).

• وللقدِّيس مار أفرآم السِّرياني (٣٠٦- ٣٧٣م) تأمُّل آخر في الهوس الأوَّل فيقول:

[إن موسى أخذ بني إسرائيل من البحر الأحمر إلى برِّيَّة شور. البرِّيَّة موضع محال من سجس النَّاس، لأن هكذا يجب على المتعمِّد أن يعزل نفسه من كل أفعال الخطيَّة والأفعال التي تسبب الخطيَّة، ويصير كمن هو في التَّوبة منفرداً، لا يخالط النَّاس في أفعالهم التي توجب الخطيَّة].

وهكذا صار الهوس الأوَّل مدخلاً لهذا العبور من الأرض للسَّماء، وبداية رحلة كل نفس اعتمدت بالماء والرُّوح فأنشدت نشيد الخلاص الذي تحياه بالإيمان منذ الآن. فهو إذاً نشيد الخلاص الآتي الذي تردَّد صداه قبل مجيء المسيح بخمسة عشر قرناً. "يمينك يارب تمجَّدت بالقوَّة، بكثرة مجدك سحقت الذين يقاومونا، هديت شعبك بالحقيقة إلى موضع راحة قدسك. موضعك المقدس الذي أعددته يداك. **فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد**، الفرس وراكب الفرس طرحهما في البحر".

• يقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م):

[هل هناك شئ أعظم أهميَّة من عبور البحر الأحمر بالنسبة لشعب اليهود؟ ومع ذلك فاليهود الذين عبروا البحر ماتوا جميعاً في البرِّيَّة. ولكن عكس هذا تماماً ما

يحدث لمن يعبر خلال هذا الينبوع من الأرضيَّات وإلى السَّمائيَّات، فإنه بكل تأكيد فصح أي عبور. عبور من الخطيَّة إلى الحياة. فالذي يعبر خلال هذا الينبوع (المعموديَّة) لن يموت، بل يقوم أيضاً[١٢]].

ويكرِّر القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) نفس المعاني الروحيَّة السَّابق ذكرها فيقول:

[إنك تلاحظ أن المعموديَّة المقدَّسة قد سبق فأُعطي عنها مثال في عبور العبرانيين في البحر، فكما أنه قد هلك المصريون ونجا العبرانيون، فهكذا - في هذا السِّر - ليس هناك شئ يلزم أن نتذكَّره دائماً سوى أن فيه يُبتلع الإثم وتُمحى الخطيَّة، أما الفضيلة والبر فيبقيان بلا أذى[١٣]].

معنى تمجيد الله

يشرح القدِّيس مار أفرآم السِّرياني (٣٠٦- ٣٧٣م) قول النَّشيد "بالمجد قد تمجَّد" فيقول: إنه مثل قول الإنجيل المقدَّس عن الرَّب لما صُلب قال: إنه تمجَّد أي حين قهر الجبَّار (أي الشيطان) بالاتضاع والضَّعف. قهر من كان يظن في نفسه أنه حكيم. قال إنه تمجَّد، فالفرَس وراكب الفرَس ألقاهم في البحر، أعني الخطيَّة والشيطان راكبها، إذ غرَّقهم بموته في ماء المعموديَّة. لأنه لما مات من أجلنا نلنا بالإيمان به المعموديَّة التي بها تزول جميع الخطايا السَّالفة ونأخذ قوَّة

12- *De Sacramentis* 1, 12
13- *On the Holly Spirit*, book iii.

التَّوبة على كل الخطايا المستقبلة[١٤].

أما البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م)، ففي إحدى رسائله الفصحيَّة يشرح معنى تمجيد الله في الواقع الإنساني المعاش كمنهجه في التَّعليم دائماً، معتبراً أن قبولنا للضِّيقات والفرح بها هو بمثابة عبور للبَّحر الأحمر، أي أنه إن كان البحر الأحمر رمز للضِّيقات والأحزان، فإن فرحنا في الضِّيقات يعني عبورنا لها، وهذا القرح في حد ذاته هو تمجيد لله فيقول:

> [... ولكننا في فرحنا بالضِّيقات نخترق أتون الحديد المحمى بالنَّار، والظلمة المدلهمة، ونجتاز بغير أذى، عابرين ذلك البحر الأحمر الرَّهيب ... وهكذا ننشد مع موسى ذلك النَّشيد العظيم الذي سبَّح به قائلين: "فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد". وهكذا إذ نرنِّم التَّسابيح حاسبين الخطيَّة التي فينا قد طُرحت في البحر، نتقدَّم عابرين إلى البريَّة. وإذ نتطهَّر أولاً بصوم الأربعين، وبالصَّلوات والأصوام وضبط النَّفس والأعمال الصَّالحة، نستطيع أن نأكل الفصح المقدَّس في أورشليم السَّمائيَّة[١٥]].

الهوس الأوَّل في التَّسابيح الأخرى في الكنيسة القبطيَّة

الهوس الأوَّل هو نشيد قاله الشَّعب بقيادة مريم أخت موسى وهارون بإلهام روحي يفوق إدراك الشَّعب الذي سبَّح به، لذلك صارت تسبحة موافقة تماماً لكنيسة العهد الجديد.

١٤- مجلة مرقس مايو ١٩٩١م، ص ١٧

15- Easter 332, *Letter* VI, 5.

• هذه التَّسبحة التي تبتدئ بتمجيد الرَّب "فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد"، وتنتهي بتمجيده أيضاً، قد ألهمت مؤلِّف إبصاليَّة عيد النيروز أوَّل السَّنة الليتورجيَّة القبطيَّة، وأوَّل ترتيلة نسبِّح بها الرَّب في بدء السَّنة الجديدة، ألهمته أن يكون تمجيد الرَّب هو بدء تسبيحنا ومحوره.

فتبتدئ الإبصاليَّة الواطس بالقول: "تعالوا جميعاً لنمجِّد ملك الدُّهور، لأن المجد هو لإلهنا، المجد لكَ يا إلهنا". ويتكرَّر في كل ربع منها المرد "لأن المجد هو لإلهنا، المجد لكَ يا إلهنا". أما الإبصاليَّة الآدام فيأتي مردُّها في كل رُبع: "المجد لكَ هلليلويا، المجد لكَ يا الله".

• ومقدِّمة هذا الهوس الأوَّل وخاتمته هي نفسها نشيد عيد الخمسين (العنصرة) الذي يُقال باليونانيَّة ثم بالقبطيَّة ثم بالعربيَّة في أثناء التَّناول من الأسرار المقدَّسة. فنقول باليونانيَّة:

Ἀσωμεν τῷ Κυρίῳ, ἐνδόξως γὰρ δεδόξασται

(آسومين توكيريو، إنذوكسوس غار ديدوكساستي)

أي: "فلنسبح الرَّب، لأنه بالمجد قد تمجد".

ونقول بالقبطيَّة:

Ⲩⲁⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉⲡⲥ̅ ⲭⲉ ϩⲉⲛⲟⲩⲱⲟⲩ ⲅⲁⲣ ⲁⲥϭⲟⲟⲩ

أي: "فلنسبح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد".

• ومن نفس الهوس الأوَّل أيضاً (الرُّبع الثاني منه) أخذت الكنيسة تسبحتها الشَّهيرة في يوم الجمعة العظيمة حين نصلي قائلين: "قوَّتي وتسبحتي هو الرَّب وقد صار لي خلاصاً". وهذه التَّرجمة مأخوذة عن النَّص العبري واليوناني لهذه التَّسبحة، أما النَّص القبطي والذي ورد في الهوس الأوَّل فجاء: «معيني وساتري هو الرَّب وصار لي خلاصاً».

وجدير بالذكر أن داود النبي قد اقتبس من تسبحة عبور البحر

الأحمر نفس الفقرة السَّابقة في مزمور الأللي الكبير (مزمور ١١٨)، وذلك في قوله: «دُفعت لأسقط والرَّب عضدني. قوتي وتسبحتي هو الرَّب وقد صار لي خلاصاً» (مزمور ١١٨:١٤،١٣). وهو المزمور الذي يسبِّح به اليهود بعد أكل خروف الفصح تذكاراً لخروجهم من مصر. وهو نفسه الذي سبَّح به التَّلاميذ مع الرَّب يسوع ليلة آلامه[١٦].

إن قوة الله لا تُستعلن إلاَّ في الضَّعف «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي، لكي تحل عليَّ قوة المسيح» (٢كورنثوس ١٢:٩).

لُبش الهوس الأوَّل

بعد الهوس الأوَّل يقال "لُبش الهوس الأوَّل"، أي تفسيره. وهو يُقال باللَّحن، ويُسمى أيضاً "مديح آدام". ونصه هو:

- بالقطع انقطع ماء البحر، والعمق العميق صار مسلكاً.
- أرض غير ظاهرة أشرقت الشَّمس عليها، وطريق غير مسلوكة مشوا عليها.
- ماء منحل وقف بفعل عجيب معجز.
- فرعون ومراكبه غرقوا، وبنو إسرائيل عبروا البحر.
- وكان موسى النبي يسبِّح قدامهم حتى أدخلهم برية سيناء.
- وكانوا يسبِّحون الله بهذه التَّسبحة الجديدة قائلين: فلنسبِّح الرَّب لأنه بالمجد قد تمجَّد.
- بصلوات موسى رئيس الأنبياء يارب أنعم لنا بمغفرة خطايانا.
- بشفاعات والدة الإله القدِّيسة مريم، يارب أنعم لنا بمغفرة خطايانا.
- نسجد لك أيها المسيح مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُدُس لأنك أتيت وخلَّصتنا.

١٦- متى ٢٦:٣٠

وبهذا يكتمل نشيد الغلبة والخلاص بعد انفلاتنا من ربقة العدو، لكي نبدأ المسير في بريَّة هذا العالم، سيناء هذا الزَّمان الحاضر، سعياً إلى كنعان الزَّمان الآتي، كنعان السمائيَّة، موضع الرَّاحة الدَّائمة. وسعينا الحثيث إلى هناك مضمون لنا برحمة إلهنا، وهذا هو مدخل الهوس الثاني.

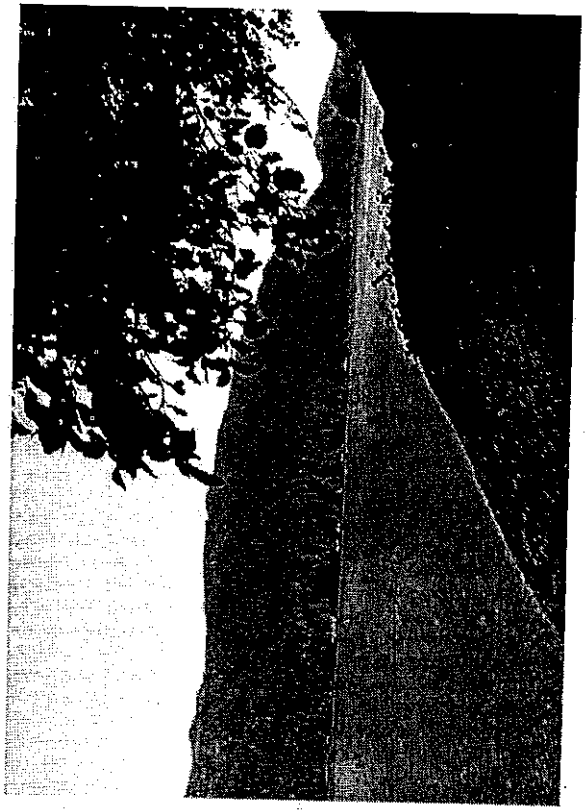

الفَصل السَّادس

الهـــوس الثَّـــاني

يارب
«أرنِّم بالغداة برحمتك»
(مزمور ٥٩:١٦)،
«فاشبعنا بالغداة من رحمتك»
(مزمور ٩٠:١٤).

البداية الطقسيَّة لترتيل الهوس الثَّاني

يقول ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في كتابه: "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة" وفي الباب السَّادس عشر، أن هذا الهوس يبدأ بعبارة "كيريااليسون" ثلاث مرات، ويقول الشَّعب بفم واحد ولفظ متوارد "ارحمنا يا الله الآب ضابط الكل، أيها الثَّالوث القدُّوس ارحمنا، أيها الرَّب إله القوَّات كن معنا ..." ثم أبانا الذي في السَّموات ...

وهذه المقدِّمة التي يذكر ابن كبر أن الشَّعب هو الذي يقولها، لا يردِّدها الآن سوى الكاهن فقط. وفي أحيان أخرى يردِّدها الكاهن سراً دون أن يسمعها الشَّعب، وهذا أمر يلزم تداركه.

فكل هوس من الهوسات الأربعة يبدأ بالبداية الطقسيَّة لأي صلاة ليتورجيَّة. ولكن من الثابت في كثير من الكنائس الآن أن مقدِّمة الثلاثة هوسات الأولى تبدأ بـ "آمين هلليلويا كيرياليسون كيرياليسون

كيريالِيسون"، أما الهوس الرَّابع فهو وحده الذي يبدأ البداية الطقسيَّة لأي صلاة ليتورجيَّة، وذلك بقول الكاهن: "إليسون إيماس ..." أي "ارحمنا يا الله الآب ..." كما سبق ذكره ثم الصَّلاة الرَّبيسة، ثم "آمين هلليلويا كيريالِيسون (ثلاث مرات)".

التَّرجمة العربيَّة للنَّص القبطي للمزمور (١٣٥)

- اشكروا[١] الرَّب لأنه صالح وخيِّر[٢]، هلليلويا[٣]، لأن رحمته كائنة إلى الأبد[٤].
- اشكروا إله الآلهة، هلليلويا، لأن رحمته كائنة إلى الأبد.
- اشكروا ربَّ الأرباب، هلليلويا، لأن رحمته كائنة إلى الأبد.
- الصَّانع العجائب العظام وحده، هلليلويا، لأن رحمته كائنة إلى الأبد.
- الذي خلق السَّموات بفهم، هلليلويا، لأن رحمته كائنة إلى الأبد.
- الذي ثبَّت الأرض على المياه، هلليلويا، لأن رحمته كائنة إلى الأبد.
- الذي خلق نيرين عظيمين، هلليلويا، لأن ...
- الشَّمس لسُلطان النهار، هلليلويا، لأن ...
- القمر والنُّجوم[٥] لسلطان اللَّيل، هلليلويا، لأن ...
- الذي ضرب المصريين مع أبكارهم، هلليلويا، لأن ...

١- الفعل القبطي ⲟⲩⲱⲛϩ يعني: يشكر- يمدح - يعترف. لذلك جاء في بداية الهوس "اشكروا"، وجاء في نهايته "اعترفوا"، ويجئ في الترجمة البيروتية "احمدوا".

٢- يبدأ هذا المزمور بحسب الترجمة القبطية بالآية: «اشكروا الرَّب لأنه صالح ⲟⲩⲭⲣⲏⲥⲧⲟⲥ (إخريستوس) وخيِّر ⲟⲩⲁⲅⲁⲑⲟⲥ (أغاثوس)، لأن ...»، ولكنه يبدأ في الترجمة السبعينية هكذا: «اشكروا الرَّب لأنه صالح ἀγαθός (أغاثوس) لأن ... »، وهو نفس ما تذكره الترجمة العبرية. لذلك فالترجمة القبطية قد أضافت كلمة "وخيِّر".

٣- "هلليلويا" كمرد يتكرر مع كل ربع لا يوجد سوى في النص القبطي للمزمور.

٤- "لأن رحمته كائنة إلى الأبد" هي الترجمة الحرفية للنص القبطي، ويمكن أن تأتي أيضاً "لأن إلى الأبد رحمته" كما في النص العبري.

٥- في النَّص العبري: "الكواكب".

- وأخرج إسرائيل من وسطهم، هلليلويا، لأن ...
- بيد عزيزة وذراع عالية، هلليلويا، لأن ...
- الذي شقَّ البحر الأحمر إلى أقسام، هلليلويا، لأن ...
- وأجاز إسرائيل في وسطه، هلليلويا، لأن ...
- وطرح فرعون وكل قوته في البحر الأحمر، هلليلويا، لأن ...
- الذي أخرج شعبه في البرية[٦]، هلليلويا، لأن ...
- الذي أخرج ماءً من صخرة صمَّاء[٧]، هلليلويا، لأن ...
- الذي ضرب ملوكاً عظماء، هلليلويا، لأن ...
- وقتل ملوكاً عجيبين، هلليلويا، لأن ...
- سيحون ملك الأموريين، هلليلويا، لأن ...
- وعوج ملك باشان، هلليلويا، لأن ...
- أعطى أرضهم ميراثاً، هلليلويا، لأن ...
- ميراثاً لعبده إسرائيل، هلليلويا، لأن ...
- في تواضعنا ذكرنا الرَّب، هلليلويا، لأن ...
- وخلَّصنا من أيدي أعدائنا، هلليلويا، لأن ...
- الذي يعطي طعاماً لكل جسد حي، هلليلويا، لأن ...
- اعترفوا لإله السَّماء، هلليلويا، لأن ...
- اعترفوا لرب الأرباب، لأنه طيِّب، وصالح[٨]، هلليلويا، لأن ...

لقد وضعتُ نص الهوس الثَّاني منذ البداية أمام القارئ المبارَك ليرى بنفسه مقدار الحبك والإلهام الرُّوحيين في وضع هذا المزمور (١٣٥) أي الهوس الثَّاني تالياً مباشرة للهوس الأوَّل. فالهوس الأوَّل هو تسبيح مجد الرَّب الذي عبَّر شعبه مياه البحر ليدخلهم سيناء، وهو ترنيمة تروي أحداث القصة وتفصيلاتها. أما الهوس الثاني فيأتي امتداداً طبيعياً لمسيرة

٦- في النَّص العبري: "الذي سار بشعبه في البرية".
٧- هذا الربع الذي أوردته الترجمة القبطية لم يرد في النص العبري.
٨- هذا الرُّبع أيضاً لم يرد سوى في الترجمة القبطية للمزمور.

الشَّعب في سيناء، لأنه ترنيمة شكر لمراحم الرَّب الذي يقود شعبه في بريَّة سيناء، يسقيهم من صخرة، ويطعمهم خبز الملائكة، وينير الطَّريق أمامهم ليلاً بعامود من نار، ويظلِّل عليهم من حر النَّهار بعامود سحاب، ويحامي عنهم في كل الطريق الذي سلكوه ليوصِّلهم إلى أرض كنعان.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فهذا المزمور ومعه المزمور ١٠٦[٩] كان يُرتَّل في الهيكل (هيكل أورشليم) بعد العودة من السَّبي، أي أصبح ترنيمة الحمد لمراحم الرَّب التي أعادت شعبه من أرض العبوديَّة مرَّة أخرى. بل أصبح هذا المزمور عينه أداة واضحة تفسِّر لنا تطوُّر الغناء في المعبد اليهودي وطقوس الجماعة اليهودية بعد السَّبي[١٠].

ومن العجيب حقاً أن هذا المزمور عينه كان أوَّل تسبيح يُنشَد في هيكل سليمان العظيم الذي بناه في أورشليم. «وكان لما صوَّت المبوقون والمغنُّون كواحد، صوتاً واحداً لتسبيح الرَّب وحمده، ورفعوا صوتاً بالأبواق والصُّنوج وآلات الغناء والتَّسبيح للرَّب، لأنه صالح لأنَّ إلى الأبد رحمته ...» (٢أيام ٥:١٣، ١٤). فهو تسبيح تردِّده كل جماعة الكهنة واللاويين الذين يقفون أمام المذبح بالأبواق والصُّنوج وآلات الغناء التي تختلط أصواتها بأصوات المغنين حتى ملأ مجد الرَّب بيته، ورأى الجميع مجده، إذ امتلأ بيت الله سحاباً فلم يستطع الكهنة أن يقفوا ليكملوا الخدمة، لأن مجد الرَّب ملأ بيت الله.

فهو إذاً مزمور تسبيحهم بعد وصولهم إلى كنعان بعد أن عبروا بريَّة سيناء، وهو ذاته مزمور تسبيحهم بعد عودتهم مرَّة أخرى إلى هيكلهم في أورشليم. فهو إذاً تسبيح النَّفس التي بلغت أرض راحتها، فلا تجد أمامها

٩- أرقام المزامير التي سيرد ذكرها هي بحسب الترجمة السبعينيَّة ما لم يرد غير ذلك.

١٠- دكتور فؤاد حسنين علي، التوراة الهيروغليفية، ص ١٣٦

سوى شكر مراحم الرَّب وإحساناته.

وهذا هو عينه مزمور التَّسبيح الذي لازال يُنشد في الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم، في كل يوم جديد، تسبيحاً وتهليلاً وشكراً لمراحم إلهنا لأنه صالح ولأن إلى الأبد رحمته. «بالنَّهار يوصي الرَّب رحمته، وبالليل تسبيحه. عندي صلاة لإله حياتي» (مزمور ٤٢:٨). والذي يسبِّح رحمة الرَّب يسكب الرَّب عليه مجده كقول المزمور «أعط مجداً من أجل رحمتك» (مزمور ١١٥:١). والقدِّيس بولس يقول عن الأمم الذين نحن منهم أن تمجيدهم وتسبيحهم لله كان ولازال لسبب رحمة الرَّب لهم لعتقهم من عبوديَّة الشيطان والعالم ليصيروا أولاد الله «وأما الأمم فمجَّدوا الله من أجل الرَّحمة، كما هو مكتوب من أجل ذلك سأحمدك في الأمم وأرتِّل لاسمك» (رومية ١٥:٩). لأنه إن غمرتنا رحمة الرَّب مع كل يوم جديد فلن يعوزنا شئ، لأن رحمة الرَّب لنا هي أفضل من الحياة نفسها[١١]، لذلك يلهج لساني كل يوم قائلاً: فلتأتني مراحمك فأحيا[١٢]، لأنك يارب تعود فترحمنا وتدوس آثامنا وتطرح في أعماق البحر جميع خطايانا[١٣].

هذا هو السَّبب الذي لأجله اختارت الكنيسة القبطيَّة هذا المزمور دون غيره ليعقب مباشرة تسبحة عبور البحر الأحمر وتسبيح مراحم الرَّب الذي يعول النَّفس في بريَّة هذا العالم، ولاسيَّما أن هناك مزامير أخرى تبدأ بنفس البداية «احمدوا الرَّب لأنه صالح، لأن إلى الأبد رحمته[١٤]». وكما سبق أن ذكرنا فإن المزمور ١٣٥ في السبعينية (١٣٦ في العبريـة) محسوب أيضاً ضمن عناصر تسبحة السَّهَر الكاتدرائيَّة البيزنطيَّة.

١١- مزمور ٦٣:٣
١٢- مزمور ١١٩:٧٧
١٣- انظر: ميخا ٧:١٩
١٤- مزمور ١٠٦، ١٠٧، ١١٨، ١٣٦ حسب الترجمة العبريَّة.

الهوس الثاني هو تسبحة شكر تمتد لتشمل في مضمونها اعتراف برحمة الرَّب التي ظهرت ابتداءً من الخلق وعبوراً بالخلاص، وانتهاء بالميراث. حيث احتل عبور البحر الأحمر - وللمرَّة الثانية - محور التَّسبيح والشُّكر كأعظم خلاص قدمه الرَّب لشعبه في العهد القديم، وامتد التَّسبيح والشُّكر والاعتراف برحمة الرَّب ليذكر أرض الميراث التي صارت - تحقيقاً لوعد الرَّب الصَّادق - موضع راحة لمفديِّ الرَّب.

فعن الخلق يقدِّم المزمور شكراً وحمداً لإله الآلهة، ورب الأرباب، الذي صنع العجائب وحده، وخلق السَّموات، وثبَّت الأرض على المياه، وخلق الشَّمس لحكم النَّهار، والقمر والنُّجوم لحكم اللَّيل، لأن إلى الأبد رحمته.

وعن الخلاص: شكرٌ وحمدٌ للذي ضرب أبكار المصريين، وأخرج إسرائيل من وسطهم بيد عزيزة وذراع عالية، وشق لهم البحر الأحمر، وأجاز إسرائيل في وسطه، وطرح فرعون وكل قوَّته في البحر الأحمر، وأخرج شعبه إلى البريَّة، وأنبع لهم ماءً من صخرة، وضرب ملوكاً عظماء، لأن إلى الأبد رحمته.

أما عن الميراث: فشكرٌ وحمدٌ للذي أعطى لإسرائيل أرض أعدائهم ميراثاً، حيث يختتم المزمور تسبيحه بقوله: "في تواضعنا ذكرنا الرَّب. هللويا، لأن إلى الأبد رحمته".

وهكذا ترى الكنيسة بالإيمان أنها تنشد تسبحة شكر وحمد لخلاص تحقَّق في ملء الزَّمان ليس بعبور بحر أحمر بل بعبور بحر الجحيم، وليس بعصا موسى، بل بصليب المسيح، ولميراث ليس لكنعان أرضيَّة بل ميراث محفوظ للكنيسة في السَّماء، سبق فوعد به الرَّب قطيعه الصغير: «لا تخف أيها القطيع الصغير، لأن أباكم قد سُرَّ

أن يعطيكم الملكوت» (لوقا ١٢:٣٢).

ومن هذا نرى أن التَّسبحة اليوميَّة في الكنيسة هي قصة نفس تحيا يومها بالإيمان، إيمان بمن خلق العالم لأجلها برحمته. وإيمان بمن خلّصها من أعدائها برحمته، وسيخلّص أيضاً إلى التَّمام. وإيمان بمن أعدَّ لها ميراث الملكوت برحمته.

إن تسبيح رحمة الرَّب هو تسبيح كل عمل الخلاص الذي أكمله الرَّب فينا، لأنه بمقتضى رحمته خلّصنا[١٥].

لبش الهوس الثاني

أي تفسير الهوس الثاني هو مديح آدام يُقال باللّحن أيضاً. ويبدأ بقوله: "فلنشكر المسيح إلهنا مع المرتِّل داود النَّبي ..." ويعدِّد أسباب هذا الشُّكر فيقول: "لأنه خلق السَّموات وكل جنودها، وأسَّس الأرض على المياه. وجعل الشَّمس والقمر ينيران في الفلك، وأزهر الأشجار، وأمطر على الأرض حتى أنبتت، وأعطت ثمرها. وصنع الإنسان كشبهه وصورته لكي يباركه. فلنسبِّحه ونرفع اسمه ونشكره لأن رحمته كائنة إلى الأبد".

وهكذا قدَّم لبش الهوس الثاني أفعال الخلق دون أن يتعرَّض لما تعرَّض له الهوس الثاني نفسه من أفعال الخلاص والميراث.

ولكن هل يمكن أن تحظى النَّفس بالملكوت، وهي في نشوة تسبيحها وشكرها لمراحم الرَّب دون أن تجتاز ضيقات وأحزان بريَّة هذا العالم؟ الإنجيل نفسه يجيب بقوله: «بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أعمال ١٤:٢٢) وهذا هو محور الهوس الثالث.

١٥- تيطس ٣:٥

الفَصل السَّابع

الهـــوس الثَّـــالث

تمهيد

الهوس الثالث هو تسبحة الثلاثة فتية القدّيسين في أتون النّار المتّقد، والذي ارتفع لهيبه تسعة وأربعون ذراعاً. وكان كلما ارتفع لهيب الأتون كان يرتفع بازدياد معه تسبيح الفتية القدّيسين "مباركٌ[1] أنت أيها الرَّب إله آبائنا، ومتزايد بركة، ومتزايد علواً إلى الآباد".

كان سر تسبيحهم هو أن ابن الله حلّ بينهم، فحوّل نيران الألم وتجارب الحياة ندى لطيفاً تجلى به الفتية فوق الألم، فانطلق لسانهم بلا تكلّف ينشد تسبحة الخليقة كلها. لم ينقذهم الرَّب من الأتون بأن أخرجهم من بين نيرانه أو أطفأ لهيبه، بل حلّ هو بنفسه بينهم في وسط النيران. فالنيران مشتعلة ولهيبها بلغ عنان السَّماء، والفتية في داخل هذا الأتون المتّقد، هذا هو المنظر الذي يراه كل النَّاس في حياة أولاد الله الذين يتألمون من أجل اسمه، ولكن ما لا يراه أو يحسه سوى أولاد الله أن الرَّب بنفسه يحل بين بنيه في وسط هذه التّجارب العاتية فيحولها ندى بارداً، ونسيماً عليلاً، وسبب نجاة وخلاص!. هذا هو سر الألم في المسيحيَّة، والذي هو بعينه سر الصَّليب فيها.

١- الكلمة اللاتينيَّة التي يُعرف بها هذا التَّسبيح هي Benedicite أي "مبارك"، وهي الكلمة الأولى من هذه التَّسبحة. فهي المصطلح الكنسي العام الذي تُعرف به هذه التَّسبحة في المراجع الغربية.

إذاً هي ليست قصَّة في العهد القديم، لكنها حياة كـل إنسـان يعيش أيامه يوماً بيوم ساعياً نحو الملكوت. فهذه التَّسبحة هي سـر الصَّليب ومجد القيامة معاً، أحزان الأرض وتعزيات السَّماء معاً، أتون الضِّيقة وخلاص الله في آن. «في كل ضيقهم تضايق، وملاك حضرته خلَّصهم» (إشعياء ٦٣:٩).

والكنيسة وهي تعبر بريَّة هذا العالم بنيران تجارب متنوِّعة، ساعية نحو أرض الرَّاحة (الطوس الثالث)، وقد اعتمدت أولاً بمياه المعموديَّة (الطـوس الأول)، واختبرت عناية الرَّب بها وحراسته لها طيلة غربتها على الأرض (الطوس الثاني)، فإن لسان حالها يقول: «جزنا في النَّار والماء وأخرجتنـا إلى الرَّاحة» (مزمور ٦٥:١١ سبعينية). وهي في عبورها إلى موطنها الباقي تهتف بالمخلوقات كلها واحداً فواحداً ليشاركها تسبيح الرَّب؛ "سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الأبد"، كاستعلان مسبق للخليقة الجديدة بسمائها الجديدة وأرضها الجديدة.

تسبحة الثلاثة فتية هي تسبحة الكنيسة كلها

تحتل هذه التَّسبحة مكاناً هاماً في الكنيسة الشَّرقيَّة خصوصاً منـذ عصور مبكِّرة، كما احتلت تسبحة عبور البحر الأحمر نفس الأهميَّة فيها. وعن تسبحة الثلاثة فتية في أتون النَّار يقول روفينوس (+٤٠٦م) المؤرِّخ المشهور: "هي تسبحة يرتِّلها المسيحيُّون في كل العالم[٢]".

ففي الشَّرق المسيحي، تعرفها كل الكنائس الشَّرقيَّة، ولكنها سقطت من طقس الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة، برغم أنها لازالـت معروفـة في

2- ODCC., (2nd edition), p. 153.

الطَّقس الماروني. أما الفرع الشَّرقي للطقس السرياني الأنطاكي - طقس تكريت - فيعرفها في صلاة الصَّباح في زمن الصَّوم.

وتتَّفق الكنيستان القبطيَّة واليونانيَّة على استخدام تسبحة الثلاثة فتية في التَّسبحة اليوميَّة، وفي ليلة سبت الفرح. ففي التَّسبحة اليوميَّة تسبِّح الكنيسة القبطيَّة تسبحة الثلاثة فتية في تسبحة نصف اللَّيل، بينما تسبِّح بها الكنيسة اليونانيَّة في تسبحة السَّحَر. أما في ليلة سبت الفرح فتسبِّح بها الكنيسة القبطيَّة قبل سَحَرَ ذلك اليوم، وتسبح بها الكنيسة اليونانيَّة في غروبه.

وهي تسبحة معروفة أيضاً في الطَّقس الكلداني (الطَّقس الآشوري أو الطَّقس النَّسطوري)، وهو الطَّقس الشَّرقي الوحيد الذي يضع تسبحة الثلاثة فتية بعد مزامير الصَّباح. وهو بذلك يتلاقى وتقليد البابا أثناسيوس الرَّسولي المذكور في مقالته "في البتوليَّة"، والتي سبق الإشارة إليها.

وتسبحة الثلاثة فتية هي النَّشيد الصَّباحي للأعياد في الطَّقسين الكلداني والماروني دون أن يرافقه رفع بخور. وتحل هذه التَّسبحة في الأعياد محل المزمور الخمسين "ارحمني يا الله كعظيم رحمتك ..." في الطقوس الكلدانية والمارونية والطَّقس الأمبروزي في ميلانو.

وفي الغرب المسيحي؛ تُعرف هذه التَّسبحة في الطَّقس اللاتيني، فتُرتَّل في طقس أسبانيا وبلاد الغال قبل رسالة البولس في كل قدَّاس طبقاً لقانون سنَّه مجمع توليدو Toledo سنة ٦٣٣م. وفي كنيسة روما تُصلَّى هذه التَّسبحة في صلاة السَّحَر في بعض الآحاد والأعياد الكنسيَّة.

أقدم إشارة عن الهوس الثالث في الكنيسة القبطيَّة

وتحظى تسبحة الثلاثة فتية في أتون النَّار في طقس الكنيسة القبطيَّة بمساحة عريضة في تسبحة نصف اللَّيل، ومن بين أقدم الإشارات التي نعرفها عنها في كنيسة الإسكندريَّة هو ما ورد بخصوصها في سيرة القدِّيس أنبا يحنس كاما (النِّصف الأوَّل من القرن التاسع الميلادي)، عندما بنى ديراً سُميَ على اسمه فيما بعد، وهو المعروف الآن بدير السيِّدة العذراء السِّريان، حيث تقول السِّيرة: "... وظهر له (أي للقدِّيس يحنس كاما) مرَّة القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي وقت تسبحة الثلاثة فتية، وعرَّفه بأسرار كثيرة ...".

حول نص الهوس الثالث

الهوس الثالث في نصه القبطي البحيري كما هو مدوَّن في الأبصلموديَّة المقدَّسة السنويَّة - أو الكيهكيَّة - يحوي أربعين ربعاً. الستَّة أرباع الأولى منها بقرار: "متزايد بركة ومتزايد علواً إلى الآباد"، وباقي الأرباع مردُّها هو: "سبِّحيه وزيديه علواً إلى الآباد".

وهذا النَّص القبطي البحيري ورد أيضاً في مؤلَّف روفائيل الطوخي الذي طبعه في روما سنة ١٧٦٤م (ص ٣٤ - ٣٨) بعنوان:

ⲡⲓⲭⲱⲙ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲑⲉⲟⲧⲟⲕⲓⲁ ⲛⲉⲙ ⲕⲁⲧⲁ ⲧⲁⲍⲓⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲁⲃⲟⲧ ϫⲟⲓⲁⲕ

أي "كتاب التاودوكيَّات وكترتيب شهر كيهك".

وطُبع النَّص أيضاً قبل ذلك بعشرين سنة في روما أي في سنة

١٧٤٤م، في مؤلَّف آخر للطُّوخي بعنوان: "كتاب المزامير والتسابيح[٣]".

وقام أقلاديوس بك لبيب بطباعة نص هذه التَّسبحة لأوَّل مـرَّة في القاهرة في كتاب: "المزامير والتَّسابيح" نشره سنة ١٦١٣ش/ ١٨٩٧م[٤].

ثم طُبع النَّص سنة ١٩٠٨م، في كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السنويَّة والذي صدر في كل من القاهرة والإسكندرية في نفس السَّنة المـذكورة، الأوَّل بهمة وعلى نفقة أقلاديوس بك لبيب، والثاني على نفقة القس مينا البرموسي وكيل بطريركيَّة الإسكندريَّة.

ثم طُبع مرة أخرى في الأبصلموديَّة المقدَّسة الكيهكيَّة التي أصـدرها أقلاديوس بك لبيب في القاهرة سنة ١٩١١م.

أما النَّص القبطي الصعيدي الكامل للهوس الثالث حاويـاً السِّـتة أرباع الأولى فيوجد في المجلد الثالث عشر من مجموعة مرجان[٥]. ومـن الثَّابت أن النَّص القبطي الصعيدي أقدم من النَّص القبطي البحيري، ولا يوجد نص ليتورجي قبطي باللَّهجة القبطيَّة الصعيديَّة يعود تاريخه إلى ما بعد القرن التاسع الميلادي.

وكانت أجزاء من هذه التَّسبحة قد طُبعت باللغة الألمانيَّة في برلين في مطلع القرن العشرين. وبالتَّحديد في سنة ١٩٠٤م[٦].

أما النَّص اليوناني للهوس الثالث فقد طُبع منه اثنا عشـر ربعـاً في نيويورك سنة ١٩٢٦م، بواسطة العالم كرام Crum . ثم طبع منه خمسـة

3- R. Tuki, *Psalter and Odes*, Rome 1744, p. 478 – 484.

4- Labib, *Psalter and Odes*, Cairo, A. M. 1613, p. 51 – 54.

5- Morgan Collection, t. XIII, Ms. 574, foll. 66r - 67r.

6- Aegyptische Urkunden der Koeniglichen Mussen zu Berlin, Berlin 1904, p. 167 – 168.

أرباع في روما سنة ١٩٣٩م.

السِّتة أرباع الأولى من الهوس الثالث

نص الأرباع السِّتة الأولى كما وردت في الأبصلمودِيَّة المطبوعة التي بين أيدينا هي:

- مباركٌ أنت أيها الرَّب إله آبائنا ومتزايد بركة ومتزايد علواً إلى الآباد.
- مباركٌ اسم مجدك القدُّوس، ومتزايد بركة ومتزايد علواً إلى الآباد.
- مباركٌ أنت في هيكل مجدك المقدس ومتزايد ...
- مباركٌ أنت أيها الناظر إلى الأعماق الجالس على الشَّاروبيم، ومتزايد ...
- مباركٌ أنت على عرش ملكك، ومتزايد ...
- مباركٌ أنت في فلك السَّماء، ومتزايد ...

ولكن الأرباع السِّتة الأولى للهوس الثالث في نصها اليوناني لم تحمل نفس كلمات القرار في نصه القبطي وهو "متزايد بركة، ومتزايد علـواً إلى الآباد"، بل جاء القرار في اليونانيَّة متغيراً لكل ربع على حدة، وهذه الأرباع السِّتة هي:

الرُّبع الأوَّل:

Εὐλογητὸς εἶ Κύριε ὁ Θεὸς τῶν πατέρων ἡμῶν, καὶ αἰνετὸς καὶ ὑπερυψούμενος εἰς τοὺς αἰῶνας.

"مباركٌ أنت يارب إله آبائنا، ومُسبَّح وفوق المتعالي إلى الآباد".

الرُّبع الثَّاني:

Εὐλογημένον τὸ ὄνομα τῆς δόξης σου τὸ ἅγιον καὶ ὑπεραινετὸν καὶ ὑπερυψούμενον εἰς πάντας τοὺς αἰῶνας.

"مباركٌ اسم مجدك القدُّوس، وفوق المسبَّح، وفوق المتعالي إلى الآباد".

الرُّبع الثَّالث:

Εὐλογημένος εἶ ἐν τῷ ναῷ τῆς ἁγίας δόξης σου, καὶ ὑπερυμνητὸς καὶ ὑπερένδοξος εἰς τοὺς αἰῶνας.

"مباركٌ أنت في هيكل مجدك القدُّوس، وفوق المسبَّح، وفوق المجَّد إلى الآباد".

الرُّبع الرَّابع:

Εὐλογημένος εἶ ὁ ἐπιβλέπων ἀβύσσους καθήμενος ἐπί χερουβίμ, καὶ αἰνετος καὶ ὑπερυψούμενος εἰς τοὺς αἰῶνας.

"مباركٌ أنت أيها النَّاظر إلى الأعماق، الجالس على الشَّاروبيم، ومسبَّح، وفوق المتعالي إلى الآباد".

الرُّبع الخَامس:

Εὐλογημένος εἶ ἐπὶ Θρόνου τῆς Βασιλείας σου καὶ ὑπερυμνητὸς καὶ ὑπερυψωμένος εἰς τοὺς αἰῶνας.

"مباركٌ أنت على عرش ملكك، وفوق المسبَّح وفوق المتعالي إلى الآباد".

الرُّبع السَّادس:

Εὐλογητὸς εἶ ἐν τῷ στερεώματι τοῦ οὐρανοῦ καὶ ὑμνητὸς καὶ δεδοξασμένος εἰς τοὺς αἰῶνας.

"مباركٌ أنت في جَلَد السَّماء، ومسبَّح وممجَّد إلى الآباد".

أما المخطوط رقم (٥ طقس) بكنيسة أبي سرجة بمصر القديمة، والذي يعود تاريخ نساخته إلى يوم الجمعة الخامسة من الصَّوم المقدَّس ٢٥ برمهات سنة ١٠٥٩ش (١٣٤٣م)، وهو المعنون بالقبطيَّة والعربيَّة

بعنوان: "التَّسابيح التي تُقرأ في سبت الفرح"، وناسخه هو يوحنا بن أبي اسحق المعروف بالدمياطي، فقد أورد ترجمة هذه السِّتة أربـاع الأولى بالعربيَّة مقابل القبطيَّة هكذا (بنصه):

(١) تباركت ايها الرَّب الاه ابائنا وافضل مسبح وافضل معلا الى الابد.
(٢) مبارك اسم مجده القدوس وفوق المسبح وفوق المتعالي الى الابد.
(٣) تباركت في هيكل مجدك القدوس وفوق المسبح وفوق المتعـالي الى الابد.
(٤) تباركت يا ناظر الاعماق وانت جالسا على الشاروبيم وفـوق المسبح وفوق المتعالي.
(٥) تباركت على كرسي مملكتك وافضل مبارك وافضل معلى الى الدهر.
(٦) مبارك انت في فلك السما وفوق المسبح وفوق المتعالي الى الابد[٧].

باقي الأرباع الأربعة والثلاثون

ثم تأتي باقي الأرباع ذات المرد الآخر، وهو: "سبِّحيه وزيديه علواً إلى الآباد". وفيما يلي نورد نص هذه الأرباع متتابعة بعد التغاضي عن

7- Yassa Abd Al - Masih, *The Hymn of the Three Children in the Furnace*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 12, 1946 - 1947, p. 1 – 15.

المرد الذي يعقب نهاية كل ربع، وهو ما سبق الإشارة إليه للتو، وكذلك عن البادئة التي هي: "باركي الرَّب يا ..."، أو "باركا الرَّب يا ..."، أو "باركوا الرَّب يا (أو أيها أو أيتها) ...".

(٧) جميع أعمال الرَّب.
(٨) السَّموات.
(٩) جميع ملائكة الرَّب.
(١٠) جميع المياه التي فوق السَّماء.
(١١) جميع قوَّات الرَّب.
(١٢) الشَّمس والقمر.
(١٣) سائر نجوم السَّماء.
(١٤) الأمطار مع الأنداء.
(١٥) السُّحُب والرِّياح.
(١٦) جميع الأرواح.
(١٧) النَّار والحرارة.
(١٨) البرد والحر.
(١٩) الأهوية والأنداء.
(٢٠) اللَّيالي والأيَّام.
(٢١) النُّور والظلمة.
(٢٢) البَرَد والصَّقيع.
(٢٣) الجليد والثلج.
(٢٤) البروق والسُّحُب.
(٢٥) الأرض كلها.
(٢٦) الجبال وجميع الآكام.
(٢٧) جميع ما ينبت على وجه الأرض.
(٢٨) الينابيع.
(٢٩) البحار والأنهار.
(٣٠) الحيتان وجميع ما يتحرَّك في المياه.
(٣١) جميع طيور السَّماء.
(٣٢) الوحوش وكل البهائم.
(٣٣) بني البشر واسجدوا للرَّب.
(٣٤) إسرائيل.
(٣٥) كهنة الرَّب.
(٣٦) عبيد الرَّب.
(٣٧) أرواح وأنفس الصدِّيقين.
(٣٨) القدِّيسون والمتواضعون.
(٣٩) حنانيا وعزاريا وميصائيل.
(٤٠) عابدي الرَّب إله آبائنا. سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد".

والرُّبع السَّابع والذي نصه: "**باركي الرَّب يا جميع أعمال الرَّب، سبِّحيه وزيديه علواً إلى الآباد**" يكون هو نفسه بكامله قراراً لكل ثلاثة

أرباع من الهوس في تسبيح سَحَر سبت الفرح في الكنيسة القبطيَّة حيث يُرتَّل باليونانيَّة حتى يومنا هذا.

ونص هذا الرُّبع باليونانيَّة كما نصلِّيه حتى اليوم هو:

Εὐλογεῖτε πάντα τὰ ἔργα Κυριοῦ τὸν Κύριον, ὑμνεῖτε καὶ ὑπερψοῦτε αὐτὸν εἰς τοὺς αἰῶνας. Ἄμην.

أما ترجمته إلى القبطيَّة بنفس نطقه اليوناني كما نصليه فهو:

Ⲉⲩⲗⲟⲅⲉⲓⲧⲉ ⲡⲁⲛⲧⲁ ⲧⲁ ⲉⲣⲅⲁ Ⲕⲩⲣⲓⲟⲩ ⲧⲟⲛ Ⲕⲩⲣⲓⲟⲛ ⲩⲙⲛⲉⲓⲧⲉ ⲕⲁⲓ ⲩⲡⲉⲣⲯⲟⲩⲧⲉ ⲁⲩⲧⲟⲛ ⲉⲓⲥ ⲧⲟⲩⲥ ⲉⲓⲱⲛⲁⲥ. Ⲁⲙⲏⲛ.

"إفلوجيتي بانتا تاإرجا كيريُّو تون كيريُّون هيمنيتي كي هيبيرإبسوتي آفتون إيس توس إي أوناس آمين".

ولستُ أريد الدخول في دراسة مقارنة لنص أرباع الهوس الثالث بالقبطيَّة البحيريَّة والقبطيَّة الصعيديَّة واليونانيَّة، فهو عمل متخصِّص جداً، لن يفيد كثيراً عموم القارئين الأعزاء، حيث يمكن لمن يرغب منهم في مزيد من البحث الرُّجوع في ذلك إلى الدِّراسة التي قام بها العالم الطِّقسي التقي الأستاذ يسى عبد المسيح (١٨٩٨- ١٩٥٩م) في مجلة جمعية الآثار القبطية Bulletin de la Société d'Archéologie Copte المجلد الثاني عشر (١٩٤٦ - ١٩٤٧م)، والمعروفة اختصاراً باسم BSAC والتي طُبعت في مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشَّرقيَّة بالقاهرة سنة ١٩٤٩م.

ولكنني في السُّطور التالية سأنوِّه فقط إلى أهم الفروق بين هذه النصوص الثلاثة على سبيل المثال لا الحصر.

• القرار في النَّص القبطي البحيري للأرباع هو **ⲉⲱⲥ ⲉⲣⲟⲩ ...** أي

"سبِّحوه ..."، أما في النَّص القبطي الصعيدي فهو ⲥⲙⲟⲩ ⲉⲣⲟⲕ... أي "باركوه ...". وجدير بالذِّكر أن الفعل اليوناني ὑμνέω (هيمنيؤ) يفيد كلا المعنيين، فهو يعني: "يسبِّح - يبارك - ينشد[٨]". فيتَّضح لنا أن النَّصين القبطي البحيري والصعيدي كانا ينقلان من أصل يوناني أقدم منهما، لذلك جاءت الكلمتان القبطيتان ϣⲱⲥ (هوس)، و ⲥⲙⲟⲩ (إزمو) كترجمة للكلمة اليونانيَّة التي تفيد المعنيين.

• الرُّبع الخامس عشر في النَّص القبطي البحيري والذي نصه: "باركي الرَّب أيتها السُّحب ⲛⲓϭⲏⲡⲓ (ني تشيي) والرِّياح ⲛⲓⲑⲏⲟⲩ (ني ثيّو)" لم يأت بنفس هذا التَّرتيب في النَّص القبطي الصعيدي إذ حلَّت الكلمة القبطيَّة الصعيديَّة ⲛⲉⲛⲓϥ (ني نيف) محل الكلمة القبطيَّة البحيريَّة ⲛⲓⲑⲏⲟⲩ أي "الرِّياح". والكلمة ⲛⲉⲛⲓϥ تعني "ضباب - غيم - سحاب - غمام - شبُّورة"، كما أنها تأتي أيضاً بمعنى "نَفَس - نسمة" [٩]. فتكون التَّرجمة الحرفيَّة لهذا الرُّبع الخامس عشر في النَّص القبطي الصعيدي: "باركي الرَّب أيتها السُّحب والغمام".

وقد تكرَّرت نفس الكلمة ⲛⲉⲛⲓϥ في الرُّبع التاسع عشر لكلا النَّصين القبطي الصعيدي والبحيري، حيث جاءت في النَّص القبطي البحيري - في

٨- وهناك فعل يوناني آخر هو αἰνέω يفيد نفس المعاني السابقة.

٩- هذه الكلمة تأتي في أشكال متنوِّعة؛ ففي اللهجتين البحيري والصعيدي تأتي ⲛⲓϥ وفي اللهجة البحيري فقط تأتي ⲛⲓϥⲓ وفي اللهجة الصعيدي فقط تأتي ⲛⲓϥⲉ أما أداة الجمع في القبطية الصعيدية فهي ⲛⲉ وفي القبطية البحيرية هي ⲛⲓ وعلى ذلك فإن الكلمة ⲛⲉⲛⲓϥ هي قبطية صعيدية في صيغة الجمع.

أقلاديوس لبيب، قاموس اللغة القبطية المصرية، القاهرة، سنة ١٦١١ش/ ١٩٨٥م، ص ٣٤٤

وعبارة ⲛⲓϥⲓ ⲛⲓⲱϯⲉ في القبطية البحيرية، أو ⲛⲓϥ ⲛⲓⲱϯ في القبطية الصعيدية تعني: "طل الندى".

معوض داود عبد النور، قاموس اللغة القبطية، مرجع سابق، ص ٢١٠

الأبصلموديَّة التي بين أيدينا – ⲛⲓⲛⲓϥⲓ (ني نيفي) وتُرجمت إلى "الأهوية".

ومن الغريب حقاً أن هذا الرُّبع الخامس عشر نفسه لم يوجد في أي ترجمة يونانية للهوس الثالث.

• الرُّبع الثاني والعشرون في النَّص القبطي البحيري، والذي نصه: "باركا الرَّب أيها البَرَد ⲡⲓϫⲁϥ (بي جاف) والصَّقيع ⲡⲓϣϫⲉⲡ (بي أوجيب) ..." جاء النَّص القبطي الصعيدي: "باركا الرَّب أيها البَرَد والثَّلج ⲡⲉϫⲓⲱⲛ"، وهي ذات الكلمة التي وردت في الرُّبع التالي مباشرة في النَّص القبطي البحيري (أي الرُّبع الثَّالث والعشرون): "باركا الرَّب أيها الجليد والثَّلج ⲛⲓϫⲓⲱⲛ (بي شيون)". فتكون الكلمة قد تكرَّرت مرَّتين في النَّص القبطي الصعيدي في الرُّبعين ٢٢، ٢٣.

بينما النَّص اليوناني قد أورد لهذا الرُّبع (الرُّبع الثَّاني والعشرون) كلمتي πάγος (باغوس) أي "هضبة صخريَّة أو قمة جبل"، و ψῦχος (إبسيغوس) أي "برد". وهكذا تجد اختلافات طفيفة بين النصوص المختلفة حيث تحل كلمة محل أخرى.

• الرُّبع الثَّالث والثَّلاثون في النَّص القبطي البحيري والذي نصه: "باركوا الرَّب يا بني البشر، واسجدوا للرَّب ..." ورد في النَّص القبطي الصَّعيدي دون ذكر عبارة "واسجدوا للرَّب".

• الرُّبع الأربعون في النَّص القبطي البحيري يأتي هكذا: "باركوا الرَّب يا عابدي الرَّب إله آبائنا. سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد". ولكنه في النَّص القبطي الصعيدي يأتي في صيغة: "باركوا الرَّب يا جميع شهداء الرَّب. سبِّحوه ...".

أما النَّص اليوناني لنفس هذا الرُّبع فجاء: "باركوا الرَّب أيها

الرُّسل والأنبياء والشُّهداء. سبِّحوه ...".

ولعل أكبر مفارقة بين النَّصين القبطي البحيري والقبطي الصَّعيدي هو ما ذُكر من ألحان تُقال في ختام الهوس الثالث. فنحن نعرف حالياً أن الهوس الثالث يُختتم بثلاثة ألحان تشمل الرُّبعين الأخيرين منه، هذه الألحان الثلاثة هي:

- اللَّحن الأوَّل: هو لحن ⲉⲓⲥ ⲛⲟⲩ ⲉⲓⲥ (إزمو إبشويس) أي "باركوا الرَّب"، وكلماته هي الرُّبع قبل الأخير من الهوس الثالث بكامله: "باركوا الرَّب يا حنانيا وعزاريا وميصائيل. سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد". بالإضافة إلى نصف كلمات الرُّبع الأخير أي حتى إلى كلمة "آبائنا" والذي نصُّه: "باركوا الرَّب يا عابدي الرَّب إله آبائنا. سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد".

- اللَّحن الثَّاني: هو لحن ⲉⲣⲟⲩ ϩⲱⲥ (هوس إيروف) أي "سبِّحوه"، وهو لحن طويل تنحصر نغماته كلها في كلمة واحدة هي "سبِّحوه".

- اللَّحن الثَّالث: هو لحن ⲁⲣⲓⲥⲱⲧⲉ ⲃⲁⲥⲕ (أريهوأو تشاسف) أي "زيدوه علواً"، وهو يشمل باقي كلمات الرُّبع الأخير من الهوس الثالث: "زيدوه علواً إلى الآباد".

وهذه الألحان الثلاثة إمَّا تقال كلها أو بعضها. ولكن أليس عجيباً حقاً ألاَّ تشير أي أبصلموديَّة مطبوعة بين أيدينا، وقد طُبع منها ما يزيد قليلاً عن اثنتي عشرة طبعة على مدى القرن العشرين، لم تشر أي واحدة من هذه الطَّبعات إلى هذه الألحان. بل اتبعت الأبصلموديَّات المطبوعة هذا النَّهج في عدم الإشارة إلى معظم ما يُقال من ألحان التَّسبحة.

ولكن برجوعنا إلى النَّص القبطي الصَّعيدي والذي دُوِّن - كما سبق أن أشرتُ - في المجلد الثالث عشر من مجموعة مرجان، نجد أنه في الثمانية أرباع الأخيرة من الهوس الثَّالث والتي تبدأ بالرُّبع "باركوا الرَّب يا بني البشر [واسجدوا للرَّب] سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد" تُدوِّن حاشية قبل الرُّبع السَّابق ذكره مباشرة تقول: "من هاهنا يُلحَّن باللَّحن كالعادة". ويستمر اللَّحن ستَّة أرباع كاملة بعد هذا الرُّبع حتى الرُّبع قبل الأخير والذي نصُّه: "باركوا الرَّب يا حنانيا وعزاريا وميصائيل. سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد"، فتُذكر حاشية أخرى تقول: "ومن هاهنا دمج". حيث يُكمَّل هذا الرُّبع قبل الأخير بالقبطيَّة الصعيديَّة بما ترجمته: "لأنه خلَّصنا من الجحيم، وأنقذنا من الموت، ونجَّانا من الأتون من وسط اللَّهيب المتَّقد، ونجَّانا من النَّار. اشكروا الرَّب فإنه صالح وأن رحمته إلى الأبد".

أما الرُّبع الأخير من الهوس فيوضع له عنوان مستقل قائم بذاته هو: "يُقال هذا الرُّبع باللَّحن، ويفصَّل ويفسِّر القارئ". وتُضاف حاشية بعد ذلك تقول: "عند نهاية التَّفسير تقال ϩⲁⲛⲥⲉⲛⲥⲉⲛ ⲛⲁⲱ من الذُّكصولوجيَّة الآدام للثلاثة فتية القدِّيسين[١٠]". وهذه الذُّكصولوجيَّة وردت في كتاب التَّماجيد المقدَّسة المطبوع في القاهرة سنة ١٩٢٢م، وهي سبعة أرباع[١١].

10- Yassa Abd Al-Masih, *The Hymn of the Three Children in the Furnace*, (BSAC), t. 12, op. cit., p. 14, 15.

11- Yassa Abd Al-Masih, *Doxologies in the Coptic Church*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t.6, Le Caire, 1940, p. 61.

تسبحة الثلاثة فتية في الكنيسة اليونانيَّة

تحتل تسبحة الثلاثة فتية في الكنيسة اليونانيَّة التَّسبحتين السَّابعة والثامنة من التَّسابيح التِّسع، وهي التَّسابيح التي تقابل الهوسات في الكنيسة القبطيَّة. وهاتان التَّسبحتان هما:

– **التَّسبحة السَّابعة:** وهي صلاة الفتية الثلاثة القدِّيسين والتي وردت بدءاً من الآية رقم ٢٤ من الأصحاح الثالث سفر دانيال، وهو الجزء من الأصحاح المحسوب ضمن الأسفار القانونيَّة الثَّانية.

وبداية هذه التَّسبحة أو هذه الصَّلاة هي:

«مباركٌ أنت يارب إله آبائنا، ومسبَّح وممجَّد اسمك إلى الدُّهور، لأنك عادل في جميع ما صنعت بنا. وأعمالك كلُّها صدق وطرقك مستقيمة، وجميع أحكامك حق ... الخ».

وهي التَّسبحة التي تُقال في الكنيسة القبطيَّة قبل سَحَر يوم السَّبت العظيم تحت عنوان: "صلاة عزاريا". ومكانها قبل الهوس الثَّالث مباشرة في طقس هذه السَّهرة اللَّيليَّة القبطيَّة البديعة.

وفي هذه التَّسبحة أو هذه الصَّلاة وردت العبارة الشَّهيرة التي صارت مديحاً مستقلاً للثلاثة فتية القدِّيسين في الكنيسة القبطيَّة، وهو المديح الذي يُقال بألحان خمسة طويلة مبدعة تتغيَّر مع تغيُّر المناسبات الكنسيَّة على مدار السَّنة الطَّقسيَّة القبطيَّة. وهو مديح يعقب ترتيل الهوس الثالث. والمعروف باسم: ⲧⲉⲛⲟⲩⲉⲥ ⲛⲥⲱⲕ ⲙ̀ (تين أووبه إنسوك) أي "نتبعك". أما كلماته فهي: "نتبعك بكل قلوبنا، ونخافك ونطلب وجهك، فلا تخزنا، بل عاملنا بحسب دعتك وكثرة رحمتك (يارب أعنَّا)".

وفي ختام هذه التَّسبحة السَّابعة في الكنيسة اليونانيَّة تأتي الأربع

السِّتة الأولى (من الهوس الثالث في الكنيسة القبطيَّة)، وهي الأرباع الستي سبق ذكرها باليونانيَّة. أما قرار هذه الأرباع أو الإستيخونات في الكنيسة اليونانيَّة فهو: "الكُلّي التَّسبيح، والفائق الرِّفعة إلى الدُّهور".

– **التَّسبحة الثَّامنة:** وتحتل بقية تسبيح الثلاثة فتية القدِّيسين في أتون النَّار. وهي نفس كلمات وألفاظ الهوس الثالث في الكنيسة القبطيَّة عدا السِّتة أرباع الأولى منه، وعدا الاختلاف الطَّفيف بين التَّقليدين اليوناني والقبطي والذي سبق الإشارة إليه، ولاسيَّما في الرُّبعين الخامس عشر والرُّبع الأخير.

إلاَّ أن هذه التَّسبحة في الكنيسة اليونانيَّة مقسَّمة إلى سبعة عشر ربعاً فقط، حيث يضم الرُّبع الواحد في التَّقليد اليوناني ربعين أو أكثر في التَّقليد القبطي.

كما يعقب هذه الأرباع في الكنيسة اليونانيَّة ربعان هما:

– "نبارك الرَّب الآب والابن والرُّوح القُدُس، نسبِّحه ونزيده رفعة إلى الدُّهور".

– "نسبِّح ونبارك ونسجد للرَّب، مسبِّحين ورافعين إياه إلى الدُّهور".

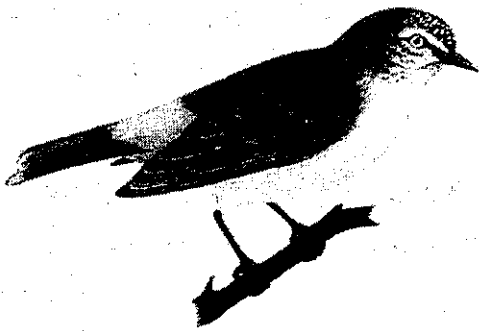

الفَصل الثَّامن

ملحقات الهوس الثَّالث

ملحقات الهوس الثّالث نعني بها ما يعقب هذا الهوس من عناصر ليتورجيَّة. وهي في الحقيقة ثلاثة عناصر هي:

أولاً: إبصاليَّة واطس رومي للثّلاثة فتية القدِّيسين.

ثانياً: قطعة يونانية تُقال باللّحن للثّلاثة فتية القدِّيسين.

ثالثاً: مديح يُقال باللّحن للثّلاثة فتية القدِّيسين.

وعن هذه الثّلاثة عناصر يدور الحديث في هذا الفَصل من الكتاب.

أولاً: إبصاليَّة واطس رومي للثلاثة فتية القدِّيسين

هذه الإبصاليَّة الشَّهيرة بالاسم "أربيصالين" تحوي أربعة وعشرين ربعاً وبدايتها: ⲁⲡⲓⲯⲁⲗⲓⲛ ⲉⲫⲏⲉⲧⲁⲧⲁⲱⲥ أي "رتّلوا ...". فالرُّبع الأوَّل لها نصُّه هو: "رتّلوا للذي صُلب عنَّا، وقُبر وقام، وأبطل الموت وأهانه، سبِّحوه وزيدوه علواً".

وأرباع الإبصاليَّة مزيج من الروميَّة (اليونانيَّة) والقبطيَّة بالتناوب، فالأرباع الفرديَّة باليونانيَّة، والأرباع الزَّوجيَّة بالقبطيَّة، ولكن لا تخلو بعض الأرباع اليونانيَّة من بضعة كلمات قبطيَّة سواء في اللَّهجة الصعيديَّة أو البحيريَّة. والثّلاثة الإستيخونات الأولى من كل ربع منها مقفاة،

والإستيخون الرَّابع من كل ربع هو مرد متكرِّر: "سبِّحوه وزيدوه علواً".

وترتيل الإبصاليَّة يكون بين خورسين، واحد بحري والآخر قبلي، فيرتِّل الخورس البحري الرُّبعين الأوَّل والثاني منها، ويرد عليهم الخوروس القبلي بالرُّبعين الثالث والرَّابع، وهذا حتى نهاية الإبصاليَّة.

أما نغمة ترديد هذه الإبصاليَّة فهي نغمة مختصَّة بها وحدها لا وجود لها في أي عنصر آخر من عناصر التَّسبحة. وحتى الإبصاليَّات الواطس التي تقال على مدار السَّنة اللِّيتورجيَّة بثلاث طرائق أو نغمات مختلفة[1] لا تشترك إحدى هذه الطرق مع نغمة هذه الإبصاليَّة الواطس.

وما يلفت نظرنا جداً أن نغمات الهوسات الأوَّل والثاني والرَّابع كلها تأتي بلحن آدام، ما عدا الهوس الثَّالث الذي صارت نغمته بلحن واطس بسبب وجود هذه الإبصاليَّة الواطس التي لحقت به. ودُعيت واطس لأن كل إستيخون من إستيخونات أرباعها يشتمل على سبع هنكات، على خلاف الإبصاليَّة الآدام التي تشتمل إستيخوناتها على خمس هنكات فقط.

أما مؤلِّف هذه الإبصاليَّة فهو المعلم سركيس الذي يذكر اسمه في الرُّبع الأخير منها. ويُظن أنه عاش بعد القرن الرَّابع عشر للميلاد لأن ابن كبر (+ ١٣٢٤م) لا يشير إلى هذه الإبصاليَّة في كتابه: "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة" ضمن عناصر تسبحة نصف اللَّيل السنويَّة في الكنيسة القبطية. ويُظن أن هذه الإبصاليَّة الواطس قد عرفت طريقها أولاً

١- وهي النغمات الفرايحي والسنوي والكيهكي. إذ لا وجود لنغمات محددة للإبصاليات القبطية في مناسبتي الصوم المقدس الكبير، أو الطقس الشعانيني المختص بعيد دخول السيد المسيح أورشليم؛ وعيدي الصليب.

ملحقات الهوس الثّالث نعني بها ما يعقب هذا الهوس من عناصر ليتورجيَّة. وهي في الحقيقة ثلاثة عناصر هي:

أولاً: إبصاليَّة واطس رومي للثّلاثة فتية القدِّيسين.

ثانياً: قطعة يونانية تُقال باللّحن للثّلاثة فتية القدِّيسين.

ثالثاً: مديح يُقال باللّحن للثّلاثة فتية القدِّيسين.

وعن هذه الثّلاثة عناصر يدور الحديث في هذا الفَصل من الكتاب.

أولاً: إبصاليَّة واطس رومي للثلاثة فتية القدِّيسين

هذه الإبصاليَّة الشَّهيرة بالاسم "أريبصالين" تحوي أربعة وعشرين ربعاً وبدايتها: Ἀριθμὸν ἐφετάραμε أي "رتِّلوا ...". فالرُّبع الأوَّل لها نصُّه هو: "رتِّلوا للذي صُلب عنَّا، وقُبر وقام، وأبطل الموت وأهانه، سبِّحوه وزيدوه علواً".

وأرباع الإبصاليَّة مزيج من الروميَّة (اليونانيَّة) والقبطيَّة بالتناوب، فالأرباع الفرديَّة باليونانيَّة، والأرباع الزَّوجيَّة بالقبطيَّة، ولكن لا تخلو بعض الأرباع اليونانيَّة من بضعة كلمات قبطيَّة سواء في اللَّهجة الصعيديَّة أو البحيريَّة. والثّلاثة الإستيخونات الأولى من كل ربع منها مقفاة،

والإستيخون الرَّابع من كل ربع هو مرد متكرِّر: "سبِّحوه وزيدوه علواً".

وترتيل الإبصاليَّة يكون بين خورسين، واحد بحري والآخر قبلي، فيرتِّل الخورس البحري الرُّبعين الأوَّل والثاني منها، ويرد عليهم الخوروس القبلي بالرُّبعين الثالث والرَّابع، وهذا حتى نهاية الإبصاليَّة.

أما نغمة ترديد هذه الإبصاليَّة فهي نغمة مختصَّة بها وحدها لا وجود لها في أي عنصر آخر من عناصر التَّسبحة. وحتى الإبصاليَّات الـواطس التي تقال على مدار السَّنة اللِّيتورجيَّة بثلاث طرائق أو نغمات مختلفة[1] لا تشترك إحدى هذه الطرق مع نغمة هذه الإبصاليَّة الواطس.

وما يلفت نظرنا جداً أن نغمات الهوسات الأوَّل والثـاني والرَّابـع كلها تأتي بلحن آدام، ما عدا الهوس الثَّالث الذي صارت نغمته بلحـن واطس بسبب وجود هذه الإبصاليَّة الواطس التي لحقت بـه. ودُعيـت واطس لأن كل إستيخون من إستيخونات أرباعها يشتمل علـى سـبع هنكات، على خلاف الإبصاليَّة الآدام التي تشتمل إستيخوناتها على خمس هنكات فقط.

أما مؤلِّف هذه الإبصاليَّة فهو المعلم سركيس الذي يذكر اسمـه في الرُّبع الأخير منها. ويُظن أنه عاش بعد القرن الرَّابع عشر للميلاد لأن ابن كبر (+ ١٣٢٤م) لا يشير إلى هذه الإبصاليَّة في كتابه: "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة" ضمن عناصر تسبحة نصف اللَّيل السنويَّة في الكنيسة القبطية. ويُظن أن هذه الإبصاليَّة الواطس قـد عرفـت طريقهـا أولاً

١= وهي النغمات الفرايحي والسنوي والكيهكي. إذ لا وجود لنغمـات محـددة للإبصاليات القبطية في مناسبتي الصوم المقدس الكبير، أو الطقس الشعانيني المختـص بعيد دخول السيد المسيح أورشليم، وعيدي الصليب.

للأبصلموديَّات الكيهكيَّة دون السنويَّة، لأنني وجدتها مكتوبة في مخطوط أبصلموديَّة كيهكيَّة رقم (٩٨ طقس) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار بوادي النَّطرون يعود تاريخه إلى سنة ١٧٨١م، في حين لم يرد ذكرها في مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة بنفس المكتبة المذكورة يحمل رقم (١٠٧ طقس) وتاريخ نساخته سنة ١٨٠٤م.

والمعلم سركيس هذا هو نفسه الذي ألَّف أيضاً التِّسع قطع الرُّوميَّة التي تُقال على ثيؤطوكيَّة السَّبت في تسبحة عشيَّة آحاد شهر كيهك. وهي خليط من الروميَّة والقبطيَّة. وهذه التِّسع قطع المذكورة لها نغمتها المختصَّة بها والتي لا تندرج ضمن النَّغمات التقليديَّة المختصَّة بشهر كيهك في ترتيل الإبصاليَّات والذُّكصولوجيَّات.

لقد وضع المعلم سركيس هذه المؤلَّفات بالرُّومية مع مزيج من بضع كلمات قبطيَّة صعيديَّة أحياناً وأخرى بحيريَّة أحياناً أخرى كنوع من التأليف ذات الموسيقى الصوتيَّة التي كانت تستهوي بعض السَّامعين. وهذا ما دفع أقلاديوس بك لبيب (١٨٦٨ - ١٩١٨م) لأن يقول في حاشية في نهاية هذه الإبصاليَّة وفي أبصلموديَّته التي طبعها في القاهرة سنة ١٩٠٨م: "... لكون القرَّاء كانوا يحبُّون الكلمات الرُّومية ولو على سبيل الفُكاهة والفُرجة ...!".

وربما يتبادر إلى ذهن القارئ أن مقولة أقلاديوس بك لبيب السَّابق ذكرها مباشرة تنم عن جهل السَّامعين للغة باتت غير مفهومة لديهم، ولكنه ظنٌّ في غير محله، وعكسه هو الصَّحيح. لأنه لو كان السَّامعون لا يفهمون القبطيَّة فهماً واعياً، ما كانوا يجدون في المفردات الجديدة على أسماعهم ما يشنِّف آذانهم ويبهجهم. والحقيقة أن سبب هذه "الفُكاهة والفُرجة" التي يذكرها أقلاديوس بك لبيب هو أن المؤلِّف كان يستعمل

مفردات لغويَّة هي مزيج من اليونانيَّة والقبطيَّة في ذات الوقت، أي أن الكلمة الواحدة يكون نصفها الأوَّل قبطي ونصفها الآخر يوناني، مما دفع السَّامعين إلى الانتباه لشئ جديد لم يألفوه من قبل، وهم المدركين لمفردات لغتهم القبطيَّة.

وأقرب مثال على ذلك هو الكلمة الأولى من هذه الإبصاليَّة، وهي كلمة ⲁⲣⲓⲯⲁⲗⲓⲛ (أريبصالين) فهي تتكوَّن من مقطعين:

المقطع الأول: ⲁⲣⲓ (أري)، وهو صيغة الأمر من الفعل القبطي ⲉⲣ (إير) أي "يصنع أو يعمل".

والمقطع الثاني: ⲯⲁⲗⲓⲛ (بصالين)، وهي صيغة المصدر ψαλεῖν للفعل اليوناني ψάλλω (إبصاللو)، أي "يرتِّل[٢]".

ومن هذه التَّركيبة الجديدة نشأ لفظ جديد في اللُّغة القبطيَّة لم يألفه السَّامعون من قبل وهو كلمة ⲁⲣⲓⲯⲁⲗⲓⲛ أي "رتِّل"، وصار ضمن مفردات اللُّغة القبطيَّة في لهجتها البحيريَّة[٣]. ومن هنا كانت الفُكاهة والفُرجة.

وهناك كثير من الأرباع الرُّومية الصِّرف التي لازالت تُقال في الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم مثل مديح التَّوزيع الذي يُقال في عيد الخمسين وعلى مدى صوم الرُّسل الذي يليه، وهو ⲁⲥⲱⲱⲉⲛ ⲧⲱ Ⲕⲩⲣⲓⲱ (آسومين توكيريُّو ...) فأرباعه البحريَّة رومي (يوناني) صرف، والقبليَّة قبطي صرف، وهي مثلها في المعنى. ويذكر أقلاديوس بك لبيب أن الهوس

٢- هذا الفعل اليوناني ψάλλω كان يعني في البداية معنى: العزف على آلة وتريَّة بأصابع اليد تحديداً وليس باستخدام ريشة العزف، ثم انحصر معناه بعد ذلك في معنى "يرتِّل"

Cf. Liddle and Scott, *Greek English Lexicon*, Oxford, 1986, p. 899.

٣- انظر: معوض داود عبد النور، مرجع سابق، ص ٥٢١

الذي يُقرأ في شهر كيهك وهو المُسمى "الهوس الكيهكي"، وهو أجزاء مختارة من المزامير، تجده في أبصلموديَّات الوجه القبلي رُبع قبطي ورُبع رومي، أما في أبصلموديَّات الجهات البحريَّة، فيكتبونه كله بالقبطي لأجل السُّهولة.

فهل نستشف من كلام أقلاديوس بك لبيب السَّابق ذكره أن المعلم سركيس كان من صعيد مصر، أو على الأقل عاش هناك؟ وأن هذه الأرباع الرُّومية في الصَّلوات الكنسيَّة لاقت رواجاً في كنائس الصَّعيد عنها في كنائس الوجه البحري؟ ربما يكون ذلك. فمعروف أن أقباط صعيد مصر ظلُّوا محافظين على اللُّغة القبطيَّة في حياتهم اليوميَّة كلغتهم القوميَّة حتى القرن السَّابع عشر للميلاد.

وكان سبب وضع هذه الإبصاليَّة "أريبصالين" بعد الهوس الثَّالث هو أن مؤلِّفها اعتمد في كلماتها على معظم كلمات الهوس الثَّالث تقريباً، باستثناء العشرة أرباع الأولى منها، والثَّلاثة الأخيرة أيضاً، إذ أن هذه الأرباع المذكورة من إنشائه الخاص.

وفيما يلي نكتفي بإيراد هذه الأرباع المذكورة مع ملاحظة أن كل ربع منها ينتهي بالمرد "سبِّحوه وزيدوه علواً" وهو المرد الذي يرد في جميع أرباعها بالقبطيَّة.

فالأرباع العشرة الأولى هي:

(١) رتِّلوا للذي صُلب عنَّا. وقُبر، وقام، وأبطل الموت وأهانه ...
(٢) اخلعوا الإنسان العتيق، وألبسوا الجديد الفاخر. واقتربوا إلى عظم الرحمة ...
(٣) يا جنس المسيحيين، القسوس والشمامسة، أعطوا مجداً للرَّب لأنه مستوجب ...
(٤) هلمُّوا إلينا أيها الثلاثة فتية الذين رفعهم المسيح إلهنا، وأنقذهم من إبليس ...
(٥) من أجل إلهك ماسيَّا المانح الإحسان، هلمَّ إلينا يا حنانيَّا ...

(٦) يا عزاريًا الغيور عشيَّة وبكرة والظهيرة، أعط مجداً لقوة الثالوث ...
(٧) فها هوذا عمانوئيل في وسطنا، يا ميصائيل تكلَّم بصوت التَّهليل ...
(٨) اجتمعوا وثابروا جميعاً. تكلموا مع القسوس، سبِّحي الرَّب يا جميع أعماله ...
(٩) ها السَّموات تنطق بمجد الله إلى هذا اليوم. يا أيها الملائكة الذين أنشأهم ...
(١٠) والآن يا قوَّات الرَّب، باركوا اسمه الكريم. أيتها الشَّمس والقمر والنُّجوم ...

وإن تعبير "الإنسان العتيق والإنسان الجديد" هو تعبير لم يـــرد في غير هذه الإبصاليَّة في عناصر تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر. ومع ذلك فإن سعي المؤلِّف في محاولته لضبط القافية جاء على حساب عمق المعنى أحياناً في بعض أرباع الإبصاليَّة.

أما الثَّلاثة أرباع الأخيرة فهي:

(٢٢) أسرعوا بعظم حرص يا أتقياء الرَّب وكافة الطَّبائع التي صنعها ...
(٢٣) برودة ونياحاً أعطنا كلنا من غير كسر للقول بتمتُّع ...
(٢٤) كذلك عبدك المسكين سركيس اجعله بغير دينونة، ليقول مع هؤلاء كشريك، سبِّحوه وزيدوه علواً.

ويذكر مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقوس)، المحفوظ بمكتبة الدَّار البطريركيَّة بالقاهرة، والذي يعود تاريخ نساخته إلى ســـنة ١٩١٠م، وفي معرض حديثه عن تسبحة نصف اللَّيل ما يلي: "وعند نهاية ⲧⲉⲛⲟⲩⲉⲥ ⲛⲥⲱⲕ تُقال ⲁⲣⲓⲫⲁⲗⲓⲛ إن كان ثَمَّ مهل ...". وهو ما لا يجوز قوله عن أحد العناصر الليتورجيَّة الأساسيَّة في تسبحة نصف اللَّيل. فضلاً عن أن هذا المديح ⲁⲣⲓⲫⲁⲗⲓⲛ (أريبصالين) كان موضعه بعد مديح الثلاثة فتية ⲧⲉⲛⲟⲩⲉⲥ ⲛⲥⲱⲕ وليس قبله كما تذكر الأبصلموديَّات المطبوعة.

ثانياً: قطعة يونانيَّة تُقال باللَّحن للثَّلاثة فتية القدِّيسين

وهي المعروفة باسم TENEN (تينين)، وتتكوَّن من أربعة أرباع، الرُّبعان الأوَّلان باليونانيَّة والأخيران بالقبطيَّة. ويُختم كل ربع منها بعبارة: "حنانيَّا وعزاريا وميصائيل". وفي نهايتها يُقال الإستيخون الختامي باللَّحن أيضاً وهو: "يسبِّحون ويباركون الله كل حين".

وباستثناء الرُّبع الأوَّل، فإن النَّص الذي أوردته الأبصلموديَّة المقدَّسة لأرباع هذه القطعة جاء مختلفاً عمَّا ورد عنها في الطبعة الثانية لكتاب خدمة الشمَّاس الذي صدر سنة ١٩٥١م، والذي قامت بطبعه ونشره جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأثوذكسيَّة المركزيَّة بالقاهرة. وتضع الجمعيَّة حاشية لهذه القطعة في الكتاب المذكور تقول فيها: "عثرنا عليها بعد بحث شاق بمخطوطات كنسيَّة قديمة. ومن نصها يتبيَّن أنها تتَّفق تماماً مع حفظ حضرات مرتِّلي الكنيسة". دون ذكر لأرقام هذه المخطوطات أو أماكن تواجدها.

إلاَّ أن الجمعيَّة المذكورة في طبعتها لكتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السنويَّة والتي بلغت اثنتي عشرة طبعة على مدى النِّصف الثاني من القرن العشرين[٤]، التزمت بنص هذه القطعة كما جاءت في كتاب الأبصلموديَّة السنويَّة المقدَّسة الذي صدر للمرَّة الأولى في سنة ١٩٠٨، في حين أن الجمعيَّة لم تلتزم بتلك الأبصلموديَّة نفسها في أمور أخرى كثيرة مثل أرباع الناقوس، وذُكصولوجيَّة عيد الصليب على سبيل المثال.

ونورد فيما يلي نص هذه القطعة اليونانيَّة أو الرُّومية كما وردت في

٤- كانت الطبعة الأولى في سنة ١٩٤٩م.

كل من "الأبصلموديَّة المقدَّسة" وكتاب "خدمة الشمَّاس والألحان".

الترجمة كما أوردها الأبصلموديَّة	الترجمة كما أوردها خدمة الشمَّاس

(١) فمن ثمَّ نقدِّم الذَّبيحة والعبادة العقليَّة ونرسل لك في هذا اليوم التَّسابيح لدى مجدك يا مخلِّصنا. حنانيا وعزاريا وميصائيل.

... τὴν θυσίαν καὶ τὴν λογικὴν λατρείαν ἀναπέμπωμεν σεαυτῷ σήμερον ᾠδὰς πρὸς δόξα σου σῶτερ ἡμῶν. Ἀνανίας Ἀζαρίας καὶ Μισαήλ.

(٢) الثلاثة فتية وُضعوا في أتون النار المتقد، ولم تمس النَّار أجسادهم لأن ملاكاً نزل وأبطل لهيب النَّار وخلَّصهم: سدراك وميساك وأبدناغو.

لما رُفعوا ليأخذوا المجد في أجسادهم، انحدر ملاك وأطفأ اللَّهيب وصيَّره بارداً عن حنانيا وعزاريا وميصائيل.

Τρεῖς παῖδες εἰς τὴν κάμινον τοῦ πυρὸς τὴν καιομένην ἐβληθήσαν καὶ πῦρ οὐκ ἥψατο τῶν σωμάτων ἄγγελος γὰρ συγκατέβη καὶ ἐξετίναξε τὴν φλόγα τοῦ πυρὸς καὶ ἔσωσεν αὐτούς. Σεδράχ, Μισάχ, Ἀβδεναγώ.

(٣) كان الثَّلاثة يباركون الرَّب وهم في وسط الأتون المتَّقد، ولم يقو عليهم الحريق، لأن ملاك الرَّب كان في وسطهم وخلَّصهم، ولم يدع شيئاً من الشَّر يدركهم.

الثَّلاثة فتية باركوا الرَّب عندما طُرحوا في وسط الأتون. مجَّدوا بغير ألم متشدِّدين. وملاك الرَّب عضَّدهم ونجاهم وأمرهم أن يمجِّدوا يمينه حسناً. حنانيا

الترجمة كما أوردها الأبصلموديَّة	الترجمة كما أوردها خدمة الشمَّاس
حنانيا وعزاريا وميصائيل[٥].	وعزاريا وميصائيل.
(٤) وبعد أن نال من أسراره المقدَّسة نصرخ قائلين: قدوسٌ الله قدوسٌ القوي قدوسٌ غير المائت وحده، ذلك الذي أعطانا من إنعامه، وتحنَّن على عدم معرفتنا. حنانيا وعزاريا وميصائيل.	وبعد ذلك أظهر لهم أسراره، فصرخوا قائلين: قدوسٌ الابن الإله، قدوسٌ الابن القوي، قدوسٌ الابن الذي لا يُرى وحده!. فصيَّرهم قابلين نعمته، عارفين تحنّنه. حنانيا وعزاريا وميصائيل.
يسبِّحون ويباركون الله كلَّ حين.	وسبِّحوا وباركوا الله كل حين.

وحين يدقّق القارئ العزيز في النَّصين المذكورين في الجدول السَّابق والمختصَّين بالرُّبعين الثَّالث والرَّابع – وهما الرُّبعان القبطيان لهذه القطعة – يلاحظ التَّقارب بينهما، وكأن النَّص القبطي الأصلي لكليهما ربما كان واحداً ولكن جهل النَّاسخ بالحروف غيَّر هجاءها فجاءت التَّرجمة مغايرة بعض الشيء بين النَّصين. ولكن مع ذلك يظل نص هذه القطعة كما وردت في كتاب الأبصلموديَّة المقدسة هو الأقرب إلى الأصول.

ولكن يبقى أمامنا شدَّة التَّنافر في معنى كلمات الرُّبع الثَّاني لكل من النَّصين المذكورين، وكلمات هذا الرُّبع في الأصل هي يونانيَّة وليست قبطيَّة.

وعن هذين الرُّبعين الأوَّلين أورد الدكتور أزولد بورمستر O.H.E. Burmester النَّص اليوناني لهما طبقاً لما ورد عنهما في الأبصلموديَّة المقدَّسة التي عني بطبعها أقلاديوس بك لبيب سنة ١٩١١م[٦]. وهما نفس

٥- هذا الربع الثالث بدأ بكلمتين يونانيتين هما: Εὐλόγουν τὸν Κύριον أي "يباركون الرب"، وأما باقي الربع فكله بالقبطية كما هو موجود في كتاب الأبصلمودية المقدسة.

6- O.H.E. Burmester, *The Greek Kirugmata, Versicles and Responses and*

الرُّبعان اللَّذان وردا في مؤلف الطوخي في كتابه "كتاب الثيؤطوكيَّات"، والذي طُبع في روما سنة ١٧٦٤م. ونص هذين الرُّبعين أيضاً وُجـدا في المخطوط رقم ٥٢٨٤ بالمتحف القبطي ويعود تاريخه إلى سنة ١٧١٨م[٧]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه القطعة الرومي القبطي الشَّـهيرة بلحـن ⲦⲈⲚⲈⲚ (تينين) لم يذكر ابن كبر (+ ١٣٢٤م) شيئاً عنها كأحد عناصـر تسبحة نصف اللَّيل في زمانه.

حول أوَّل كلمتين يونانيتين لهذه القطعة

الكلمتان الأوليان من الرُّبع الأوَّل وهمـا: ⲦⲈⲚⲈⲚ ⲟⲑⲉⲛ (تيـنين أوثين) – في حالة ربطهما بما ورد بعدهما من كلمات – جاءتا خارجتين عن القياس اللغوي سواء اليوناني أو القبطي. ولحل هذا الإشكال اللغوي اعتبر كل من روفائيل الطوخي وأقلاديوس بك لبيب أن الكلمـة الأولى ⲦⲈⲚⲈⲚ هي قبطيَّة وليست يونانيَّة[٨]، وهي مقسَّمة إلى مقطعين:

الأوَّل هو ⲦⲈⲚ (تين) أي "نحن"،

والثَّاني هو ⲈⲚ أي "يقدِّم أو يحضر – bring" من الأصـل ⲒⲚⲒ. فيكون معنى الكلمة هو "نقدِّم أو نحضر".

أما الكلمة الثَّانية ⲟⲑⲉⲛ فهي يونانية بحتة وتُكتـب ὅθεν (أوثـين) وتأتي هنا ظرف relatif adverb وتعني: "لذلك – من حيـث – لهـذا

Hymns in the Coptic Liturgy, Roma, 1936, p. 391.

7- Or 5284, foll. 92r - 92v. 19th Hator, A.M. 1434 = Nov. 26th., A.D. 1718

٨- ينبغي أن نلاحظ أن هناك كلمة يونانية تحمل نفس النطق القبطي تماماً لهـذه الكلمة الأولى، وهي كلمة τοίνυν (تينين) وتعني: "لذلك – تبعاً لذلك – من ثمَّ – فضلاً عن ذلك".

السَّبب – من ثمَّ – من (شخص أو شئ)[٩]".

إذاً تكون الكلمتان الأوليان من الرُّبع الأوَّل بمعنى "من ثمَّ نقـدِّم". ولكن وضع هاتين الكلمتين بهذه الصُّورة في الجملة الأولى لا يمكِّننا من تكميلها بطريقة لغويَّة صحيحة لنقول: "من ثمَّ نقدِّم **الذَّبيحة** ..."، لأن كلمة "الذَّبيحة" τὴν θυσίαν (تين ثيسيَّان) في النَّص اليوناني للرُّبع الأوَّل لم تأت بأداة التَّعريف المصاحبة لها وهي τὴν . فضلاً عن أن الظرف ὅθεν – وهو الكلمة الثَّانية – جاء هنا ليعزل الفعل "يقدِّم" عن مفعوله "الذَّبيحة". وهذه المشكلة اللُّغوية ربما تكون محلولة لو حلَّت أداة التَّعريف τὴν محل الظَّرف ὅθεν فتصبح الكلمة الأولى من الرُّبع الأوَّل هي: ⲦⲈⲚⲈⲚ ⲦⲎⲚ ⲑⲨⲤⲒⲀⲚ (تينين تين ثيسيَّان) أي "نقدِّم الذَّبيحة ...".

أما باقي كلمات الرُّبع الأوَّل اليونانيَّة فهي مطابقة لما أوردته الأبصلموديَّة المقدَّسة لنفس هذه الكلمات اليونانيَّة ولكن بحروف قبطيَّة. وينطبق نفس الشَّئ على كلمات الرُّبع الثاني.

مناسبة ترتيل لحن ⲦⲈⲚⲈⲚ

يذكر أقلاديوس بك لبيب في كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة الكيهكيَّة مناسبة ترتيل هذه القطعة بقوله: "قطعة رومي وقبطي تقال لأجل الثلاثة فتية القدِّيسين **في شهر كيهك**". وأورد هذا العنوان عينه في كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السنويَّة الذي طبعه قبل ذلك بثلاث سنين، وبنفس العنوان السَّابق ذكره. وعنه نقلت كل طبعات الأبصلموديَّات الأخرى.

وبالبحث وجدتُ أن هذا اللَّحن مدوَّن في مخطوط أبصلموديَّة كيهكية رقم (٩٨ طقس) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، يعود تاريخ

٩- كقولنا ὅθεν περ αὐτὸς ἐσπάρη أي "منه نفسه وُلد".

نساخته إلى النصف الثّاني من القرن الثّامن عشر، وبالتّحديد سنة ١٧٨١م، في حين لم يرد ذكره في مخطوط أبصلموديَّة سنوية بنفس المكتبة منسوخ في أوائل القرن التّاسع عشر وبالتّحديد في سنة ١٨٠٤م، مما يفيد أن هذا اللّحن لم يكن يُقال في تسبحة نصف الليل السنويَّة.

إلاّ أن اللّحن وكلماته لا علاقة له بشهر كيهك على وجه التّخصيص، اللّهم إلاّ توفُّر متّسع من الوقت في سهرات ليالي آحاده تناسب ترتيل كثير من الألحان. ولكن لا مانع من ترتيل اللّحن بين الحين والآخر على مدار السّنة الطّقسيَّة، ولاسيَّما أن اللّحن يختص بمديح الثلاثة فتية القدِّيسين الذين نلهج بتسبحتهم كل الأيام. فكتاب دلاّل أسبوع الآلام يشير إلى أن هذا اللّحن يتم ترتيله في سهرة ليلة سبت الفرح. فضلاً عن أن ختام هذا اللّحن البديع يدفعنا إلى التّسبيح به كل حين، وذلك بقول الإستيخون الأخير: "يسبِّحون ويباركون الله **كل حين**". ونحن أيضاً نشترك مع الثلاثة فتية القدِّيسين في تسبيح الرَّب كل حين.

وتكتفي كثير من الكنائس بترتيل الرُّبعين الأوَّلين فقط من هذا اللّحن البديع مع الإستيخون الختامي له.

ثالثاً: مديح يُقال باللَّحن للثلاثة فتية القدِّيسين

وهو الشَّهير باسم ⲧⲉⲛⲟⲩⲉⲥ ⲛⲥⲱⲕ (تين أوويه إنسوك) أي "نتبعك ...". فبداية هذا المديح تبدأ بالكلمات: "نتبعك بكل قلوبنا، ونخافك، ونطلب وجهك، يا الله لا تخزنا".

وهذا المديح يشتمل على ستة أرباع بالقبطيَّة، الرُّبعان الأوَّلان منه هما نص صلاة عزاريا في أتون النَّار. وهو مديح عميق المعنى، لأنه نابع من صلاة في وسط أتون نار محميَّ سبعة أضعاف، وهو تضرُّع من عمق الضيقة مملوء رجاءً ويقيناً بالخلاص. أخذته الكنيسة من فم عزاريا وختمته بتوسُّل إلى الثلاثة فتية القدِّيسين لكي يطلبوا إلى الرَّب عنا ليغفر لنا خطايانا. وها كلماته:

- نتبعك بكل قلوبنا، ونخافك، ونطلب وجهك، يا الله لا تخزنا.
- بل اصنع معنا بحسب دعتك وكثرة رحمتك يارب أعنا.
- فلتصعد صلاتنا أمامك يا سيِّدنا، مثل محرقات كباش وعجول سمان.
- لا تنس العهد الذي قطعته مع آبائنا، إبراهيم واسحق ويعقوب إسرائيل، قديسيك.
- باركوا الرَّب يا جميع الشُّعوب والقبائل ولغات الألسن، سبِّحوه ومجدوه وزيدوه علواً إلى الآباد.
- اطلبوا من الرَّب عنا أيها الثلاثة فتية القدِّيسين سدراك وميساك وأبدناغو، ليغفر لنا خطايانا.

وهو مديح قديم يشير إليه ابن كبر (+ ١٣٢٤م) بقوله: "وهذه المديحة التي تتلو هذا الهوس (أي الهوس الثالث) تقال بسائر ألحان الواطس في كل وقت بحسبه ...". فهو مديح يُقال على وزن الشيرات بخمس طرائق على مدار السَّنة الطَّقسيَّة، وهي السَّنوي والكيهكي والفرايحي

والصِّيامي (في أيام وآحاد الصَّوم المقدَّس الكبير) والشَّعانيني.

وهذا المديح كان يعقب الهوس الثالث مباشرة في تسبحة نصف اللَّيل السَّنوية كما لاحظنا ذلك في مخطوطات الأبصلموديَّات السَّنوية في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقـــار، ولكـــن الآن أصـــبح يســـبقه ⲁⲡⲣⲁⲛ (أربيصالين)، و ⲧⲉⲛⲉⲛ (تينين)، حين بادر أقلاديوس بـــك لبيـــب بتدوين نصهما في الأبصلموديَّة السَّنوية التي طبعهـــا لأوَّل مـــرَّة في القاهرة سنة ١٩٠٨م قبل ⲧⲉⲛⲟⲩⲉⲥⲛⲥⲱⲕ (تين أوويه إنسوك).

وهذا المديح هو أيضاً ذُكصولوجيَّة واطس للثلاثة فتيـــة القدِّيســـين تُقال في عيدهم. وقد أورد هذه الذُّكصولوجيَّة كتـــاب الأبصـــلموديَّة السنويَّة المقدَّسة الذي طُبع لأوَّل مـــرَّة في الإســـكندريَّة ســـنة ١٩٠٨م بواسطة القس مينا البراموسي. بينما لم يرد في الأبصـــلموديَّة الســـنويَّة المقدَّسة التي قام بطبعها أقلاديوس بك لبيب في نفس السَّنة في القاهرة[١٠].

10- Yassa Abd Al-Masih, *Doxologies in the Coptic Church, 0p. cit.*, p. 43.

الفَصل التَّاسع

مجـــمع القدِّيسين

تمهيد

إننا بقبولنا للآلام والضّيقات والرّضا بالصّليب كشركة حتميّة في سر المسيح والكنيسة، ندخل في معيّة ومعونة القدّيسين الذين سبقونا إلى المجد، يؤازروننا بصلواتهم، ونتشفّع بهم، لا كأننا نجوز الآلام مزكّين، ولكن بإحساس أن آلامنا هي بسبب ضعف طبيعتنا. فنطلب إليهم أن يشفعوا من أجلنا أمام الرّب ليغفر لنا خطايانا. وهكذا لا تنسى الكنيسة التي تكمّل آلام المسيح على الأرض، وهي في مواجهة الكنيسة التي عبرت إلى السّماء، وقد صارت في شركة معها، لا تنسى حقيقة عوزها واحتياجها إلى مغفرة الخطايا، لأنها في جهادها لم تكمُل بعد.

القسم الأوّل من المجمع

يبدأ مجمع قديسي التّسبحة بطلب شفاعة العذراء أم النُّور مريم أم الرّب، وأم جميع الشُّهداء والقدّيسين ملقباً إياها بعبارة: "سيّدتنا كلنا السيّدة والدة الإله مريم أم مخلّصنا". وكذا طلب شفاعة سائر رؤساء الملائكة وكل صفوف السّمائيين، وذلك ضمن سبعة أرباع تختم بربع ثامن نصه: "اشفعوا عنا أيها العساكر الملائكيّة والطّغمات السمائيّة ليغفر لنا خطايانا" وبذلك يكمل القسم الأوّل من المجمع.

القسم الثّاني من المجمع

ثم يأتي طلب صلوات الآباء والأنبياء وأبرار وصدِّيقي العهد القـــديم بدءاً من الآباء البطاركة إبراهيم واسحق ويعقوب. وذلك في سبعة أرباع أيضاً تُختم بربع يليها نصُّه هو: "أطلبوا من الرَّب عنَّا يا صفوف الأنبياء والأبرار والصدِّيقين، ليغفر لنا خطايانا" فيكمُل القسم الثاني من المجمع.

القسم الثَّالث من المجمع

ثم تأتي طلبة شفاعة يوحنا المعمدان والمائة والأربعة والأربعين ألفـــاً البتوليين، والبتول الإنجيلي. ثم طلب صلوات الآباء الرُّسل وكل الشُّهداء بدءاً من الشَّهيد إسطفانوس رئيس الشَّمامسة، وذلك في تسعة وعشرين ربعاً تحوي أكثر من مائة وعشرين شهيد وشهيدة وتختم بالرُّبع "أطلبـــوا من الرَّب عنا يا صفوف الشُّهداء الذين تألّموا من أجل المسيح ليغفر لنا خطايانا" فيكمُل القسم الثالث من المجمع.

القسم الرَّابع من المجمع

أما بقية أرباع المجمع وهي اثنين وعشرين ربعاً فهي لطلب صلوات الآباء القدِّيسين لبَّاس الصَّليب والآباء البطاركـــة مبتـــدئاً مـــن الأنبـــا أنطونيوس والأنبا بولا أوَّل السُّواح، حاوياً أسماء أكثر قليلاً من خمســـين اسماً للقدِّيسين والبطاركة، عدا كل مصاف لباس الصَّـــليب، والتســـعة والأربعين شهيداً شيوخ شيهات والآباء الذين اجتمعوا في الثلاثة مجـــامع المسكونيَّة الأولى نيقية والقسطنطينيَّة وأفسس. ويختم المجمع ذلك كلـــه بقوله: "اطلبوا من الرَّب عنا يا مصاف لباس الصَّليب الذين كملـــوا في البراري ليغفر لنا خطايانا".

ويقال بعد ذلك ربعاً للملك قسطنطين وهيلانه الملكة، وربعاً آخر للفتيات العذارى الحكيمات عرائس المسيح، أي البتوليَّات أو الرَّاهبات.

ثم يأتي الرُّبع الذي يحوي فيه قديسي هذا اليوم، أي القدِّيسين الذين تحتفل الكنيسة بتذكارهم اليوم، ولم يرد ذكرهم في المجمع. فيقول هذا الرُّبع: "اطلبوا من الرَّب عنا يا قدِّيسي هذا اليوم كل واحد باسمه، ليغفر لنا خطايانا". فيكمُل بذلك القسم الرَّابع من المجمع.

وجدير بالذِّكر أن قديسي الكنيسة لا يقتصرون على جيل دون غيره، بل هم في كل جيل شهود للرَّب بأمانتهم، فللرَّب في كل جيل أتقياؤه المحبوبون جداً لديه، والمعروفون في السَّماء وإن لم يكونوا معروفين بين النَّاس على الأرض.

الرُّبعان الأخيران من المجمع

ويُختم المجمع بربعين أولهما نصه: "كذلك نعظمَك مع المرتِّل داود قائلين: أنت هو الكاهن إلى **الأبد** على رتبة ملكي صادق". وثانيهما يختص ببطريرك الزَّمان ونصه: "أطلب من الرَّب عنا يا أبانا القدِّيس البطريرك أنبا (فلان) رئيس الكهنة، ليغفر لنا خطايانا".

واعتادت الكنائس أن تضيف بعد هذا الرُّبع مباشرة ربعاً لذكر أسقف الإيبارشيَّة برغم أنه لم يتم تدوين هذا الرُّبع الخاص بالأسقف في أي أبصلموديَّة مطبوعة حتى وقتنا الحاضر.

ونظن أن هذين الرُّبعين لم يكونا ضمن أرباع مجمع التَّسبحة في أصوله القديمة. وذلك للأسباب التَّالية:

• ظلّت بعض مخطوطاتنا لا تدرك أن نص المزمور (١٠٩) «أقسم الرَّب ولن يندم، أنك أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملكي صادق» يختص بالسيِّد المسيح فقط[١]، ولا ينطبق هذا النَّص الكتابي على الأب البطريرك أو الأسقف. وهذا الخطأ الشَّائع نجده مدوَّناً حتى اليوم في بعض كتبنا الطَّقسيَّة المطبوعة[٢].

وأوضح إشارة إلى هذا الخطأ غير المقصود نجدها في ذُكصولوجيَّة الأنبا ساويرس البطريرك، في كتب الأبصلموديَّة التي بين أيدينا، ولاسيَّما تلك التي قامت بطبعها جمعية نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة المركزيَّة. ومن توفيق الرَّب أن هذه الذُّكصولوجيَّة لها نص قبطي صعيدي قديم يعود إلى القرن التاسع الميلادي محفوظ حتى اليوم في مكتبة بيربونت مورجان Pierpont Morgan [٣]، ولا يرد به هذا الرُّبع الذي بدايته: "لذلك نرفّعك مع المرتِّل داود قائلين: أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملشيصادق". بل إن هذا الرُّبع لم يرد أيضاً لهذه الذُّكصولوجيَّة في الأبصلموديَّة السَّنويَّة المقدَّسة التي قام بطبعها أقلاديوس بك لبيب سنة ١٩٠٨م[٤]. فهي إذاً إضافة من أحد النسَّاخ الأقباط في زمن حديث نوعاً عن غير إدراك للمفهوم العقيدي لهذا النَّص الكتابي.

ونفس الأمر يتكرَّر في ذُكصولوجيَّة تقال للأب البطريرك. ففي النَّص القبطي البحيري لهذه الذُّكصولوجيَّة أضاف النَّاسخ عن غير إدراك

١- وكذلك قول المزمور (١٠٦) «فليرفعوه في كنيسة شعبه، وليباركوه على منابر الشيوخ، لأنه جعل أبوة مثل الخراف، يبصر المستقيمون ويفرحون».

٢- انظر مثلاً: كتاب خدمة الشمّاس والألحان، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، ص ٤٧٩

3- Cf. *Bibliothecae P. Morgan Codices coptici photographice expressi*, Roma, 1922.

وانظر أيضاً الحديث عن الذُّكصولوجيَّات فيما بعد.

4- Yassa Abd Al - Masih, (BSAC), t. V, *op. cit.*, p. 182.

هذا النص الكتابي من المزمور (١٠٩) في نهاية الذُّكصولوجيَّة، في حين أن النَّص القبطي الصعيدي المحفوظ لدينا حتى اليوم والذي يرقى إلى القرن التاسع للميلاد يخلو من هذه الإضافة.

وهكذا تكرَّر هذا الأمر عينه في غير موضع من نصوص صلواتنا الليتورجيَّة، إذ صار النَّاسخ القبطي ينقل ما دوَّنه ناسخ قبله، حتى استشرى هذا الخطأ غير المقصود في مواضع عدَّة من صلواتنا الليتورجيَّة، ولكن في الآونة الأخيرة أمكن تدارك الخطأ وهي خطوة هامة لبداية علاجه.

لذلك لم يكن من المستغرب أن يُختم مجمع قديسي التَّسبحة بربع يختص بالسيِّد المسيح، لأن النَّاسخ لم يكن يقصد أن يشير به إلى السيِّد المسيح، بل كان ينبغي أن يمهِّد به ربعاً يُقال للبابا البطريرك في نهاية مجمع التَّسبحة، كما اعتاد الأقباط أن يفعلوا حتى زمن ليس ببعيد. فصار هذا الرُّبع المضاف عن نص المزمور (١٠٩) دليلاً دامغاً على أنه ربع حديث العهد، وبالتالي الرُّبع الذي يليه والخاص بالبابا البطريرك.

• نص الرُّبع الخاص بالبابا البطريرك في نهاية مجمع التَّسبحة يشير إلى أنه حديث العهد نوعاً. وهنا يلزم أن نشير إلى أن نصوص الصَّلوات الليتورجيَّة القديمة في الكنيسة والتي تُقال بواسطة الشَّعب أو على مسمع منه – حين تشير إلى بطريرك الزَّمان أو إلى أسقف الزَّمان – تطلب من أجله لكي يعينه الرَّب على خدمته ويحفظ حياته من كل شر. ولكن مع تطوُّر نصوص الصَّلوات الليتورجيَّة أصبح من الممكن أن تطلب الكنيسة صلاة الأب البطريرك أو الأسقف من أجلها، ولكن لم يكن هذا هو التَّقليد اللِّيتورجي القديم.

فيمن المسلَّم به أن الكاهن يصلي من أجل الشَّعب ليقبل الله توبته، ويشمله برحمته. والشَّعب يصلي من أجل الكاهن لكي يقبل الله صلواته ويعينه في خدمته. أما في الصَّلاة الشعبيَّة الجهاريَّة لاسيَّما في صلاة القدَّاس الإلهي حيث التآم الكنيسة بحضور المسيح على المذبح، تصبح الكنيسة مسئولة عن الطلبة إلى الله من أجل كل أعضائها بدءاً من الأب البطريرك وانتهاءً إلى أصغر فرد في الشَّعب. إلاَّ أن طلبة الكنيسة من أجل البابا البطريرك تتعدَّد وتطول وتكون أكثر تضرُّعاً من طلبتها من أجل الأسقف. وطلبة الكنيسة من أجل الأسقف تكون أكثر توسُّلاً من طلبتها من أجل القمامصة والقسوس والشَّمامسة، وهكذا. فكلما زادت المسؤوليَّة الرُّوحيَّة والرِّعائيَّة، زادت طلبة الكنيسة وتعمَّقت من أجل الرَّاعي لسبب جسامة خدمته التي يحملها على كتفيه.

ففي أوشية الآباء، وهي من أقدم أواشي الكنيسة يقول الكاهن: "اذكر يارب بطريركنا الأب المكرَّم رئيس الكهنة، أنبا (فلان)". فيقول الشمَّاس: "صلُّوا من أجل رئيس كهنتنا ..."، فيجيب الشَّعب: "يارب ارحم". هنا طلبة الكنيسة مجتمعة هي من أجل البابا البطريرك.

وفي القدَّاس الكيرلسي هناك أوشيَّة تختص بالأب البطريرك وحده لا يُذكر فيها أحد من الأساقفة[٥]، فيقول الكاهن: "... بطريركنا الأب المكرَّم أنبا (فلان)". فيقول الشمَّاس: "اطلبوا عن حياة وقيام أبينا المكرَّم رئيس الكهنة البابا أنبا (فلان) لكي المسيح إلهنا يحفظ لنا حياته سنين عديدة وأزمنة سالمة، ويغفر لنا خطايانا". فيكمل الكاهن بقوله: "حفظاً احفظه لنا سنين كثيرة وأزمنة سلاميَّة. مكملاً رئاسة الكهنوت المقدَّسة التي ائتمنته عليها من قبلك كإرادتك المقدَّسة الطوباويَّة ... وصلواته التي

٥- كتاب الخولاجي المقدس، ١٩٠٢أفرنكية، مرجع سابق، ص ٦١٣

يصنعها عنا وعن كل شعبك، وصلواتنا نحن أيضاً عنه، اقبلها إليك على مذبحك النَّاطق السَّمائي رائحة بخور ... أما فهو فاحفظه بسلام وعدل في كنيستك المقدَّسة". وهنا أيضاً طلبة الكنيسة هي من أجل البابا البطريرك. بل إنها تطلب أن يقبل الرَّب صلاته عن الإكليروس والشَّعب، كما تطلب أن يقبل صلاة الإكليروس وكل الشَّعب عنه. ولاحظ هنا الدِّقة المتناهية في التَّعبير.

ويلي ذلك في القدَّاس الكيرلسي أيضاً أوشيَّة تختص بالأساقفة وباقي طغمات الإكليروس، فيقول الكاهن: "اذكر يارب الأساقفة الأرثوذكسيين الذين في كل موضع". فيقول الشمَّاس: "اطلبوا عن آبائنا الأساقفة الأرثوذكسيين الذين في كل مواضع المسكونة كلها. والقمامصة والقسوس والشَّمامسة وكل طغمات الكنيسة، لكي المسيح إلهنا يحفظهم من كل شر ويغفر لنا خطايانا". هنا طلبة الكنيسة من أجل الأسقف وباقي الإكليروس وكل طغمات الكنيسة.

وفي الهيتنيَّات في القدَّاس الإلهي نقول: بشفاعات والدة الإله يارب أنعم لنا بغفران خطايانا ... وبصلوات سادتي الآباء الرُّسل وبقية التَّلاميذ يارب أنعم لنا بمغفرة خطايانا ... الخ، وهكذا لباقي مصاف السَّمائيين والشُّهداء والقدِّيسين. وفي الختام نقول: "بصلواتهم احفظ حياة أبينا المكرَّم رئيس الكهنة البابا أنبا (فلان) ...". وهنا ينفرد الرُّبع الخاص بالبابا البطريرك عن بقية أرباع الهيتنيَّات أنه ربع تطلب فيه الكنيسة من أجل البابا البطريرك.

وفي الأسبسمس الآدام في القدَّاس الإلهي نطلب إلى الرَّب قائلين: "... نسألك يا ابن الله أن تحفظ حياة بطريركنا أنبا (فلان) رئيس الأحبار، ثبِّته على كرسيه".

ولكن مع ذلك لا نغفل أن هناك نصوص صلوات ليتورجية أخرى تأتي في صيغة طلب الكنيسة صلاة البابا البطريرك أو الأسقف من أجلها، ولكنها نصوص صلوات أظنها أكثر حداثة من الوجهة التاريخيَّة البحتة.

لذلك فإن الرُّبع الخاص بالبابا البطريرك في نهاية المجمع جاء نتيجة خطأ غير مقصود من النسَّاخ حين اعتبروا أن ما يشير إليه المزمور (١٠٩) «أقسم الرب و لم يندم أنك أنت هو **الكاهن إلى الأبد** على رتبة ملكي صادق» هو إشارة إلى الأب البطريرك أو الأسقف، ولكنه في الحقيقة يختص بالسيِّد المسيح.

ومن العجيب ألاَّ يشير ابن كبر (+ ١٣٢٤م) إلى المجمع كأحد عناصر تسبحة نصف الليل في زمانه، إذ يأتي الهوس الرَّابع بعد الهوس الثالث ومديح الثلاثة فتية "تين أوويه إنسوك". علماً بأن تسبحة نصف اللَّيل عند ابن كبر تتخلَّلها أواشي كثيرة تفصل بين الهوسات وبعضها البعض[٦]. إلاَّ أن المجمع عنصر رئيسي في كافة مخطوطات الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، ومن بينها المخطوط رقم (ط ١٠٧) والذي يعود تاريخه إلى سنة ١٨٠٤م.

٦- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

الفَصل العَاشر

الذُّكصولوجيَّات

تمهيد

قبل الحديث عن الذُكصولوجيَّات يلزم أن ننبِّه ذهن القارئ إلى أن المجمع هو من صُلب عناصر تسبحة نصف اللَّيل، أما الذُكصولوجيَّات فهي من صُلب عناصر صلوات رفع البخور في عشيَّة أو باكر. لذلك نلاحظ أن الذُكصولوجيَّات تأتي في كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة في موضع بعيد عن مجمع التَّسبحة، فلو كانت الذُكصولوجيَّات من صلب عناصر تسبحة نصف اللَّيل كانت قد أتت تالية لها مباشرة.

وقد لاحظتُ أن مخطوط الأبصلموديَّة السَّنويَّة رقم (١٠٧ طقس) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار (١٨٠٤م)، وهو قبطي فقط، يضع في نهاية المجمع وفي منتصف السَّطر كلمتي ⲛⲉⲟ ⲱⲱⲡⲓ (شوبي إنثو) أي "كوني أنت"، وهي ذُكصولوجيَّة للسيِّدة العذراء تقال في ختام الذُكصولوجيَّات الواطس بدايتها: "كوني أنت ناظرة علينا في المواضع العالية التي أنت كائنة فيها يا سيِّدتي ملكتنا كلنا والدة الإله العذراء كل حين".

أما ابن كبر ففي حين لا يذكر شيئاً عن مجمع التَّسبحة فهو يذكر أن الذُكصولوجيَّات تُقال في صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر.

أنواع الذُّكصولوجيَّات

الذُّكصولوجيَّات في الكنيسة القبطيَّة هي مدائح قبطيَّة موزونة شعراً في تمجيد وتسبيح السيِّد المسيح في الأعياد السيديَّة، أي التي تختص بالسيِّد المسيح، أو في تمجيد وتطويب العذراء، والسَّمائيين، ويوحنا المعمدان، والرُّسل، والشُّهداء، والقدِّيسينَ في أعيادهم.

وهي على نوعين: إما واطس أو آدام. وكل من هذين النَّوعين يمكن أن يُقال في أي يوم من أيام الأسبوع دون التقيُّد بأن اللَّحن الواطس يختص بأيام من الأسبوع دون غيرها تختص باللَّحن الآدام.

والذُّكصولوجيَّات الواطس والتي يحويها كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة[1]، كلها في النَّص القبطي البحيري، وتُقال في صلوات رفع بخور عشيَّة وفي رفع بخور باكر على مدار السَّنة الطَّقسيَّة. ويتغير نغم ترتيلها خمس مرات على مدار السَّنة الطَّقسيَّة. وتقال هذه الذُّكصولوجيَّات أحياناً عقب مجمع التَّسبحة.

أما الذُّكصولوجيَّات الآدام، والتي يحويها كتاب التَّماجيد، فلا يتغيَّر لحنها على مدار السَّنة الطَّقسيَّة، وهي تُقال في تماجيد العذراء والشُّهداء والقدِّيسين[2]. وهناك ذُكصولوجيَّة باكر آدام تُقال قبل بدء رفع بخور باكر مباشرة، وكانت من قبل تُقال عقب مزامير صلاة باكر، أي أنها

---

١ ـ أول كتاب أبصلموديَّة مقدَّسة سنويَّة مطبوع هو ما قام بطبعه القُمُّص مينا البراموسي في الإسكندريَّة سنة ١٩٠٨م، ومعه وفي نفس السَّنة كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة التي قام بطبعها أفلاديوس بك لبيب في القاهرة.

٢ ـ يكون تمجيد القدِّيسين في أعيادهم عقب انتهاء صلوات رفع بخور عشيَّة.

Cf. Yassa Abd Al ـ Masih, (BSAC), t. IV, *op. cit.*, p. 102.

كانت مرتبطة بمزامير صلاة باكر، وليس بصلوات رفع البخور[٣].

وأحياناً تكون الذُكصولوجيَّات مماثلة أو مطابقة للطُرح، وأحياناً أخرى تتَّفق مع جزء من أحد الثيؤطوكيَّات.

الكتب الكنسيَّة التي تحوي نصوص الذُكصولوجيَّات

توجد الذُكصولوجيَّات في الكتب الكنسيَّة التالية:

- كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة. وطُبعت لأوَّل مرَّة سنة ١٩٠٨م بالإسكندريَّة أولاً، ثم في القاهرة في نفس السَّنة المذكورة. وهذا الكتاب يحوي كماً كبيراً من الذُكصولوجيَّات باللَّحن الواطس بالإضافة إلى عدد قليل منها باللَّحن الآدام مثل ذُكصولوجيَّة آدام للشَّهيدة العفيفة دميانة.

- كتاب التَّماجيد المقدَّسة. وطُبع لأوَّل مرة سنة ١٩٢٢م. ويحوي كماً كبيراً من الذُكصولوجيَّات الآدام، والتي تقال في التَّماجيد المقدَّسة عقب صلوات رفع بخور عشيَّة[٤].

- "كتاب الثيؤطوكيَّات كترتيب شهر كيهك - ⲡⲓⲭⲱⲟⲩ ⲛⲧⲉ ⲛⲓⲑⲉⲟⲧⲟⲕⲓⲁ ⲛⲉⲙ ⲕⲁⲧⲁ ⲧⲁⲍⲓⲥ ⲛⲧⲉ ⲡⲓⲁⲃⲟⲧ ⲭⲟⲓⲁⲕ" لروفائيل الطوخي، وطبعه في روما سنة ١٧٦٤م[٥]، وهي أول ذُكصولوجيَّات مطبوعة للكنيسة القبطيَّة.

- كتاب "خدمة تكريس الكنيسة والمذبح" حسب الطَّقس القبطي. ونشره الأب هورنر G. Horner أسقف سالسبري في لندن سنة ١٩٠٢م.

٣- لتفصيل ذلك ارجع من فضلك إلى كتاب: الأجبية أي صلوات السَّواعي.

4- Yassa Abd Al_Masih, (BSAC), t. IV, *op. cit.*, p. 102.

٥- نقلت أبصلموديَّة أقلاديوس لبيب عن هذا الكتاب ذُكصولوجيَّة الرَّسولين بطرس وبولس، والذُكصولوجيَّة الثانية لمار مرقس الرَّسول، فقط.

ـ كتاب "دلاَّل وترتيب جمعة الآلام وأحد الفصح المجيد"، والذي طبع في القاهرة سنة ١٩٢٠م.

مقدِّمة الذُّكصولوجيَّات الواطس

والذُّكصولوجيَّات الواطس تقال دائماً بعد القطعة الشَّهيرة الخاصة بالسيِّدة العذراء وهي ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ ⲧⲉⲛⲧⲥⲟ (شيري ني تينتيهو) أي "السَّلام لك نسألك ..." وهي قطعة ذات ثمانية أرباع مقسَّمة إلى أربعة أقسام، كل قسم منها ربعان، الرُّبع الأوَّل من كل قسم إعطاء السَّلام للعذراء، والرُّبع الثاني من نفس القسم تضرُّع إليها أن تشفع فينا أمام الرَّب ليغفر لنا خطايانا.

وتقال السِّتة أرباع الأولى من هذه القطعة دجاً، أي بدون لحن. أما الرُّبعان الأخيران أي القسم الأخير منها فيُقال بلحن تتغيَّر نغمته على مدار السَّنة الطَّقسيَّة خمس مرَّات. وأرباع هذه القطعة هي:

- السَّلام لك نسألك أيتها القدِّيسة الممتلئة مجداً العذراء كل حين والدة الإله أم المسيح،
- اصعدي صلواتنا إلى ابنك الحبيب ليغفر لنا خطايانا.
- السَّلام للتي ولدت لنا النور الحقيقي المسيح إلهنا، العذراء القدِّيسة،
- اسألي الرَّب عنا ليصنع رحمة مع نفوسنا ويغفر لنا خطايانا.
- أيتها العذراء مريم والدة الإله القدِّيسة الشَّفيعة الأمينة لجنس البشر،
- اشفعي فينا أمام المسيح الذي ولدته لكي ينعم لنا بمغفرة خطايانا.
- السَّلام لك أيتها العذراء الملكة الحقيقيَّة الحقانية. السَّلام لفخر جنسنا، ولدت لنا عمانوئيل،
- نسألك اذكرينا أيتها الشَّفيعة المؤتمنة أمام ربنا يسوع المسيح ليغفر لنا خطايانا.

ختام الذُّكصولوجيَّات الواطس

وهي ذُكصولوجيَّة تختص بالسيِّدة العذراء. أي أننا نبدأ بمقدِّمة الذُّكصولوجيَّات بأرباع خاصة بالعذراء، وأوَّل ذُكصولوجيَّة تكون للسيِّدة العذراء، وختام الذُّكصولوجيَّات يكون ذُكصولوجيَّة للعذراء القدِّيسة. وهذا يذكرنا بقول الكاهن في نهاية الصَّلوات الاجتماعيَّة: "... وبركة والدة الإله القدِّيسة الطَّاهرة مريم أولاً وآخراً".

وهذه الذُّكصولوجيَّة الختاميَّة هي أربعة أرباع:

- كوني أنت ناظرة علينا في المواضع العالية التي أنت كائنة فيها يا سيدتي ملكتنا كلنا والدة الإله العذراء كل حين.
- اسألي الذي ولدته مخلصنا الصَّالح أن يرفع عنا هذه الأتعاب ويقرر لنا سلامه.
- السَّلام لك أيتها العذراء الملكة الحقيقيَّة الحقانية، السلام لفخر جنسنا، ولدت لنا عمانوئيل.
- نسأل اذكرينا أيتها الشفيعة المؤتمنة أمام ربنا يسوع المسيح ليغفر لنا خطايانا.

أولاً: الذُّكصولوجيَّات التي وصلت إلينا بالنَّص القبطي البحيري

أورد العالم الطَّقسي التقي الأستاذ/ يسى عبد المسيح ثبتاً بكل الذُّكصولوجيَّات الواطس والآدام التي تقال في الكنيسة القبطيَّة بالنَّص القبطي البحيري. وأورد لكل ذُكصولوجيَّة الرُّبع الأوَّل منها، والرُّبع الأخير لها، وعدد الأرباع، بالإضافة إلى ذكر الكلمات اليونانيَّة التي وردت في كل ذُكصولوجيَّة[٦]. واعتمد في ذلك على أبصلموديَّة

6- Yassa Abd Al _ Masih, (BSAC), t. IV, *op. cit.*, p. 20 – 74.

أقلاديوس بك لبيب التي طُبعت في القاهرة سنة ١٩٠٨م[٧]، وكتاب التَّماجيد الذي طُبع في القاهرة سنة ١٩٢٢م.

(أ) الذُّكصولوجيَّات الواطس

بالمقارنة بين ما ورد من ذُكصولوجيَّات في الأبصلموديَّة التي طُبعت سنة ١٩٠٨م، والأبصلموديَّات التي قامت بطبعها جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة المركزيَّة بدءاً من سنة ١٩٤٩م نجد الآتي:

(١) التَّرتيب الذي اتُّبع في تسلسل الذُّكصولوجيَّات واحد في كليهما فيما عدا:

• وضعت أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب بعد ختام الذُّكصولوجيَّات ⲱⲟⲡⲓⲛⲉⲟ ذُكصولوجيَّات أخرى هي:

- ذُكصولوجيَّة الأطفال الـ ١٤٤ ألفاً البتوليين.
- ذُكصولوجيَّة القديس صموئيل المعترف.
- ذُكصولوجيَّة أبا بقطر.
- ذُكصولوجيَّة أي شهيدة أو قدِّيسة.
- ذُكصولوجيَّة الآباء البطاركة إبراهيم واسحق ويعقوب.
- ذُكصولوجيَّة أبا قسطور[٨].

٧- يلزم الإشارة هنا إلى أن هذه الأبصلموديَّة طُبعت طبعة ثانية سنة ١٩٨٦م، بواسطة لجنة التَّحرير والنَّشر بمطرانية بني سويف والبهنسا، وبمراجعة نيافة الأنبا متاؤس. وأغفلت هذه الطبعة الثانية أي إشارة إلى أنها تحوي كثير من الإضافات والتَّعديلات خلافاً لما جاء في الطبعة الأولى لهذه الأبصلموديَّة حين نشرت لأوَّل مرَّة سنة ١٩٠٨م.

٨- أغفلت أبصلموديَّة جمعية نهضة الكنائس هذه الذُّكصولوجيَّة في بعض طبعاتها الحديثة. وهناك كنيسة تُسمى باسم هذا القدِّيس في قرية بردنوها مركز بني مزار محافظة المنيا. وقد أوردت أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب ذُكصولوجيَّتين لهذا القدِّيس

– ذُكصولوجيَّة الشَّهيدة دميانة.

• جاء في أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب ترتيب:

– ذُكصولوجيَّة أنبا موسى الأسود بعد ذُكصولوجيَّة مكسيموس ودوماديوس.

– ذُكصولوجيَّة القدِّيسين المجاهدين لبَّاس الصَّليب قبل ذُكصولوجيَّة الأب البطريرك.

– ذُكصولوجيَّة أنبا ساويرس بعد ذُكصولوجيَّة الأب البطريرك.

(٢) أوردت أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس التي طُبعت أوَّل مرَّة سنة ١٩٤٩م ذُكصولوجيَّات لم ترد في أبصلموديَّة أقلاديوس لبيب التي طُبعت أوَّل مرَّة سنة ١٩٠٨م. وهذه الذُّكصولوجيَّات هي:

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ذك. ثانية لمارمرقس	ⲥ̀ⲛⲣⲁⲛ ⲉⲧⲃⲉⲛ ⲛⲓⲫⲏⲟⲩ̀
ذك. القدِّيسَين بطرس وبولس	Ⲡⲉⲧⲣⲟⲥ ⲡⲓⲁ̀ⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ
ذك. القدِّيس يوحنا الإنجيلي	Ⲓ̅ⲱ̅ⲁ̅ ⲡⲓⲡⲁ̀ⲣⲑⲉⲛⲟⲥ
ذك. ثانية للشَّهيد مارجرجس	Ⲙⲓⲭⲁⲣⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲙⲁⲣⲧⲩⲣⲟⲥ
ذك. ثانية للأمير تادرس الشَّطبي	Ⲁ̀ⲡⲉⲛⲃⲟⲓⲥ Ⲓ̅ⲏ̅ⲥ Ⲡ̅ⲭ̅ⲥ
ذك. للشَّهيد الأمير تادرس المشرقي	Ⲙⲉⲟⲕ ⲟⲩⲛⲟⲩⲧ ⲉⲫⲣⲉⲗⲣⲉⲙ
ذك. ثانية للشَّهيد مارمينا	Ⲙⲉⲟⲕ ⲱ̀ⲛⲓ ⲙ̀ⲙⲁⲣⲩⲣⲓⲧⲏⲥ
ذك. للشَّهيدين سرجيوس وواخس	Ⲱⲁⲣⲟⲩ ⲟⲩⲛⲟⲩ ⲛ̀ⲧⲟⲩⲑⲉⲗⲏ
ذك. الشُّهداء قزمان ودميان واخوهما وأمهم	Ⲉ̀ⲛⲥⲟⲛ ⲛ̀ⲁⲑⲗⲟⲫⲟⲣⲟⲥ
ذك. أنبا صرابامون أسقف نيقية	Ⲱ ⲡⲓⲛⲓⲱ† ⲙ̀ⲫⲟⲥⲧⲏⲣ
ذك. الشَّهيدين أباكير ويوحنا أخوه	Ⲁ̀ⲡⲁⲕⲓⲣ ⲙⲉⲙ Ⲓ̅ⲱ̅ⲁ̅

واحدة واطس والأخرى آدام.

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ذك. الشَّهيدة بربارة والقديسة يوليانة	Πιστωινι ντ†τριας
ذك. الشَّهيدة مارينا	Ϫωερι δε ⲙⲡαρθενος
ذك. القدِّيس القمص أنبا يؤانس القصير	Ακϣωπι ⲥαρⲛοτϥωⲥτηρ
ذك. القدِّيسَين أنبا باخوميوس وثيؤدوروس تلميذه	Ⲛθοκ οτⲙακαριος
ذك. القدِّيس أنبا فريج	Ακεⲙⲡϣα ⲥαραληθως
ذك. القدِّيس أنبا برسوم العريان	Ⲡαρεⲛ θωοτ† ⲛⲁⲙⲉⲛⲣⲁ†
ذك. القدِّيس أنبا تكلا هيمانوت الحبشي	Ⲡⲓⲡⲛⲁ ⲙⲡαρακλητον

أما كتاب الثيؤطوكيَّات الذي طبعه روفائيل الطوخي في روما سنة ١٧٦٤م فقد أورد الذُّكصولوجيَّات الآتية والتي لم ترد في أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب سنة ١٩٠٨م.

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ذك. للقدِّيس يوسف	Ακεⲙⲡϣα ⲥαραληθως
ذك. الرَّسولَين بطرس وبولس[٩]	Πετρος πιαποστολος
ذك. ثانية للقدِّيس مرقس الرسول[١٠]	ⲥ̄ⲛⲣⲁⲛ ετⲃⲉⲛ ⲛιφηοτⲓ
ذك. للقدِّيس أمونيوس[١١] أو أنبا بطرس الشَّهيد الشهير في الكهنة	Ⲉϥⲛⲁⲙοτ† εροκ ⲭε (ⲛιⲙ)
ذك. أنبا صرابامون الأسقف[١٢]	Θωοτ† τηροτ ω ⲛⲓⲗⲁⲟⲥ

٩- هذه الذُّكصولوجيَّة أوردها كتاب الأبصلموديَّة طبعة جمعيَّة نهضة الكنائس.

١٠- نفس الحاشية السابقة.

١١- لستُ أعرف بالتَّحديد من هو القدِّيس أمونيوس المعني هنا.

Cf. Yassa Abd Al - Masih, (BSAC), t. VI, *op. cit.*, p. 44

١٢- وهي غير ذُكصولوجيَّة لنفس القدِّيس وردت في كتاب الأبصلموديَّة طبعة

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ذك. للقدِّيسَين كيرلس ويوحنا	Ⲩⲁⲣⲉⲛⲑⲱⲟⲩⲧ ⲱ ⲛⲁⲙⲉⲛⲣⲁⲧ
ذك. للقدِّيس بيفامون	Ⲓⲟⲧⲉ ⲣⲱⲛ ⲛⲁⲃⲓⲥⲓⲁⲛ
ذك. للشُّهداء الأربعين بسبسطية	Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲱⲧⲉⲛ ⲱ ⲛⲓⲙⲁⲣⲧⲩⲣⲟⲥ
ذك. لأي شهيد	Ⲑⲱⲟⲩⲧ ⲧⲏⲣⲟⲩ ⲱ ⲛⲓⲡⲓⲥⲧⲟⲥ
ذك. لشهيدين أو أكثر	Ⲛⲓⲙⲉⲧⲙⲁⲧⲟⲓ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲫⲏⲟⲩⲓ
ذك. جميع الشُّهداء[١٣]	Ⲛⲓϫⲗⲟⲓ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲙⲁⲣⲧⲩⲣⲟⲥ
ذك. للشُّهداء[١٤]	Ⲉⲱⲱⲡ ⲟⲩⲛ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲣⲱⲙⲓ
ذك. للقدِّيس بلامون	Ⲍⲉⲱⲱ ⲥⲁⲣⲉⲡⲉⲕⲧⲁⲓⲟ (ⲃⲓⲥ)
ذك. للقدِّيس ثيؤدور	Ⲫⲉⲣⲙⲁⲕⲁⲣⲓⲍⲓⲛ ⲙ̀ⲙⲟⲕ
ذك. لإيليا النبي[١٥]	Ⲏⲗⲓⲁⲥ ⲡⲓⲫⲉⲥⲃⲓⲧⲏⲥ
ذك. للقدِّيس أثناسيوس	Ⲡⲓϭⲏⲃⲉ ⲉⲧⲉⲣⲟⲩⲱⲓⲛⲓ
ذك. للقدِّيس بفنوتيوس	Ⲛⲓⲡⲁⲧⲉⲣⲱⲛ ⲛ̀ⲁⲣⲭⲉⲱⲛ
ذك. للقدِّيس كيرلس الكبير	Ⲡⲉⲟⲕ ⲟⲩⲙⲁⲕⲁⲣⲓⲟⲥ
ذك. لقدِّيس معترف	Ⲁⲗⲏⲑⲱⲥ ⲫⲟⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲫⲏⲣⲓ
ذك. أخرى لأي قدِّيس معترف	Ⲁⲗⲏⲑⲱⲥ ⲧⲟⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲫⲏⲣⲓ
ذك. ثالثة لأي قدِّيس معترف	Ⲩⲁⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉⲡⲭⲥ
ذك. لكاهن قديس	Ⲩⲁⲣⲉⲛⲑⲱⲟⲩⲧ ⲛ̀ⲛⲓⲗⲁⲟⲥ
ذك. لأي قديس أو أكثر	Ϩⲁⲛⲛⲓⲱ ⲧ ⲙ̀ⲡⲟⲗⲏⲧⲓⲁ
ذك. أخرى لقدِّيسين أو أكثر	Ⲑⲱⲟⲩⲧ ⲙ̀ⲫⲟⲟⲩ ⲱ ⲛⲓⲡⲓⲥⲧⲟⲥ

جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسية.

١٣- وهي ثلاثة أرباع فقط.

١٤- وهي نفس الذكصولوجيَّة التي وردت في أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب تحت اسم ذكصولوجيَّة للشَّهيد مارمينا.

١٥- ليس في تقليد الكنيسة القبطيَّة أن تقال ذُكصولوجيَّات لأنبياء العهد القديم كموسى وإشعياء وإرميا وحزقيال ... الخ.

وفي الحقيقة يلزم أن تضاف ذُكصولوجيَّات هامة لم تر النُّور حتى اليوم في كتب الأبصلموديَّات المطبوعة مثل ذُكصولوجيَّة القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي، وذُكصولوجيَّة القدِّيس كيرلس الكبير، وذُكصولوجية القدِّيس بفنوتيوس على سبيل المثال.

أما عن ذُكصولوجيَّات الأعياد الكنسيَّة، فإن كتاب الأبصلموديَّة الذي طبعته جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة المركزيَّة بالقاهرة للمرَّة الأولى سنة ١٩٤٩م قد أورد ذُكصولوجيَّات للمناسبات الكنسيَّة المختلفة لم ترد في كتاب الأبصلموديَّة السَّنويَّة الذي طبعه أقلاديوس بك لبيب سنة ١٩٠٨م وهي:

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ما يقال في توزيع شهر كيهك	ⲉⲓⲙⲓⲛⲓ ⲅⲁⲣ ⲇⲉⲛ ⲟⲩⲙⲉⲑⲙⲏⲓ
ذك. برامون الميلاد	ⲡⲓⲛⲁⲩ ⲉⲧⲕⲧⲏⲥⲓⲥ ⲧⲏⲣⲥ ⲙⲫⲟⲟⲩ
ذك. عيد الختان(١٦)	ⲡⲉⲛⲃⲟⲓⲥ ⲓⲏⲥ ⲡⲭⲥ
ذك. برامون الغطاس	ⲟⲩⲛⲓϣ† ⲙⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ
ما يقال في توزيع سبوت وآحاد الصوم المقدس الكبير	ⲟⲩⲛⲓϣ† ⲙⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ
ذك. عيد البشارة	ⲡ ⲫⲓⲱⲧ ⲭⲟⲩϣ† ⲉⲃⲟⲗ ⲇⲉⲛ ⲧⲫⲉ
ذك. سبت لعازر(١٧)	ⲗⲁⲍⲁⲣⲟⲥ ⲡⲓⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ

١٦- وردت هذه الذُّكصولوجيَّة في أبصلموديَّة القس مينا البراموسي التي طُبعت سنة ١٩٠٨م بالإسكندريَّة.

Cf. Yassa Abd Al - Masih, (BSAC), t. VI, *op. cit.*, p. 42

١٧- وردت ذُكصولوجيَّة أخرى في كتاب دلالٍ وترتيب أسبوع الآلام المطبوع في

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ذك. أحد توما	ⲃⲉⲛⲡⲓⲙⲁⲉ ⲏⲛⲉⲑⲟⲟⲩ
ذك. للملاك ميخائيل تقال في أيام الخمسين المقدَّسة	ⲥⲁⲧⲁⲛⲁⲥⲧⲁⲥⲓⲥ ⲛⲧⲉ ⲡⲭ̅ⲥ
ذك. عيد التَّجلي	ⲓⲁⲣⲉⲛⲉⲩⲱⲥ ⲉⲡⲭ̅ⲥ ⲡⲉⲛⲛⲟⲩⲧ

وبخصوص هذه الذُّكصولوجيَّة الأخيرة (ذُكصولوجيَّة عيد التَّجلي) يلزم الإشارة إلى أن أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة قد أضافت ربعين في نهاية الذُّكصولوجيَّة لم يردا في أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب سنة ١٩٠٨م. وبالرجوع إليهما يتَّضح لنا أنهما فعلاً ربعان مضافان بسبب أن الربع الذي يسبقهما مباشرة هو ختام لكثير من الذُّكصولوجيَّات الأخرى وبدايته: ⲧⲉⲛⲥⲱⲥ ⲉⲣⲟⲕ ⲧⲉⲛϯⲱⲟⲩⲛⲁⲕ "نسبِّحة ونمجده ونزيده علواً، كصالح ومحب البشر. ارحمنا كعظيم رحمتك".

وقد تكرَّرت هذه الإضافة أيضاً في ذُكصولوجيَّة عيد الصَّليب حيث أُضيفت أربعة أرباع على الذُّكصولوجيَّة التي وردت في أبصلموديَّة أقلاديوس لبيب، ربعان في البداية والآخران في ثنايا الأرباع الأخرى.

وحين تصدر أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس في طبعاتها المتكرِّرة نجد إضافات تلو إضافات حتى صار لدينا الآن في الكنيسة القبطيَّة عدة طبعات متباينة لكتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة. فهل آن الأوان لإصدار طبعة موحَّدة رسميَّة مصرَّح بها مباشرة من الرِّئاسة

القاهرة سنة ١٩٢٠م، بدايتها ⲑⲱⲟⲩϯ ⲧⲏⲣⲟⲩ ⲱⲛ ⲛⲓⲗⲁⲟⲥ

الكنسيَّة حتى تلتزم بها كل الكنائس في أنحاء البلاد؟.

(ب) الذُّكصولوجيَّات الآدام

ورد كثير من الذُّكصولوجيَّات الآدام في كتاب التَّماجيد المطبوع في القاهرة سنة ١٩٢٠م كما سبق أن ذكرتُ غير مرَّة. ولأنه كتاب غير متداوَل على المستوى الشَّعبي، فقد ظل كما هو دون تطوُّر للذُّكصولوجيَّات التي وردت به، ودون حذف أو إضافة عليها.

ومعظم ذكصولوجيَّات القدِّيسين الواطس التي وردت في كتاب الأبصلموديَّة ورد مقابلها ذكصولوجيَّات آدام في كتاب التَّماجيد المقدَّسة باستثناء الذُّكصولوجيَّات التالية:

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ذك. للثلاثة فتية القدِّيسين	ϩⲁⲛⲥⲉⲛⲥⲉⲛ ⲛⲉⲙ ϩⲁⲛ ⲟⲣⲥⲁⲛⲟⲛ
ذك. أخرى للثلاثة فتية القدِّيسين	Ⲁⲧⲉⲛ ⲛⲓⲁⲅⲓⲟⲥ ⲉϭⲟⲩⲛ ⲱⲁ ⲡⲟⲩⲣⲟ
ذك. للقديس أفلاديوس	Ⲉⲓⲟⲩⲉⲱⲟⲩ ⲫⲁⲓⲱⲓⲛⲓ
ذك. للشهيد أبسخيرون القليني	Ⲫⲏⲉⲟⲩⲁⲡⲁ Ⲥϧⲩⲣⲟⲛ
ذك. للقديس أبالي بن يسطس	Ⲩⲁⲣⲉⲛⲑⲱⲟⲩⲧ ⲛϥⲟⲟⲩ
ذك. للقديسة مارينا	Ⲭⲉⲣⲉ ⲧⲱⲉⲗⲏⲧ
ذك. للقديس إيسيذوروس بن بندلائون	Ⲑⲱⲟⲩⲧ ⲱ ⲛⲓⲗⲁⲟⲥ
ذك. للأربعين شهيداً بسبسطية	Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲓⲙⲁⲣ
ذك. يوليوس الأقفهصي	Ⲉⲫⲉⲥⲟⲥ ⲛⲉⲙ ⲡⲱⲙⲏ
ذك. للقديس فيلوثيؤس	Ⲃⲟⲛ ⲟⲩⲥⲁⲗϫⲓ ⲛⲛⲏⲛⲓ

أما روفائيل الطوخي فقد أورد ذكصولوجيَّات آدام أخرى لقدِّيسين لم ترد في كتاب التَّماجيد المطبوع في القاهرة. وذلك في مؤلَّفه "كتاب الثاوضوكيَّات" الذي طبعه في روما سنة ١٧٦٤م، وهذه الذُّكصولوجيَّات هي:

اسم الذُّكصولوجيَّة	الإستيخون الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة
ذك. للملاك روفائيل	Κεχαραλήθως
ذك. لجميع الملائكة	Χωπωτεν
ذك. أخرى ليوحنا المعمدان[١٨]	Χερεlωα
ذك. يوسف النَّجار[١٩]	Οτπιϣϯ πεπεκταιο

وهذه الذُّكصولوجيَّات التي سبق التَّحدُّث عنها سواء الواطس أو الآدام هي التي وصلت إلينا في النَّص القبطي البحيري، وهو نص لا يعود غالباً لأبعد من القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي.

ثانياً: الذُّكصولوجيَّات التي وصلت إلينا بالنَّص القبطي الصَّعيدي

يبقى أمامنا التَّعرُّف على الذُّكصولوجيَّات التي وصلت إلينا بالنَّص القبطي الصَّعيدي، وهو النَّص الأكثر قدماً، والذي يعود إلى القرن التاسع الميلادي[٢٠].

١٨- وهي غير الذُّكصولوجيَّة الآدام التي وردت بكتاب التَّماجيد

١٩- وهي ذُكصولوجيَّة طويلة تحوي ٢١ ربعاً.

20- Yassa Abd Al - Masih, (BSAC), t. V, *op. cit.*, p. 177.

وفي الحقيقة ليس لدينا حتى الآن من الوثائق ما يدلنا على التَّاريخ الذي استُخدمت فيه الذُكصولوجيَّات لأوَّل مرَّة في الكنيسة القبطيَّة، ولكن القس شمس الرِّئاسة ابن كبر (+ ١٣٢٤م) أشار إلى الذُكصولوجيَّات ثلاث مرَّات في كتابه "مصباح الظُلمة وإيضاح الخدمة" وذلك في الفصول (١٦، ١٨، ١٩).

وإن عدنا لأبعد من ذلك تاريخياً، فلدينا إشارة وثائقيَّة عن استخدام الذُكصولوجيَّات في الكنيسة القبطيَّة في القرن الثاني عشر وذلك في صلوات تنصيب البطريرك البابا غبريال الثاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م)، البطريرك السَّبعون، حيث جاء فيها: "ويقولوا قانون الابصلموديه والذكصلجيه (الذُكصولوجيَّة)"، وكذلك في طقس رسامة الأسقف وردت عبارة: "بعد فروغ السهر والأبصلمودية والذكصلجية (الذُكصولوجيَّة)[٢١]".

وإن توغَّلنا رجوعاً لأكثر من ذلك في أعماق التَّاريخ نجد أنه قد وصل إلينا بعض الذُكصولوجيَّات القليلة في نصها القبطي الصعيدي الذي يعود إلى القرن التاسع الميلادي، وما يؤكِّد ذلك وجود هذه النُصوص القديمة في الجزئين الثالث عشر[٢٢] والرابع عشر[٢٣] من مجموعة مرجان

21- Yassa Abd Al - Masih, (BSAC), t. IV, *op. cit.*, p. 99.

٢٢- عنوان هذا الجزء الثالث عشر هو بالقبطيَّة الصعيديَّة،

Ⲡϫⲱⲱⲙⲙⲉ ⲛ̄ⲛⲉϩⲉⲣⲙⲏⲛⲓⲁ ⲥⲧⲟⲧⲁⲁⲃ

أي: "كتاب التَّفاسير المقدَّسة".

٢٣- عنوان هذا الجزء الرابع عشر بالقبطية الصعيدية هو،

Ⲡϫⲱⲱⲙⲉ ⲛ̄ⲁⲛⲧⲫⲁⲛⲟⲛ ⲉⲧⲟⲧⲁⲁⲃ ⲛ̄ⲛⲉⲙⲁⲣⲧⲩⲣⲟⲥ ⲙ̄ⲙⲛ̄ⲉϩⲟⲟⲩ ⲛ̄ⲛⲟⲩⲁ ⲛ̄ⲛⲉⲧⲟⲧⲁⲁⲃ ⲁⲛⲥϩⲁⲓ ⲥⲟⲩ ⲛ̄ⲥⲁⲛⲉⲧⲉⲣϩⲩ ⲕⲁⲧⲁ ⲟⲉ ⲛ̄ⲧⲁⲛⲉⲥⲁⲥ ⲛ̄ⲧⲉⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ ⲕⲁⲁⲧⲉϩⲣⲁⲓ

أي: "كتاب الدفنار المقدس للشهداء وأعياد القديسين حسب ترتيب آباء

للمخطوطات القبطيَّة[٢٤]، ويعود تاريخها إلى سنة ٦٠٩ ش/ ٨٩٢م. وجدير بالذِّكر أن الذُّكصولوجيَّات التي وردت في الجزء الرَّابع عشر من هذه المجموعة قد تُرجمت إلى اللهجة القبطيَّة البحيريَّة، إلاَّ أن كثيراً من الذُّكصولوجيَّات في لهجتها القبطيَّة البحيريَّة قد أُلِّفت في زمن متأخِّر فيما بعد القرن التَّاسع، وليس لها أصل قبطي صعيدي، ومثال لذلك ذُكصولوجيَّة أنبا برسوما العريان الذي تنيَّح سنة ١٠٣٣ش/ ١٣١٧م.

وفيما يلي نورد ثبتاً بالذُّكصولوجيَّات التي لها نص قبطي صعيدي، ومعروفة لنا الآن سواء في كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة، أو في كتاب التَّماجيد، بعد أن تُرجمت هذه الذُّكصولوجيَّات إلى النَّص القبطي البحيري، وهو النَّص المعروف في الكنيسة الآن.

(أ) الذُّكصولوجيَّات الواطس

- الأربعة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة القديس إسطفانوس رئيس الشَّمامسة وأوَّل الشُّهداء.
- الأربعة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة الشَّهيد مار مينا.
- الثلاثة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة الأب البطريرك.
- الأربعة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة أنبا ساويرس البطريرك.
- الأربعة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة الصَّوم المقدَّس[٢٥].

الكنيسة".

24- Volumes XIII & XIV of the Pierpont Morgan Collection of Coptic Mss.

٢٥- وهي الذكصولوجية التي بدايتها:

ⲧⲛⲏⲥⲧⲓⲁ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲯⲁⲗⲓⲛⲟⲥ ⲛⲉⲱⲟⲩ ⲡⲉ ⲡⲉⲱ† ⲛⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ

"الصوم والصلاة هما خلاص نفوسنا. والطهارة والبر هما اللذان يرضيان الله". والتي وضعت تحت عنوان "ذُكصولوجيَّة ثانية للصَّوم" في كتاب أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة

• الأرباع الخامس والخامس عشر، والتاسع عشر من الذُّكصولوجيَّة التي تُقال في آحاد الصَّوم المقدَّس الكبير(٢٦).

وهذه الذُّكصولوجيَّة في النَّص القبطي الصعيدي جاءت حاوية خمسة أرباع فقط، من بينها الثلاثة أرباع السَّابق الإشارة إليها(٢٧).

• ذُكصولوجيَّة عيد القيامة والخمسين، وجاءت في النَّص الصعيدي خمسة أرباع، وهي تقابل الأرباع ١، ٢، ٤، ٥، ٦ في النَّص القبطي البحيري.

• ذُكصولوجيَّة أخرى تقال في عيد القيامة والخمسين، وتقال في باكر سبت الفرح. ووردت في النَّص الصعيدي خمسة أرباع، حيث جاءت الأرباع ١، ٢، ٤، ٥ تقابل الأرباع الأربعة الأولى من النَّص القبطي البحيري.

• الثَّلاثة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة مار مرقس الإنجيلي.
• الثَّلاثة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة آبائنا الرُّسُل، والتي بدايتها

الكنائس القبطيَّة. ولم ترد هذه الذُّكصولوجيَّة في أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب، ولا في أبصلموديَّة القس مينا البراموسي.

٢٦- وهي الذكصولوجيَّة التي بدايتها:

ⲧⲛⲏⲥⲧⲓⲁ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲱⲛϩⲁⲗ ⲉⲃⲉⲛ ⲟⲩⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲙⲉⲧⲥⲉⲙⲛⲟⲩ

أي: "الصوم والصلاة بطهارة وعفاف، ومحبة بغير غش، هما اللذان يرضيان المسيح". وهي الخامسة بحسب ترتيب أبصلموديَّة جمعية نهضة الكنائس القبطيَّة، والثانية بحسب ترتيب أبصلموديَّة القس مينا البراموسي.

٢٧- هذه الذُّكصولوجيَّات تحوي الآن في النَّص القبطي البحيري خمسة وثلاثين ربعاً بحسب أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب، وأبصلموديَّة القس مينا البراموسي، وستة وثلاثين ربعاً بحسب أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة، حيث أُضيف ربع في منتصف الذُّكصولوجيَّة هو: "بالصَّوم والصَّلاة نال الشُّهداء المجاهدون الإكليل غير المضمحل"، وهو الرُّبع الخامس عشر في هذه الأبصلموديَّة.

Ⲡⲓϣⲟⲣⲡ ϩⲉⲛ ⲛⲓⲁⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ "الأوَّل في الرُّسُل يُدعى سمعان بطرس. هو أيضاً الذي اؤتمن على مفاتيح ملكوت السَّموات".

فهذه العشر ذُكصولوجيَّات السَّابق ذكرها لها نص قبطي صعيدي، أي أنها ذُكصولوجيَّات قديمة، وُجدت مدَّونة في القرن التَّاسع الميلادي، مما يعني أنها كانت معروفة في الكنيسة، ويُصلَّى بها في الصَّلوات الليتورجيَّة قبل هذا التاريخ.

وفي السُّطور القادمة أود أن أعرض مقابلة بين النَّص القبطي الصعيدي والنَّص القبطي البحيري لهذه الذُّكصولوجيَّات العشر، لنقف على أوجه الاختلاف بين النَّصين. وسأكتفي بإيراد التَّرجمة العربيَّة للنُّصوص القبطيَّة سواء الصَّعيديَّة أو البحيريَّة.

وسأدوِّن النَّص القبطي البحيري مترجماً إلى العربيَّة، وتحته مباشرة ما يقابله من اختلافات في النَّص القبطي الصَّعيدي[٢٨].

- **ذُكصولوجيَّة القدِّيس إسطفانوس رئيس الشَّمامسة**

– الشَّهيد المكرَّم[١] الذي لربِّنا يسوع المسيح[٢]، القدِّيس إسطفانوس الذي تأويله الإكليل.
– الذي كشف الله له أسراراً عظيمة واستنار وجهه مثل وجه ملاك.
– الذي رأي السَّموات مفتوحة، وربي يسوع[٣] عن يمين أبيه. والذين يرجمونه كان يطلب عن خلاصهم.

٢٨– ترجمة النَّص القبطي الصعيدي إلى العربيَّة مأخوذة من التَّرجمة الإنجليزية له والتي قام بها الأستاذ يسى عبد المسيح.
Cf. Yassa Abd Al - Masih, (BSAC), t. V, *op. cit.*, p. 186 – 191.

– صارخاً قائلاً: ياربي يسوع المسيح، اقبل روحي إليك، ولا تحسب هذه الخطيَّة على هؤلاء الناس[٤].

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) المقدَّس.
(٢) الذي للمسيح يسوع.
(٣) وها يسوع.
(٤) ولا تحسب عليهم هذه الخطيَّة

• ذُكصولوجيَّة الشَّهيد مار مينا وجميع الشُّهداء

– إذا[١] ربح الإنسان العالم كله وخسر نفسه، فما هي هذه الحياة الباطلة[٢].
– القدِّيس أبا مينا سمع الصَّوت الإلهي ترك عنه العالم كله ومجده الفاسد[٣].
– وبذل نفسه[٤] للموت، وجسده[٥] للنَّار، وقبل[٦] عذابات عظيمة لأجل ابن الله الحي[٧].
– فلهذا رفعه[٨] مخلِّصنا إلى ملكوته[٩]، وأعطاه الخيرات التي لم ترها عين.

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) لأنه إذا.
(٢) فما هو هذا المكسب الباطل.
(٣) الشُّهداء القدِّيسون أطاعوا صوت إلههم، وتركوا العالم ومجده الفاسد.
(٤) وبذلوا نفوسهم.
(٥) وأجسادهم.
(٦) وقبلوا.
(٧) لأجل ابن الله.
(٨) رفعهم.
(٩) أعطاهم.

• ذُكصولوجيَّة أنبا ساويرس البطريرك

– المدبِّر الثابت[١]، المحارب جيداً، الغالب في الحروب[٢]، السِّراج المنير.
– المنادي بالأرثوذكسيَّة هو ساويرس البطريرك[٣]، معلم القطيع النَّاطق

الذي للمسيح.
- اعتقاداتك المستقيمة ضربت في قلوب الهراطقة[٤] مثل سيف ذي حدَّين بقوَّة الثالوث.
- لذلك نرفّعك مع المرتِّل قائلين: أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملشيصادق[٥].
- كل ركبة جثت للرَّب[٦] وكل لسان سبَّحه، ومجد الله اتسع وملأ وجه المسكونة
- ...[٧]

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) المكرَّم.
(٢) القتالات.
(٣) المطوَّب.
(٤) اعتقاداتك المقدَّسة حاربت الهراطقة.
(٥) ... (لم يرد بكامله).
(٦) عبدت الله.
(٧) مباركٌ الآب والابن والرُّوح القُدُس الثالوث الكامل في إله واحد.

وجدير بالملاحظة أن هذه الذُّكصولوجيَّة تبدأ بكلمة "المدبِّر" وهي في القبطيَّة **Пικεβερνιτης** (بيكيفيرنيتيس). وكثيراً ما تتكرَّر هذه الكلمة في الكتب الطَّقسيَّة حين نقرأ مثلاً أن (كذا) يُقال بطريقة **Пικεβερνιτης** والمقصود هو الطريقة السَّنويَّة. فانظر إلى أي مدى صارت الكلمة الأولى من ذُكصولوجيَّة الأنبا ساويرس الأنطاكي معياراً يُطلق على أحد الطرائق الخمس الرَّئيسيَّة في الكنيسة القبطيَّة!.

• ذُكصولوجيَّة الأب البطريرك

نلت نعمة موسى وكهنوت هارون وأخذت كرامة أبينا[١] بطرس بكر الرُّسل.
- رفع المسيح يده اليمنى على رأسك وائتمنك على مفاتيح ملكوت

السَّموات.
- لتصير مدِّبراً على الكنيسة[٢] وترعى[٣] شعبك بطهارة وبر ⲟⲩⲙⲉⲑⲙⲏⲓ[٤].
- ...[٥]

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) لم ترد كلمة "أبينا".
(٢) على الكنائس.
(٣) وتدبِّر.
(٤) وبر ⲉⲛⲧⲁⲓⲕⲁⲓⲟⲥⲩⲛⲏ (أو بعدل) وسلام.
(٥) أضافت هذه الذُّكصولوجيَّة ثلاثة أرباع في نصها البحيري لم ترد في النَّص الصعيدي، والرُّبع قبل الأخير منها جاء: "كذلك نرفعك مع المرتِّل داود قائلين: أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملشيصادق".

• ذُكصولوجيَّة الصَّوم المقدَّس الكبير

- الصَّوم والصَّلاة هما خلاص نفوسنا[١]. والطَّهارة والبر[٢] هما اللَّذان يرضيان الله[٣].
- الصَّوم هو الذي رفع موسى على الجبل حتى أخذ لنا النَّاموس من قِبَل الرَّب الإله[٤].
- الصَّوم هو الذي رفع إيليا إلى السَّماء وخلَّص دانيال من جب الأسود.
- ربُّنا يسوع المسيح صام عنَّا أربعين يوماً وأربعين ليلة[٥] حتى خلَّصنا من خطايانا[٦].

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) غفران خطايانا.
(٢) والطهارة والسَّلام.
(٣) نعاين بهما الله.
(٤) الله.
(٥) لا وجود لعبارة "أربعين يوماً وأربعين ليلة".
(٦) حتى يعلِّمنا الطريق التي نخلص بها.

• ذُكصولوجيَّة أخرى للصَّوم المقدَّس

وهي ذُكصولوجيَّة طويلة تحوي ٣٥ (أو ٣٦ في طبعات أخرى) ربعاً في نصها القبطي البحيري. أما النَّص القبطي الصعيدي لها فيشمل خمسة أرباع فقط. والأرباع الأول والثاني والخامس في النَّص القبطي الصعيدي، تقابل الأرباع الخامس والخامس عشر والتاسع عشر في النَّص القبطي البحيري بحسب أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب في طبعتها الأولى سنة ١٩٠٨م.

وإن وجود ثلاثة أرباع فقط في النَّص القبطي الصعيدي تشابه أرباعاً بهذا العدد الكبير في النَّص القبطي البحيري لا تكفي للحُكم الواضح على قِدَم هذه الذُّكصولوجيَّة.

والأرباع الثلاثة السَّابق ذكرها في النَّص القبطي البحيري هي:

- الصَّوم والصَّلاة هما سلاح الغلبة، وهما اللَّذان يسلك فيهما المسيحيون[١].
- صام دانيال فأغلق أفواه الأسود، فلم تمس جسده[٢] من أجل الصَّلاة والصَّوم[٣].
- ...[٤]
- أبانا الذي في السَّموات، ليتقدَّس اسمك، ليأت ملكوتك. لأن لك المجد والإكرام[٥].

المقابلة مع النَّص الصَّعيدي:

(١) ... هما سلاح اليقظة والقداسة، اللَّذان بهما يحارب المسيحيون.
(٢) فلم تقدر أن تلتهمه.
(٣) لأنه وجد صائماً.
(٤) الرُّبع الثالث: "ربُّنا يسوع المسيح علَّمنا قائلاً: إن الصَّوم والصَّلاة يطردان الشياطين".
الرُّبع الرابع: "فلنصلي بحكمة قائلين".
(٥) ... المجد إلى الأبد.

• ذُكصولوجيَّة عيد القيامة والخمسين

– حينئذ امتلأ فمنا فرحاً ولساننا تهليلاً، لأن ربَّنا يسوع المسيح[١] قام من بين الأموات.
– بقوته أبطل الموت، وجعل الحياة تضيء لنا، وهو أيضاً الذي مضى إلى الأماكن التي أسفل[٢] الأرض.
– بوابو الجحيم رأوه وخافوا. وأهلك طلقات الموت، فلم تستطع أن تمسكه[٣].
– سحق الأبواب النَّحاس، وكسر المتاريس الحديد، وأخرج مختاريه بفرح وتهليل[٤].
– وأصعدهم[٥] معه إلى العلو إلى مواضع راحته. خلّصهم لأجل اسمه، وأظهر قوته لهم.
– فلهذا نحن أغنياء بالخيرات الكاملة، وبإيمان نرتل قائلين: الليلويا.

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) لم ترد كلمة "المسيح".
(٢) أعماق.
(٣) لم يرد هذا الرُّبع بالكامل.
(٤) أخذهم.
(٥) لم ترد كلمة "لهم".

• ذُكصولوجيَّة لقيامة مخلّصنا وصليبه

وجاء عنوان هذه الذُّكصولوجيَّة في أبصلموديَّة سنة ١٩٠٨م: "وأيضاً ذُكصولوجيَّة أخرى لعيد القيامة والخمسين، ويليق بهذه الذُّكصولوجيَّة أن تقال في يوم سبت الفرح أيضاً".

– الذي عال إسرائيل أربعين سنة في البريَّة وأعطاهم المن خبز الملائكة ليأكلوا[١].
– عوض المن أعطوه[٢] خلاً ومراً. وبدل الخيرات جعلوا إكليل شوك

على رأسه.
- ...[٣]
- كُفِّن ووُضع في القبر الكائن خارج المدينة[٤]، وقالوا بجهلهم إن هذا لا يستطيع أن يقوم بعد.
- باكر[٥] أحد السُّبوت قام المسيح[٦] من بين الأموات، ورد أعداءه إلى خلف وأعطاهم عاراً أبدياً[٧].

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) ... وأعطاهم المن فأكلوا خبز الملائكة.
(٢) قدَّموا لفمه.
(٣) الرُّبع الثالث في النَّص القبطي الصعيدي: "هزأوا به واقتادوه إلى الجلجثة الموضع الذي صلبوه فيه، وصلبوا معه أيضاً لصَّين".
(٤) مدينتهم.
(٥) في.
(٦) يسوع.
(٧) ... من بين الأموات، وصعد إلى السَّموات، وجلس عن يمين أبيه.

ويلاحظ القارئ العزيز أن النَّاسخ من القبطي الصعيدي إلى القبطي البحيري، لم يدوِّن حدثي الصُّعود والجلوس عن يمين الآب. ومن المعروف أن الرَّب بعد قيامته صعد مباشرة إلى السَّماء، ليتراءى أمام الله الآب من أجلنا، وظل تردُّده بين السَّماء والأرض على مدى أربعين يوماً من بعد قيامته، ليظهر للَّذين أختارهم شهوداً لقيامته، حتى كان صعوده النِّهائي إلى السَّماء. فالنَّص القبطي الصعيدي نص دقيق ينم عن دراية وإلمام كنسيين.

ويلزم الإشارة إلى أن تعبير "أحد السُّبوت"، وهو في القبطيَّة: ⲙⲓⲟⲩⲁⲓ ⲛⲧⲉ ⲛⲓⲥⲁⲃⲃⲁⲧⲟⲛ أي: "اليوم الأوَّل من الأسبوع" الذي هو يوم الأحد.

• ذُكصولوجيَّة للقدِّيس مرقس الإنجيلي

- يا مرقس الرَّسولَ والإنجيلي الشَّاهد لآلام الإله الوحيد[١].
- أتيتَ[٢] وأنرتَ لنا بإنجيلك، وعلَّمتنا الآب والابن والرُّوح القُدُس.
- وأخرجتنا من الظُّلمة إلى النُّور الحقيقي[٣]، وأطعمتنا خبز الحياة الذي نزل من السَّماء.

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) الابن الوحيد.
(٢) لم ترد كلمة "أتيت".
(٣) لم ترد عبارة: "إلى النُّور الحقيقي"، وجاء بدلاً منها: "وكنَّا جلوس في ظل الموت".

• ذُكصولوجيَّة لأجل آبائنا الرُّسل القدِّيسين

- الأوَّل في الرُّسل يُدعى سمعان[١] بطرس، هو أيضاً الذي اؤتمن على مفاتيح ملكوت السَّموات[٢].
- وآخر أيضاً يُدعى يوحنا، يحبه جداً، اتكأ على صدر مخلِّصنا[٣].
- وبقيَّة التَّلاميذ لهم الكرامة من أجل رسوليَّتهم[٤] لأنهم تبعوا[٥] مخلِّصنا.

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) لم ترد كلمة "سمعان".
(٢) ... اؤتمن على أساسات الكنيسة.
(٣) ... صدر يسوع.
(٤) ... الكرامة التي هي الرَّسوليَّة.
(٥) مشوا مع.

(ب) الذُّكصولوجيَّات الآدام

أما عن الذُّكصولوجيَّات الآدام التي لها نص قبطي صعيدي، والتي

تعود إلى القرن التاسع أو ما قبله، فليس لنا منها سوى ذُكصولوجيَّة للقدِّيس يوحنا المعمدان، تحوي ثلاثة أرباع، ووصلت إلينا في النَّص القبطي البحيري في خمسة أرباع. علماً بأن ذُكصولوجيَّة باكر آدام تُعدُّ من أقدم الذُّكصولوجيَّات الآدام، بل أقدمها على الإطلاق.

• ذُكصولوجيَّة آدام للقدِّيس يوحنا المعمدان

– كلمة الرَّب صارت إلى يوحنا بن زكريا في البريَّة.
– قائلاً: قم امضِ إلى الأردن لتعمِّد هناك[١] بمعموديَّة[٢] التَّوبة.
– عمَّد الجمع[٣] وشهد لهم أن الذي يأتي بعدي أقوى مني.

المقابلة مع النَّص القبطي الصَّعيدي:

(١) ... لتعمد الجموع.
(٢) بماء التوبة.
(٣) عمدهم.

وإنه لم دواعي اعتزاز الكنيسة القبطيَّة بطقوسها وتقليدها اللِّيتورجي، أنها من أكثر الكنائس تمسُّكاً بالقديم، برغم أن قوات الجحيم تكاتفت لتمحو اتصال القرون فيها، وتقطع أوصال ماضيها بحاضرها. وهي إذ لم تستطع كوعد الرَّب، لكن كان الثمن غالياً، دفعه الأقباط دماً وآلاماً واضطهاداً وتشريداً. كم من أبطال مجهولين ظلُّوا ينسخون كتب الكنيسة وصلواتها بصبر لا يعرف الكلل. وها أنت ترى أن مخطوطات الكنيسة القبطيَّة تملأ مكتبات العالم، بل جعلت منها مكتبات، بل ولازالت حتى الآن تحوي في باطنها كنوزاً تضافر جمهرة من العلماء ليظهروا جانباً يسيراً منها إلى النُّور. ولكن ستظل المخطوطات القبطيَّة الشَّريدة في بقاع الدُّنيا والتي كتبها أقباط الأمس تنتظر همَّة أقباط اليوم. فهل من وصال؟.

الذُّكصولوجيَّات في الكنيسة اليونانيَّة

أما في الكنيسة اليونانيَّة، فهناك كثير من الألحان والتَّسابيح التي تُقال للشُّهداء والقدِّيسين أيضاً، ولكنها لا تُسمى ذُكصولوجيَّات بمثل تسميتها في الكنيسة القبطيَّة. ولكن في المقابل هناك في الكنيسة اليونانيَّة ذكصولوجيَّتان مشهورتان:

الأولى: تُسمى "الذُّكصولوجيَّة الصُّغرى" أو "المجدلة الصُّغرى"، وتُدعى في اليونانية Η Μικρὰ Δοξολογία وهي تبدأ بعبارة " Σοὶ πρέπει δόξα – يليق بك المجد ...". وهي تُقال في الأصوام وفي خمسة أيام أسبوع الآلام (من الاثنين إلى الجمعة).

والثانية: تُسمى "الذُّكصولوجيَّة الكُبرى" أو "المجدلة الكبرى the great doxology "، وتُدعى في اليونانيَّة Η Μεγάλη Δοξολογία والتي تبدأ بعبارة "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام ..."، وهي تُرتَّل في الآحاد والأعياد السَّيديَّة، وأعياد العذراء، وتذكارات القدِّيسين، وهي تُقال في خدمة صلاة باكر ὄρθρος [٢٩].

ولقد أوردتُ النَّص الكامل لهاتين الذُّكصولوجيَّتين اليونانيَّتين باللُّغة العربيَّة، وذلك في كتاب "صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر"، أثناء الحديث عن الذُّكصولوجيَّات.

29_ Yassa Abd Al _ Masih, *Doxologies in the Coptic Church,* Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (B S A C), t. IV, 1938, p. 107.

الختام

وبعد هذا العرض التَّفصيلي للذُّكصولوجيَّات، لابد من الإشارة هنا مجدَّداً إلى أن الذُّكصولوجيَّات الواطس هي عنصر ليتورجي يختص بصلوات رفع البخور سواء في عشيَّة أو باكر، أكثر من كونه عنصراً ليتورجياً يختص بتسبحة نصف اللَّيل. ولعل القارئ العزيز يلاحظ أن موقع الذُّكصولوجيَّات الواطس في كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة بعيد عن المجمع، وليس تالياً له مباشرة.

وبانتهاء ترتيل المجمع والذُّكصولوجيَّات تنتهي تسبحة نصف اللَّيل، لكي تبدأ بعدها مباشرة تسبحة السَّحَر بأقسامها الرئيسيَّة الأربعة، وهي الهوس الرَّابع وإبصاليَّة اليوم، وثيؤطوكيَّة اليوم، وختام الثيؤطوكيَّات.

وهذه التَّسبحة (تسبحة السَّحَر) وبنفس أقسامها المذكورة تسبق كل خدمة صلاة رفع بخور في الكنيسة سواء في عشيَّة أو في باكر. فإن كانت سابقة لرفع بخور باكر فهي تسبحة السَّحَر، وإن كانت سابقة لرفع بخور عشيَّة فهي تسبحة عشيَّة.

على أنه لا تجوز صلاة رفع بخور عشيَّة أو صلاة رفع بخور باكر دون التَّسبحة السَّابقة والمهيِّئة لصلوات رفع البُخور.

البَاب الثَّالث

الطَّقس القبطي لتسبحة السَّحَر

الفَصل الأوَّل

لمحة موجزة عن تسبحة السَّحَر
في الكنائس الشَّرقيَّة المختلفة

تمهيد

ظلّت صلاة السَّحَر أو تسبحة السَّحَر في الكنيسة القبطيَّة خدمة صلاة قائمة بذاتها تبتدئ بالبداية التَّقليديَّة لأي صلاة طقسيَّة "إبشويس إبشويس ناي نان، هلليلويا، خين إفران ... ذُكصابتري ...". وكانت تسبحة السَّحَر بمزاميرها الثلاثة الشَّهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) محسوبة ضمن السَّبع صلوات النَّهاريَّة واللَّيليَّة قبل أن يحل محلّها صلاة باكر التي نعرفها اليوم، حيث انضمَّت صلاة السَّحَر أو تسبحة السَّحَر إلى تسبحة نصف اللَّيل لتُسمى "تسبحة نصف اللَّيل"، ولكن ظلّ اعتراض المجمع والذُّكصولوجيَّات وختامها بين الهوس الثَّالث والهوس الرَّابع شاهداً طقسياً على إستقلاليَّة تسبحة السَّحَر عن تسبحة نصف اللَّيل في الأصول الأولى للتَّسبحة اليوميَّة.

وقبل أن نتحدَّث عن سرعة انتشار التَّسبيح بالمزامير الثلاثة الأخيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) في كافة العالم المسيحي شرقاً وغرباً في صلاة الصَّباح في الفَصل التالي مباشرة، نشير هنا في عبور عابر ودون خوض في تفصيلات فرعيَّة إلى تسبحة السَّحَر في الكنائس الشَّرقيَّة المختلفة.

صلاة السَّحَر في الطَّقس السِّرياني الأنطاكي

في هذا الطَّقس توجد خدمتان لصلاة السَّحَر، وتسميان "خدمة صلاة السَّحَر الأولى" Priemier Office du Matins ، و"خدمة صلاة السَّحَر الثَّانية" Deuxième Office du Matins وهذه الأخيرة تُسمى في السِّريانيَّة Safro (صافرو).

وصلاة السَّحَر في الأيام تختلف عنها في الآحاد. فتحوي صلاة السَّحَر الأولى تسبحة العذراء: «تعظم نفسي الرب ...»، مع قرار يردَّد خلال هذه التَّسبحة. ثم المزمور (١٣٢)[١]، ويعقبه المزامير الثَّلاثة الشَّهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) ثم المزمور (١١٦). ثم خدمة مختصَّة بالعذراء مريم أو قدِّيس اليوم، ويعقبها تسبحة الملائكة: "المجد لله في الأعالي ..." Gloria in excelsis .

أما خدمة السَّحَر الثَّانية، فتبدأ بالمزمور الخمسين، ثم تسبحة العذراء، ويعقبها المزمور (١٦٢)، ثم المزامير (١١٢، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١١٦). ثم خدمة صلاة بسيطة تتغيَّر مع أيام الأسبوع.

وفي الآحاد خصوصاً يُضاف المزمور الثَّامن عشر بعد المزمور الخمسين، ويعقبهما المزمور الثَّاني والسِّتِّين، وتسبحة إشعياء النَّبي. ولا يُقال المزمور (١١٢)، ويُضاف فصل من الإنجيل المقدَّس.

ومن الملاحظ أن خدمة صلاة السَّحَر الأولى في الطَّقس السِّرياني الأنطاكي أصولها القديمة مبهمة، وذلك بسبب بعض الإضافات الحديثة التي أُضيفت على هذه الصَّلاة في أزمنة متتابعة[٢].

١- كل أرقام المزامير هي بحسب الترجمة السبعينية ما لم يُذكر غير ذلك.

2- Mateos, J., S.I., *Lelya - Sapra, Les Matines Chaldéenes, Maronites et*

ونلاحظ هنا وجود المزمور الخمسين في صلاة السَّحَر، والقـــدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) تكلَّم عن ترتيل هذا المزمور في صلاة السَّحَر كطقس شائع في أيامه. وكذلك المزمور (٦٢) «يا الله إلهي إليك أبكر، لأن نفسي عطشت إليك ...» يدعوه ذهبي الفم مزمور السَّـــحَر، أو مزمور باكر النَّهار Le psaume matutinal [٣].

صلاة السَّحَر في الطَّقس السِّرياني التكريتي

وهو الطَّقس الذي يُمارس في العراق. فعنده أيضاً ازدواج في صلاة السَّحَر. صلاة السَّحَر الأولى وهي قديمة تحوي المزمور الخمسين، ويعقبه المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) ثم المزمور (١١٦). بينما صلاة السَّحَر الثانية والتي أُضيفت تحت تأثيرات سريانيَّة أنطاكية، فتحوي إلى جانب المزمور الخمسين، المزمور (٩٩)، ويعقبه المزامير (١١٢، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١١٦).

وتختلف صلاة السَّحَر في الطَّقس التكريتي في الأيام العادية عن أيام الصَّوم المقدَّس الكبير. إذ تُضاف تسبحات أخرى مثل تسبحة زكريـــا، وتسبحة العذراء. بينما في آحاد الصَّوم يُضاف المزمور (١١٨) وفصل من الإنجيل المقدَّس.

إن الطَّقس السِّرياني التكريتي هو طقس غير معروف. فمخطوطاتـــه نادرة في مكتبات أوروبا، ولا يوجد منـــها ســـوى اثنـــتين في مكتبـــة الفاتيكان. وهو طقس لا يعرف صلاة باكر Prime . ويختلف عن طقوس الموارنة والسِّريان الأنطاكيين. ولكن تأثير أنطاكية على الطَّقس التكريتي كان منذ القرن الثامن، وربما قبل ذلك، إبان الفترة التي رحل فيها رُهبان

Syriennes, (OCP), t. 26, 1960, p. 59.

3- *Ibid*, p. 62.

ما بين النَّهرين إلى سوريا لزيارتها، وعادوا منها إلى بلادهم ومعهم تراتيل وأناشيد شعريَّة أنطاكيَّة، وممارسات وطقوس سريانيَّة أنطاكيَّة. والمثل الواضح أمامنا هو تأثر صلاة السَّحَر الثانية في الطَّقس السِّرياني التكريتي بصلاة السَّحَر السِّريانيَّة الأنطاكيَّة.

صلاة السَّحَر في الطَّقس السِّرياني الآشوري

وهي تُسمى في هذا الطَّقس Sapra (صابرا). وتبدأ بالمزامير (٩٩، ٩٠، ١٠٣، ١١٢، ٩٢)، ثم يعقبها المزامير الشهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١١٦). وفيها أيضاً تُقال ألحان تدور حول بزوغ نور النَّهار. وتُقال أيضاً تسبحة زكريا الكاهن Benedicite «مبارك أنت أيها الرَّب ...»، ثم "المجد لله في الأعالي ..." Gloria in excelsis ، ثم لحن الثلاثة تقديسات Trisagion .

صلاة السَّحَر في الطَّقس الماروني

هناك خدمتان لصلاة السَّحَر، واحدة نبعت من الأديرة، والأخرى ظهرت في كنائس المدن. وصلاة السَّحَر كونها هي الجزء الأخير من السَّهَر اللَّيلي، فلدينا في طقوس بعض الكنائس الشَّرقيَّة ما يُسمى السَّهَر اللَّيلي الدَّيري Vigil Monastique والسَّهَر اللَّيلي الكاتدرائي Vigil Cathédrale [٤].

وتحوي صلاة السَّحَر التي تعقب السَّهَر اللَّيلي الدَّيري ضمن ما تحوي تسبحة زكريا، ويعقبها المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١١٦). بينما صلاة السَّحَر التي تعقب السَّهَر الكاتدرائي فتحوي تسبحة العذراء

٤- هذا التأثير المتبادل بين الطقوس الديرية والطقوس الكاتدرائية موجود في جميع الطقوس، ولكن بدرجات متفاوتة.

«تعظم نفسي الرَّب ...» Magnificat ، والمزامير (٦٢، ٩٠، ٥٠)، ولحن للقدِّيس أفرآم السِّرياني، ثم تسبحة زكريا، ويعقبها المزامير الشَّهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١١٦).

وصلاة السَّحَر المارونيَّة في الآحاد والجمع تختلف قليلاً عنها في باقي أيام الأسبوع، حيث في أيام الأسبوع العاديَّة لا تُقال المزامير (٩٠، ٥٠)، وكذلك تسبحة زكريا الكاهن.

فالعناصر الليتورجيَّة التي تكون السَّهَر الكاتدرائي والتي ظلت باقية في الخدمة اليوميَّة لصلاة السَّحَر، وهي تسبحة العذراء والمزمور (٦٢)، وتلك التي أُلغيت أو حُذفت في غير الآحاد والجمع وهي المزمور الخمسين وتسبحة زكريا، تظهر لنا أن خدمة السَّحَر اليوميَّة هي تصغير أو إدماج لخدمة السَّحَر في الأعياد، والتي تُقال في الآحاد والجُمع[٥].

صلاة السَّحَر في الطَّقس البيزنطي

تبدأ تسبحة السَّحَر باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، يعقبها الثَّلاثة تقديسات "قدوسٌ الله ..."، ثم الصَّلاة الربيَّة، واثني عشر "يارب ارحم"، وثلاث مرات "هلمَّ نسجد ..."، ثم المزمورين (١٩،٢٠). وهذا التَّرتيب يكون في أيام الصَّوم.

ولكن في غير أيام الصَّوم تبدأ صلاة السَّحَر بعبارة "تبارك الله"، ثم ثلاث مرات "هلمَّ نسجد ..."، ثم المزمورين (١٩، ٢٠).

وبعد طروباريَّات وثيؤطوكيون تقال ستة مزامير يسبقها المجدلة

5- Mateos, J., S.I., *op. cit.*, p. 59.

الكبرى "المجد لله في الأعالي ...". وهذه المزامير هي (٣، ٣٧، ٦٢، ٨٧، ١٠٢، ١٤٢). ثم تُقال طروباريَّة العيد المتّفق أو طروباريَّة قدِّيس اليوم. وإن كان يوم أحد فتُقال طروباريَّة القيامة.

ثم تُرتَّل التَّسابيح الثالوثيَّة[٦]، باللَّحن المتّفق في ذلك الأسبوع. ثم المزمور الخمسين، ويعقبه التَّسابيح التِّسع أو بعض إستيخونات منها. أما في أيام الآحاد والسُّبوت، فيُقال بعد المزمور (١١٨) إفلوجيطاريا القيامة يتخلَّلها القرار: "مباركٌ أنت يارب علمني حقوقك".

ثم تقال الفوطاغوجيكا والإكسابستلاريات المعينة لأيام الأسبوع، ثم تأتي المزامير الشَّهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠). يعقبها المجدلة الكبرى "المجد لله في الأعالي ..."، والثلاثة تقديسات وما يتلوها.

وتسبحة السَّحَر في الطَّقس البيزنطي في أيام الآحاد تختلف عنها في أيام الأسبوع وكذلك في أيام الصَّوم تزاد عليها صلوات أخرى وميطانيات كبار وصغار[٧]. وإفشين يقال سراً للقدِّيس أفرآم السِّرياني:

"أيها الرَّبّ وسيِّد حياتي. اعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرِّئاسة والكلام البطَّال، وأنعم عليَّ أنا عبدك بروح العفَّة واتضاع الفكر والصَّبر والمحبَّة. نعم يا ملكي وإلهي، هب لي أن أعرف زلاتي، ولا أدين أخي، فإنك مباركٌ إلى دهر الدَّاهرين، آمين".

٦- التَّسابيح الثالوثية سُميت كذلك لأن كل تسبحة منها تشمل ثلاثة أجزاء أو ثلاثة قطع. الأولى تُختم بـ "ذكصابتري ..."، والثانية تُختم بـ "كانين ...". والقطعة الثالثة ليس لها مرد. تماماً مثل قطع الأحبية في الطقس القبطي. وهناك ثمانية تسابيح ثالوثية مرتبة على الثمانية ألحان البيزنطية حيث ترتل هذه التَّسابيح الثالوثية بأحد هذه الألحان حسب وقوع الأسبوع الموافق لهذا اللحن.

٧- الميطانية الكبرى سجود كامل إلى الأرض، والميطانية الصُّغرى إحناء الرأس في وضع الوقوف.

ويعقب صلاة السَّحَر مباشرة السَّاعة الأولى من النَّهار، وهي صلاة باكر حيث تبتدئ مباشرة بـ "هلمُّوا لنسجد ..." ثلاثاً ويعقبها المزامير[٨].

تعقيب ختامي

مما يلفت نظرنا فيما سبق إيراده، هو ملازمة المزمور (١١٦) لمزامير السَّحَر (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) في كل الطقوس الشرقية عدا الطَّقس البيزنطي، حيث يأتي المزمور (١١٦) غير مرتبط بالمزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) والتي تشكل الهوس الرَّابع في تسبحة السَّحَر القبطيَّة. إلاَّ أن هذا المزمور (١١٦) في الطَّقس القبطي لا وجود له في تسبحة السَّحَر القبطيَّة، ولكنه يأتي سابقاً لهذه الثلاثة مزامير الشَّهيرة وبلحن جميل في تسبحة عشيَّة. والغريب أن نص هذا المزمور ظل لا يُدوَّن في أي أبصلمودية مقدَّسة مطبوعة حتى إلى زمن قريب، حين تم تدارك هذا الأمر.

فهذا المزمور (١١٦) يأتي في الطَّقس القبطي سابقاً على المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) وليس تابعاً لها كما في كافة الطقوس الشَّرقيَّة، وهي نقطة طقسيَّة لم يتعرَّض لها أحد بالدراسة، و لم أتمكَّن من العثور على أسباب تاريخيَّة لها.

٨- كتاب السَّواعي الكبير، مرجع سابق، ص ٤٠ - ٩٤

الفَصل الثَّاني

الهـــوس الرَّابع

من طقوس الكنائس الشَّرقيَّة المختلفة نتيقَّن من أن المزامير الثلاثة الشَّهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) والتي نسميها في الكنيسة القبطيَّة "الهوس الرَّابع" هي مزامير الصَّباح في جميع الكنائس، شرقيَّة وغربيَّة بدون استثناء[١]. فالطَّقس البيزنطي لازال يحفظ المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) كمزامير صلاة باكر في هذا التَّقليد. والطَّقس الآشوري الذي لا يعرف حتى اليوم صلاة السَّاعة الأولى من النَّهار Prime أي صلاة باكر، تحتل فيه المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) - بالإضافة إلى المزمور (١١٦) - خدمة تسبيح صباحيَّة Matins كخدمة قائمة بذاتها، وليست ملحقة على تسبحة السَّهَر اللَّيلي Vigil nocturne [٢].

ومع حلول القرن الرَّابع كانت المزامير (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) معروفة في كافة كنائس الشَّرق المسيحي. فالهوس الرَّابع كان معروفاً في تسبحة السَّحَر في الكنيسة القبطيَّة في زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م)[٣]. والقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م) يشير إلى هذه المزامير الثلاثة الشَّهيرة في صلاة الصَّباح، حين يتحدَّث واصفاً التَّقليد الرَّهباني الأنطاكي، فيقول:

1- Chevetogne, *La prière des Heures des 'Eglises de rite byzantin*, Chevetogne, 1975, p. 186 – 190.

2- Mateos, J., S.I., *Lelya - Sapra, Les Matines Chaldéenes, Maronites et Syriennes*, (OCP), t. 26, 1960, p. 51, 54.

3- Mateos, J., S.I., *Office de Miniut et Office du Matin chez St. Athanase*, dans (OCP), t. 28, op. cit., p. 178.

[... وعلى مثاله (أي مثال داود) ينشد الرُّهبان مع الملائكة، لأن أصوات الملائكة تختلط بهذه الإيقاعيَّة "سبِّحوا الله في السَّموات" (٤)].

والقدِّيس يوحنا كاسيان الذي وصف عادات رهبان بيت لحم، يقول أيضاً:

[... وحتى اليوم مازال الرُّهبان ينشدون في آخر الأسهار اللَّيلية – التي تنتهي عادة بعد صياح الدِّيك وقبل الفجر – الأناشيد التي حُفظت في هذه المنطقة لاحتفال الصَّباح، وهذه الأناشيد هي المزمور ١٤٨ الذي بدؤه «سبِّحوا الله في السَّموات» والمزامير التي تليه].

ومن المعروف أن كاسيان نقل إلى دير بيت لحم ما شاهده هو بنفسه في أديرة صحراء مصر كما يخبرنا هو ذاته.

ففي الحقيقة لم تكن هناك ممارسة طقسيَّة انتشرت بين جميع الكنائس شرقاً وغرباً، واتفقت عليها كل الكنائس بهذه الدِّقة، مثل ممارسة ترتيل هذه المزامير الثلاثة الأخيرة من سفر المزامير. والسَّبب في ذلك هو أن هذه المزامير تراث قديم عرفته العبادة في المجمع اليهودي في تسبحة الصَّباح، وانتقل هذا التُّراث كما هو إلى العالم المسيحي ليحتل في الكنيسة المسيحية نفس موضعه اليهودي القديم في تسبحة الصَّباح المسيحيَّة.

ففي منتصف القرن الثاني المسيحي، تكلَّم الرَّابي يوسف بن شالافتا Joseph bar - Chalafta في كتاب التَّلمود البابلي Babylonian Talmud (ص ١١٨٦) عن نظام العبادة في المجمع اليهودي في يوم السَّبت، وأشار

4- *Ibid*, p. 178.

إلى استخدام السِّتة مزامير الأخيرة من كتاب المزامير في العبادة اليهوديَّة، موضِّحاً أن هذه الممارسة لازالت معتبرة إلتزاماً يومياً في العبادة[٥].

إذاً فترتيل هذه المزامير الأخيرة من سفر المزامير جاء أصلاً من خدمة الصَّباح في يوم السَّبت في المجمع اليهودي، وهي الخدمة التي أضاف إليها المجمع اليهودي Synagogue فيما بعد الثلاثة مزامير السَّابقة لها. وهكذا ورثت الكنيسة المسيحيَّة تراثاً قديماً بعد أن صبغته بصبغة الخلاص والفداء الذي أكمله ابن الله في العهد الجديد، فأصبح ما كان يُرتَّل في القديم بروح رجاء خلاص عتيد، أصبح هو نفسه في العهد الجديد يُرتَّل بروح عهد خلاص أبدي مختوم ومضمون بدم المسيح. فسبِّحوا الله في السَّموات، وسبِّحوه في جميع قدِّيسيه.

وهكذا تبدأ تسبحة السَّحَر بتسبيح الرَّب في السَّموات، وملائكة السَّموات، وكل أفلاك السَّموات، وكواكب النُّور، وتسبيحه في الأرض بكل خلائقها وشعوبها وملوكها، الكبار والصِّغار، فليسبِّحوا جميعاً اسمه القدُّوس، على قوَّته ومقدرته وكثرة عظمته. بمزمار وقيثار ودفوف وصفوف وأوتار وأرغن وصنوج حسنة الصَّوت، وصنوج التَّهليل. كل نسمة فلتسبِّح اسم الرَّب إلهنا، هللويا.

ويُختم الهوس الرَّابع في الطَّقس القبطي بالذُّكصا "المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس ...". ثم ترديد عبارة: "المجد لإلهنا. هللويا" مرَّتين واحدة باليونانيَّة والأخرى بالقبطيَّة.

وهكذا وقبل بزوغ نور النَّهار تكون الكنيسة قبل كل الخلائق قد قدَّمت تسبيحاً وشكراً لإله السَّماء والأرض، هذا الذي شكره كائن على

5- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, *op. cit.*, p. 38.

الأرض وفي السَّموات، نيابة عن كل الخليقة وباسمها كلها، ما في السَّماء وما على الأرض من الجبال العالية إلى جميع الأعماق. ومن الأشجار إلى الوحوش والبهائم والهوام والطيور. من الشُّبان والعذارى إلى الشُّيوخ والصبيان. الملائكة في السَّماء وقوَّات السَّماء. وباختصار فتسبيح الرَّب في بيعة القدِّيسين هو تسبيح الخليقة كلها.

وهنا يكون النُّور قد أشرق فعلاً، لكي تبدأ الكنيسة في ترديد اسم يسوع بتواتر مع ترتيل إبصاليَّة اليوم، وتمجِّده أيضاً مع أمه العذراء القدِّيسة في ثيؤطوكيَّة اليوم مع إشراقة نور يوم جديد. فسور الصَّباح الجديد هو تعبير متجدِّد دوماً عن إشراقة جديدة لوجه يسوع الحبيب، باعث النُّور ليضئ وجوهنا وقلوبنا وكل حياتنا.

ويذكر العالم الطَّقسي ابن كبر أن للهوس الرَّابع طرائق تقال في الليلويا، مطوَّلة، ومتوسِّطة، ومدموجة[٦].

٦- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، الباب ١٦

الفَصل الثَّالث

الإبصـــــاليَّات

أولاً: رؤية عامة

معنى كلمة إبصاليَّة

إبصاليَّة psali كلمة يونانية فعلها الأساسي هو ψάλλω (بصالو) أي يرتِّل أو يلعب بأصابعه على آلة وتريَّة، وليس بريشة العـــزف. ثم صـــار المعنى يفيد "التَّرتيل والإنشاد". والإبصاليَّة أشعار موزونة قبطياً، ومقفاة صوتياً كالشِّعر لتمجيد الرَّب، أو العذراء والشُّهداء والقدِّيسين، وغالباً ما تكون مرتَّبة على الحروف الهجائيَّة.

الكتب الكنسيَّة التي تحوي نصوص الإبصاليَّات

الكتب الكنسية التي تحوي نصوص الإبصاليَّات هي:

- كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنوية.
- كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة الكيهكيَّة.
- كتاب إبصاليَّات وطروحات عيدي الميلاد والغطاس.
- كتاب إبصاليَّات وطروحات عيد القيامة والخمسين.
- كتاب الإبصاليَّات لأعياد الشُّهداء والقدِّيسين.

أنواع الإبصاليَّات ونغماتها

الإبصاليَّات نوعان رئيسيَّان هما:

(أ) إبصاليَّات الأيام:

وهي إبصاليَّات تُرتَّل على مدار أيام الأسبوع من الأحد إلى السَّبت. أما نغمة ترتيلها فهي إما آدام (لأيام الأحد والاثنين والثلاثاء)، أو واطس (لأيام الأربعاء والخميس والجمعة والسَّبت). وهاتان النَّغمتان الآدام والواطس تمثلان اللَّحن السَّنوي للإبصاليَّات.

(ب) إبصاليَّات المناسبات الكنسيَّة، وهي تنقسم إلى:

- إبصاليَّات تختص بالأعياد السيديَّة وعيدي الصَّليب، وعيد النيروز. وتُرتَّل باللَّحن الفرايحي.
- إبصاليَّات تختص بشهر كيهك. وتُرتَّل باللَّحن الكيهكي.
- إبصاليَّات تختص بالصَّوم المقدَّس الكبير. وتُرتَّل باللَّحن السَّنوي.
- إبصاليَّات تختص بأعياد العذراء والملائكة والشُّهداء والقدِّيسين. وتُرتَّل باللَّحن السَّنوي.

وكل لحن من هذه الألحان الثلاثة السَّابقة (الفرايحي والكيهكي والسَّنوي) له نغمتان؛ واطس وآدام بحسب وقوع المناسبة في أي يوم من أيام الأسبوع. أي أن الإبصاليَّات تُرتَّل على مدار السَّنة الطَّقسيَّة بست نغمات مختلفة.

لهجات الإبصاليَّات

إبصاليَّات الأيام – مع بعض إبصاليَّات قليلة من إبصاليَّات المناسبات الكنسيَّة – هي الأكثر قدماً، والتي تحوي فيها كل مقوِّمات الأبصاليَّة

القبطيَّة. وتوجد إبصاليَّات بالقبطيَّة الصعيديَّة في المجلد الثالث عشر (ص ١٥٠ - ١٧٦) من مجموعة مرجان، وهي مرتَّبة طبقاً للحروف الأبجديَّة. ويرجع تاريخ نساختها إلى القرن التاسع أو العاشر، ولابد أن تكون قد أُلِّفت قبل هذا التَّاريخ. أما الإبصاليَّات في نصها القبطي البحيري والتي نعرفها الآن، فلم يُعرف تاريخ وضعها بالتَّحديد، ويُظن أن أقدمها يعود للقرن الثالث عشر.

وكل الإبصاليَّات المستعملة في الكنيسة الآن هي باللَّهجة القبطيَّة البحيريَّة، ويتخلَّل بعضها كثير من الكلمات اليونانيَّة، وفي بعض الأحيان إستيخونات برمتها.

طريقة نظم الإبصاليَّة

أرباع الإبصاليَّات مرتَّبة غالباً طبقاً للحروف الأبجديَّة القبطيَّة. أما الإبصاليَّات التي لم تُرتَّب تبعاً لذلك، فقليلة ومثالها إبصاليَّات الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة من إبصاليَّات الأيام.

وهناك إبصاليَّات تُرتَّب على الحروف الهجائيَّة من آخرها إلى أوَّلها مثل الإبصاليَّة الآدام التي تُقال في عيد النيروز. وأيضاً إبصاليَّة آدام على "مراحمك يا إلهي". وختام الثيؤطوكيَّات الآدام يضاف إليها ستَّة أرباع بداية حروفها يكمل اسم مؤلِّفها وهو "غبريال".

وهذا النَّوع من الإبصاليَّات التي تبتدئ بالحروف الهجائيَّة من آخرها إلى أولها له نظير في الكنيسة اليونانيَّة.

مؤلّفو الإبصاليّات

لا يُعرف بالتّحديد اسم مؤلّف إبصاليّات الأيام، بينما إبصاليّات المناسبات الكنسيّة الأخرى ورد في كثير منها اسم مؤلّفها في آخر رُبع منها، حيث يطلب المغفرة من الله. وعلى سبيل المثال لا الحصر لدينا من المؤلّفين:

نيقوديموس؛ وقد اضطلّع بتأليف كثير من إبصاليّات المناسبات، وهو يذكر اسمه كثيراً إما تصريحاً أو تلميحاً في إبصاليّاته التي يؤلّفها. وقد تعرّضنا لمنهجه في التأليف عند الكلام عن "تسبحة شهر كيهك".

يوسف؛ ولعله القس يوسف[1] الذي قام بنسخ المخطوط رقم (٣١٢) بالمتحف القبطي، والمؤرّخ بتاريخ سنة ١٦٢٥م. حيث ألّف في نهايته إبصاليّة بثلاث لغات هي القبطيّة والعربيّة والتركيّة. وقد نشر الدكتور أزولد بورمستر O.H.E. Burmester هذه الإبصاليّات[2].

سركيس؛ ويظهر لنا من لغته أنه كان على دراية باللُّغتين القبطيّة واليونانيّة، وقد ألّف بجانب إبصاليّة الثلاثة فتية القدّيسين تسع قطع روميّة تتخلّلها بعض كلمات قبطيّة وهي التّفاسير الرُّومي التي تُقال في تسبحة عشيّة آحاد شهر كيهك.

يؤانس؛ وهو المعلّم يوحنا، ولم يذكر اسمه في أي إبصاليّة قام بتأليفها، بل عرفنا اسمه من التّفسير البحيري في شهر كيهك. فإن اسمه المكوّن في القبطيّة من سبعة حروف ⲓⲱⲁⲛⲛⲏⲥ يبدأ بكل حرف من حروف اسمه على التّوالي أوّل كل تفسير من التّفاسير التّسعة. وبنفس

---

١ – انظر: إبصاليّة آدام على ⲧⲙⲛⲧⲣ "دعيت بالحق يا مريم القديسة ..."، وهي ضمن إبصاليّات ثيؤطوكية الأحد في شهر كيهك.

2- Cf. Le Muséon, vol. 42, p. 373 – 385.

الطَّريقة يضع اسمه في أول كل تفسير من التَّفاسير السَّبعة التي تتلى على ثيؤطوكيَّة يوم الأحد في شهر كيهك. وهذا النِّظام معروف أيضاً في الكنيسة اليونانيَّة.

بالإضافة إلى أسماء مؤلِّفين آخرين مثل: أبرآم[٣]، وصموئيل القُمُّص[٤]، وسُليمان[٥]، ويوحنا[٦].

ولقد كتب السير إستيفن جاربي في مجلة "الجمعيَّة الملكيَّة لدراسة الأدبيَّات" النَّشرة الثالثة، العدد ٣٣ سنة ١٩٠٥م في مقالته "الآداب الوطنيَّة لمصر المسيحيَّة" يقول عن نفسه بأنه نسخ أكثر من ٢٠٧ إبصاليَّة مرتَّبة على الحروف الهجائيَّة القبطيَّة في مخطوطات محفوظة في مكتبات إنجلترا نُشر منها ثلاثين فقط.

وذكر أن المؤلِّفين كانوا عادة يكتبون أسماءهم في آخر رُبع من الإبصاليَّة، وقد لاحظ أسماء أبرآم وإرميا بن قمص كنيسة أبي سرجة[٧]،

٣- له إبصاليَّة آدام على الهوس الرابع في شهر كيهك.

٤- له إبصاليَّة واطس لرئيس الملائكة ميخائيل "تعالوا كلكم بتهليل ...".

٥- له إبصاليَّة واطس وأخرى آدام للقديس تكلا هيمانوت، في مخطوط رقم (١٠) بمكتبة كنيسة السِّت بربارة بمصر القديمة.

٦- له إبصاليَّة لرئيس الملائكة ميخائيل تعود إلى القرن الثامن عشر، في كتالوج المخطوطات القبطية بالفاتيكان ص ٦١٣

٧- كان ناسخاً ماهراً، نسخ عدة مخطوطات (راجع كتالوج مرقس سميكة باشا، الجزء الثاني، مخطوطات الدار البطريركية أرقام (٧١٣، ٧٢٩، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥). ومن المخطوطتين رقم (٧١٣، ٧٢٩) نعلم أنه كان خادماً بكنيسة أباكير ويوحنا في بابلون مصر. وأبوه كان قمصاً لكنيسة أبو سرجة بمصر القديمة. ويُرجَّح أن يكون إرميا الناسخ هو بذاته إرميا المؤلف الذي ذكره جازلي. وبما أن المخطوطات نُسخت في القرن الخامس عشر، فيُستنتج أن إرميا هذا قد عاش في أوائل هذا القرن. وهذا يوضح لنا أن أقدم الإبصاليَّات المتفاوتة يرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الرابع عشر.

ونيقوديموس الذي وضع خمسين أو ستين إبصاليَّة بمعان ضعيفة، وهو يكرِّر اسمه دائماً. وبخلاف الأسماء لم يُعثر على تاريخ أو مكان تأليف هذه الإبصاليَّات.

أوزان الإبصاليَّات

للإبصاليَّة أوزان مختلفة، ويمكن عموماً تقسيمها إلى خمسة أوزان رئيسيَّة هي:

– **الوزن الأوَّل:** وفيه الشَّطرة الأولى مقفاة مع الثالثة، والثانية مع الرَّابعة، مثال ذلك إبصاليَّة آدام على ثيؤطوكيَّة الاثنين في شهر كيهك.

– **الوزن الثاني:** الشَّطرات الأربع كلها مقفاة معاً. وهو نوع نادر، ومثاله إبصاليَّة واطس لتسبحة عشيَّة آحاد شهر كيهك.

– **الوزن الثالث:** الشَّطرات الثلاث الأولى مقفاة، وتتكرَّر الشَّطرة الأخيرة مع الرُّبع التالي، ويُسمى هذا النَّوع من الوزن "المعقَّب". ومثال له تفسير المعقَّب لتسبحة عشيَّة آحاد شهر كيهك.

– **الوزن الرَّابع:** الشَّطرات الثلاث الأولى مقفاة والرَّابعة تتكرَّر كمرد ثابت للإبصاليَّة. ومثال ذلك إبصاليَّة واطس تقال ليلة سبت الفرح. ويقع تحت هذا إبصاليَّات فيها الشَّطرة الثالثة متكرِّرة بينما الثانية مقفاة مع الرَّابعة. ومثال ذلك إبصاليَّة واطس لتسبحة عشية آحاد الصَّوم المقدَّس الكبير.

(انظر: يسى عبد المسيح، مجلة معهد الدراسات القبطية، ص ١١٠ – ١٢٠).

ـ **الوزن الخامس:** الشَّطرات غير مقفاة، وهذا النَّوع الأخير على درجة عالية من الوجهة اللاهوتيَّة، ويظهر عليه مسحة القدم. ومثاله إبصاليَّة آدام لربي يسوع على ثيؤطوكيَّة الأحد. وكافة إبصاليَّات الأيام في الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنوية.

ثانياً: إبصاليَّات الأيَّام

بعد هذه الرؤية العامة للإبصاليَّات نحصر كلامنا الآن عن إبصاليَّات الأيام، والتي تُستخدم في التَّسبحة اليوميَّة، ونرجئ الحديث عن إبصاليَّات المناسبات الكنسيَّة لحين تعرُّضنا لطقوس المناسبات الكنسيَّة.

تمهيد

يذكر القس شمس الرِّئاسة أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) قس كنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة قائلا: "الأجود أن تقال الإبصاليَّات القديمة التي وُضعت بنعمة وحكمة، والتي يحفظها الجمهور أو أكثر الشَّمامسة، لئلا ينفرد بالقراءة واحد فيبطل ساير الشَّعب من التَّرتيل، ويعتريهم الضَّجَر والنُّعاس والملل لأجل التَّطويل". ثم أورد إبصاليَّات الأيام كما تعرفها الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنوية، ثم عقَّب بقوله: "والإبصاليَّات أكثر من أن تحصى أو تحصر، وإنما أردنا الأقدم والأحسن والأقصر[٨]".

وتقتبس أرباع الإبصاليَّات ـ ولاسيَّما الإبصاليَّات السَّنوية ـ كثيراً

٨- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

من سفر المزامير، ولكن الإبصاليَّة تخاطب الرَّب يسوع المسيح، اسم الخلاص المملوء بركة، على عكس المزامير التي تخاطب يهوه إله إسرائيل.

وإبصاليَّات الأيام هي ثماني إبصاليَّات، كل يوم من أيام الأسبوع إبصاليَّة، وليوم الأحد إبصاليَّتان، الأولى إبصاليَّة آدام للسيِّدة العذراء، والثانية إبصاليَّة آدام لربي يسوع.

اسم يسوع في إبصاليَّات الأيام

إبصاليَّات الأيام هي صلوات وتوسُّلات قصيرة تخاطب الرَّب يسوع، وتدعوه "ربي يسوع"، أو "ربي يسوع المسيح".

وإبصاليَّات الأيام لا تفرِّق بين مخاطبتها للرَّب يسوع، وبين الدُّعاء باسم الرَّب يسوع، فتنسب لاسم يسوع كل ما تنسبه للرَّب نفسه دون تفريق. فإبصاليَّة الأحد لا تفرِّق بين مخاطبة الرَّب يسوع أو مخاطبة اسم الرَّب، حيث يتخلَّل الإبصاليَّة الانتقال المفاجئ بين مخاطبة الرَّب يسوع وبين مخاطبة اسمه دون تفريق. ونورد هنا أيضاً بعض الأمثلة الأخرى:

ففي لحن ختام الإبصاليَّات الآدام نقول: "وأيضاً إذا اجتمعنا للصَّلاة، فلنبارك اسم ربي يسوع، لأننا نباركك ياربي يسوع، نجّنا باسمك لأننا توكَّلنا عليك". وهنا لا تفرِّق الكنيسة بين مباركة الرَّب يسوع وبين مباركة اسمه القدُّوس.

ونفس الشئ يتكرَّر مرَّة أخرى، ففي إبصاليَّة الأحد نقول: "كل الأنفس معاً تبارك اسمك". وفي إبصاليَّة السَّبت نقول: "بلذَّة نباركك، نحن كلُّنا شعبك، ياربي يسوع المسيح مخلِّصي الصَّالح".

وفي إبصاليَّة الأحد نقول: "قلباً طاهراً اخلقه فيَّ، ياربي يسوع المسيح أعني"، وفي إبصاليَّة الاثنين نقول: "... لنطهِّر قلوبنا باسم الرَّب". فتطهير القلب هو بالرَّب نفسه أو باسمه على حد سواء.

وهناك مثال آخر للمماثلة بين الدُّعاء للرَّب نفسه أو لاسمه، فنقول: "يفرح قلبُنا ويتهلَّل لسانُنا إذا تلونا اسم الخلاص الذي لربِّنا يسوع المسيح[٩]". ونقول في ذات الوقت: "فمي يسبِّحك، ولساني يمجِّدك، ياربي يسوع المسيح مخلِّصي الصَّالح[١٠]".

ومخاطبة اسم الرَّب يسوع في صلوات قصيرة قويَّة هو تقليد قبطي رهباني نشأ أولاً في صحراء مصر، وأتقنه الرُّهبان الأقباط، ومنهم انتقل إلى كل العالم المسيحي، ليس بين الأوساط الرَّهبانية فقط، بل وأيضاً بين كثير من العلمانيين الأتقياء من الرِّجال والنِّساء. وهو ما يُسمى "الصَّلاة القلبيَّة"، أو "الصَّلاة السَّهميَّة". فبتواتر ترديد اسم الرَّب على مدى اليوم تمتلئ النَّفس سلاماً وفرحاً وشبعاً يغنيها عن كل شئ آخر.

هذه هي روح إبصاليَّات الأيام، تردِّدها الكنيسة مع كل شعبها في كل يوم ببساطة متناهية لا تعقيدات كلاميَّة، أو فلسفات تصوفيَّة.

اسم الرَّب - بحسب الإبصاليَّات - هو اسم تمجَّد في أفواه القدِّيسين الأبرار سكان الأرض، وصار لهم ناصراً في جميع ضيقاتهم، وخلَّصهم من جميع شدائدهم، وهو لهم طعام حياة تقتات به نفوسهم وأجسادهم معاً، وهو أيضاً ينبوع حياة حلواً في حناجرهم أكثر حلاوة من العسل. به تفرح قلوبهم وتزهر أجسادهم، وتستنير عقولهم، وترتفع إلى العُلا قلوبهم.

٩- إبصاليَّة الجمعة.

١٠- إبصاليَّة السَّبت.

اسم الرَّب كائن في أفواه الصدِّيقين، يطهِّر قلوبنا، ويخلِّص نفوسنا، لأنه اسم الخلاص، ويضئ إنساننا الدَّاخلي. به يفرح قلبنا ويتهلَّل لساننا، ويعطي الفرح لنفوسنا. وإذا لازمناه في إنساننا الدَّاخلي فهو يجعلنا أغنياء حتى نعطي آخرين. وهو سيف به نصرع العدو الشيطان.

اسم الرَّب هو العنبر الكثير الثَّمن، والحجر الحقيقي الكثير الثَّمن الذي باع الرَّجل التَّاجر كل ما له واشتراه. وهو الجوهرة، اللؤلؤة الكثيرة الثَّمن. فهو زينة النَّفس، ومحبته مع صنع الرَّحمة تكميل للنَّاموس.

وبهاء اسم الرَّب هو في أفواه القدِّيسين. فهو حلوٌ ومباركٌ في أفواههم. تسبِّح به كل قبائل الأرض. نسبِّح به مع كل نفس نتنسَّمه. وفي اسم الرَّب يكمن كمال كل بركة. يسوع هو الاسم المملوء مجداً. يسوع هو الاسم المملوء بركة. فمحبوب هو اسمك القدُّوس ياربي يسوع. فانظر إلينا ياربي يسوع بعين التَّحنُّن التي لصلاحك، واغرس فينا قلباً مستقيماً لكي نباركك ياربي يسوع.

مخاطبة الثالوث القدُّوس في إبصاليَّات الأيام

وإلى جانب مخاطبة اسم الرَّب يسوع فإن إبصاليَّات الأيام تخاطب أيضاً الثالوث القدُّوس في شخص الرَّب يسوع. فنصلي قائلين:

- مباركٌ أنت بالحقيقة ياربي يسوع مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُدُس.
- لأنك بإرادتك وحدك ومسرَّة أبيك والرُّوح القُدُس أتيت وخلَّصتنا.
- من أجل هذا نمجد ربنا يسوع المسيح مع أبيه الصالح والروح القدس.
- لك المجد مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُدُس.
- لكي نسبِّحك مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُدُس لأنك أتيت وخلَّصتنا.

التَّعاليم التَّقويَّة في إبصاليَّات الأيام

تتضمَّن إبصاليَّات الأيام تعاليم تقويَّة كثيرة، ولكن البديع في الأمر أن هذه التَّعاليم تأتي في صيغة صلاة مباشرة للرَّب، وهنا يكمن منتهى قوَّتها، لأن تعليم التَّقوى بمعزل عن الصَّلاة والطِّلبة إلى الله أن يهبنا التَّقوي والبر بمعونته وعمل روحه القدُّوس، يظل تعليماً بديعاً كورود وأزهار صناعيَّة جميلة بديعة رخيصة، ولكنها بلا رائحة أو حياة.

فالإبصاليَّة تعلِّمنا التَّقوى من داخل الصَّلاة لله، هكذا عاشت الكنيسة القبطيَّة ودامت حيَّة حتى اليوم، برغم ما مرَّ عليها من أحقاب مظلمة طويلة شحَّ فيها الوعظ والتَّعليم، بل نضب تماماً، ولكن ظلَّت صلوات الكنيسة نبعاً لا ينضب أبداً يهدي العابدين سبيل التقوى.

وفي السُّطور القادمة نورد الجوانب التَّعليميَّة في إبصاليَّات الأيام:

- كل من يقول ياربي يسوع، كمن بيده سيف يصرع العدو.
- كل الصدِّيقين الذين أرضوا الله يدرسون النَّاموس كله (أي الكتاب المقدَّس).
- الله هو عمانوئيل الطَّعام الحقيقي، شجرة الحياة العديمة الموت.
- يسوع هو ربي، يسوع هو إلهي، يسوع هو رجاء المسيحيين.
- كل العلل الرديَّة فلنتركها عنا، ولنطهِّر قلوبنا باسم الرَّب.
- فليكن اسم الرَّب فينا، ليضئ علينا في إنساننا الدَّاخلي.
- تغيب الشَّمس والقمر في زمانهما، وأنت هو أنت وسنوك لن تفنى.
- مجرى المياه هو مخلِّصنا ربُّنا يسوع المسيح، والملازمون له تحيا نفوسهم.
- يعلموننا في الكتب المقدَّسة أنفاس الله أن نكون رحومين على الخليقة التي خلقها.

- إذا أحببنا اسم الخلاص الذي لربِّنا يسوع المسيح وصنعنا الرَّحمة مع بعضنا البعض، نكمِّل كل الناموس
- من قِبَل الرَّحمة سُر إبراهيم أن يضيف الله مع ملائكته القدِّيسين.
- من قِبَل الرَّحمة خلُص لوط البار من الشِّدة الصَّعبة التي أتت على سدوم.
- من قِبَل الرَّحمة استحق كرنيليوس أن ينال الصِّبغة من يدي أبينا بطرس.
- فإن كنَّا معوزين من أموال هذا العالم، وليس لنا شئ نعطيه صدقة، فلنا الجوهرة اللؤلؤة الكثيرة الثَّمن، الاسم الحلو المملوء مجداً الذي لربِّنا يسوع المسيح.
- ليست أموال هذا العالم الزَّائل التي نطلبها، بل خلاص نفوسنا بتلاوة اسمه القدوس.
- وأيضاً يا أحبائي فلنطرح عنَّا ميول قلوبنا الرَّديئة التي تجذبنا إلى الخطيَّة.
- طوبى للإنسان الذي يترك عنه هذا العمر واهتماماته المملوءة تعباً القاتلة للنَّفس، ويحمل صليبه يوماً فيوماً، ويلصق عقله وقلبه باسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح.

الصَّليب في إبصاليَّات الأيام

أما أوضح إبصاليَّة تعليميَّة في إبصاليَّات الأيام فهي إبصاليَّة الجمعة التي تدور أرباعها حول صليب ربِّنا يسوع المسيح وقوَّته في حياة أولاد الله، حيث تتكرَّر الثلاثة إستيخونات الأولى في معظم الأرباع بالنَّص التالي: "ربنا يسوع المسيح قد أعطى علامة لعبيده الذين يخافونه"، والإستيخون الرَّابع يفسِّر ماذا فعلت هذه العلامة فيقول مثلاً: "لكي

يسدوا أفواه الأسود"، أو "لكي يطفئوا قوَّة النَّار"، أو "لكي يخرجـوا الشَّياطين"، وهكذا. فهي إبصاليَّة تعليميَّة تشرح فعل الصَّليب وعمله في حياتنا اليوميَّة.

العذراء القدِّيسة مريم في إبصاليَّات الأيام

هناك إبصاليَّة كاملة مخصَّصة للعذراء والدة الإله، وهي إبصاليَّة آدام تُقال في يوم الأحد، وهي تصف العذراء بالعبارات التَّالية:

- سيِّدتي العروس.
- العذراء المفعمة كرامة.
- التي جلبت إلينا الحريَّة الأبديَّة.
- المنارة الذَّهب المصنوعة بأيادي ذهبيَّة.
- أورشليم مدينة إلهنا.
- مركبة الكاروبيم ذات الأنواع الكثيرة.
- باب المشارق.
- والدة الإله أم ماسيَّا.
- العفيفة بهجة الصدِّيقين وفرح المؤمنين.
- القبة التي صنعها موسي بعظم كرامة.
- التَّابوت والمنارة.
- الممتلئة مجداً القدِّيسة.
- القسط المكرَّم.
- المجمرة النقيَّة المملوءة بركة.
- عصا هارون التي أوسقت وأعطت ثمراً.
- المرتفعة أكثر من الشَّاروبيم، والمكرَّمة أكثر من السِّيرافيم.
- الحمامة الحسنة الممتلئة حكمة.

- أم يسوع المسيح.
- المفعمة مجداً، المشتملة بالطّهارة.

هذه هي صفات العذراء القدِّيسة الطّاهرة مريم في الكنيسة القبطية في أقدم نصوص صلوات وصلت إلينا. وتبتدئ الإبصاليَّة بمخاطبة الرَّب يسوع قائلة: "أعني ياربي يسوع الرءوف لأمجِّد سيِّدتي أمك العروس".

لقد أردتُ أن أنقل إلى القارئ العزيز جانباً وافراً من نصوص إبصاليَّات الأيام حتى يتعرَّف على كنيسته من داخل صلواتها. أما الذين يواظبون على التَّسبيح فاسم الرَّب يغنيهم ليغنوا آخرين بغناهم الذي ليس منهم بل من الله السَّاكن فيهم. جميلة هي الكنيسة وخفيف هو نيرها. فهلُموا نرتِّل مع المسبِّحين قائلين: "ما دمنا أحياء نسبحك، ما دمنا موجودين نمجِّدك، ياربي يسوع المسيح مخلِّصي الصَّالح".

ختام الإبصاليَّات

بانتهاء الإبصاليَّة وقبل بدء الثيؤطوكيَّة يُصلى باللَّحن، ختام الإبصاليَّات، إما الواطس أو الآدام، وفي كليهما نبتدئ باسم الرَّب يسوع، فنباركه ونطلب رحمته. ونختتم بتقديم المجد للثَّالوث القدُّوس الآب والابن والرُّوح القُدُس.

ففي ختام الإبصاليَّات الآدام نرتِّل قائلين:
- وأيضاً إذا اجتمعنا للصَّلاة، فلنبارك اسم ربي يسوع.
- لأننا نباركك ياربي يسوع، نحنا باسمك لأننا توكَّلنا عليك.
- لكي نسبحك مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُدُس لأنك أتيت وخلَّصتنا.
- المجد للآب والابن والرُّوح القدُس.

- الآن وكل أوان وإلى دهر الدَّاهرين آمين.

وفي ختام الإبصاليَّات الواطس نرتِّل قائلين:

- إذا ما رتَّلنا فلنقل بحلاوة يا ربَّنا يسوع المسيح اصنع رحمة مع نفوسنا.
- المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس.
- الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

ومن الملاحظ أن ختام الإبصاليَّات الآدام لها لحن مختص بها، أما ختام الإبصاليَّات الواطس فليس لها لحن يميِّزها، بل تقال أرباعها الثلاثة بنغمة الثيؤطوكيَّة الواطس. وربما كان هناك لحن يختص بختام الإبصاليَّات الواطس واندثر.

الفَصل الرَّابع

الثيؤطـــوكيَّات

معنى كلمة ثيؤطوكيَّة: Θεοτόκιον ـ Theotokion

"ثيؤطوكيَّة" كمصطلح طقسي قبطي أو "ثيؤطوكيون" كمصطلح طقسي بيزنطي يعني ما يختص بالثيؤطوكوس Θεοτόκος أي بوالدة الإله. وكانت الكلمة اليونانيَّة Θεοτόκος (ثيؤطوكوس) أي "والدة الإله" قد عُرفت أولاً عند العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م)، ثم احتلَّت الكلمة مكاناً رئيسياً في اللاَّهوت الكنسي في الكنيسة الجامعة منذ مجمع أفسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١م الذي دحض بدعة نسطور بطريرك القسطنطينيَّة الذي أراد الاكتفاء بتلقيب العذراء بـ "أم المسيح" وليس بـ "والدة الإله".

والثيؤطوكيَّة هي قطع قبطيَّة موزونة بدون قافية في تمجيد والدة الإله القدِّيسة الطَّاهرة مريم وتطويبها، وهي تشرح في عبارات لاهوتيَّة بسيطة عميقة في آن معاً سر التجسُّد الإلهي الذي صار بواسطتها، حتى لقد جمعت هذه الثيؤطوكيَّات كل عقيدة الكنيسة الجامعة في سر التَّجسُّد الإلهي، وفي أمومة العذراء القدِّيسة. وهي المبادئ اللاهوتيَّة التي نادى بها الأساقفة المجتمعون في مجمع أفسس المسكوني الثالث.

البنية الأساسيَّة للثيؤطوكيَّات

من المسلَّم به أن الثيؤطوكيَّات من وضع القدِّيس كيرلس الكبير، أو على الأقل هي امتداد للتُّراث الرُّوحي الذي ورثته الكنيسة عن كتاباتـــه. ومن أهم ما نلاحظه فيها أن العذراء القدِّيســـة مـــريم لا تعتـــبر هـــي "العروسة – ⲧϣⲉⲗⲉⲧ"، بل تُدعى "الخدر – ⲙⲁⲛϣⲉⲗⲉⲧ"[1]، أي موضع العرس، على اعتبار أن العرس الإلهي قد تم داخل أحشائها بـــين المسيح الختن الحقيقي وبين البشريَّة كلها، وذلك على اعتبار أن اتحادنـــا بالله قد بدأ سراً منذ أوَّل لحظة اتحد فيها الكلمة بالنَّاسوت المقدَّس الذي أخذه من العذراء[2].

(أ) ثيؤطوكيَّة الأحد

وهي خمس عشرة قطعة، وهي أطول الثيؤطوكيَّات جميعاً وأقدمها.

السِّت قطع الأولى من ثيؤطوكيَّة الأحد

تنقسم كل قطعة من السِّت قطع الأولى إلى قسمين، القســـم الأوَّل يسرد الرُّموز الخاصة بالعذراء، والقسم الثاني يشرح هذه الرُّموز.

والمرد الذي يتكرَّر في نهاية القسم الأول من كل قطعة ربعان نصـــهما: "من أجل هذا كل واحد يرفعك يا سيِّدتي والدة الإله القدِّيسة كل حـــين. ونحن أيضاً نطلب أن نفوز برحمة بشفاعاتك عند محب البشر".

١ـ انظر مثلاً: ثيؤطوكيَّة الأربعاء، وثيؤطوكيَّة السَّبت. "السلام للخدر المزيَّن بكل نوع الذي للختن الحقيقي الذي اتحد بالبشرية" و "الخدر الطاهر الذي للختن النقي".

٢ـ رهبان دير القدِّيس أنبا مقار، التجسد والميلاد في تعليم آباء الكنيسة، دار مجلة مرقس، ١٩٩٤م، ص ١٦،١٧.

أما المرد الذي يتكرَّر في نهاية القسم الثاني من كل قطعة فهو ثلاثة أرباع نصها: "من أجل هذا نعظّمك باستحقاق بتماجيد نبويَّة. لأنهم تكلّموا من أجلك بأعمال كريمة، أيتها المدينة المقدَّسة التي للملك العظيم. نسأل ونطلب أن نفوز برحمة بشفاعاتك عند محب البشر".

وهذه القطع السِّت بأقسامها الاثنا عشر هي الجزء الأقدم من هذه الثيؤطوكيَّة قبل أن يلحقها ألحان وقطع أخرى كثيرة.

تسبحة سمعان الشيخ

بعد السِّت قطع الأولى تأتي **تسبحة سمعان الشيخ**. وهذه التَّسبحة تُقال في تسبحة نصف اللَّيل لليلة الأحد بعد القطعة السادسة من قطع ثيؤطوكيَّة الأحد، أو تقال بعد الهوس الأوَّل مباشرة في تسبحة باقي أيام الأسبوع العادية حيث يعقبها ثلاث قطع من ثيؤطوكيَّة الأحد وهي القطع (٧، ٨، ٩)، وذلك قبل أن يبدأ الهوس الثاني. أي أن تسبحة سمعان الشيخ تُقال كلّ أيام الأسبوع في تسبحة نصف الليل مع تغير موضعها الطّقسي.

ولكن ما يلفت نظرنا أن تسبحة سمعان الشيخ تُقال في التَّسبحة دبحاً بدون أي لحن يختص بها، بل إنها تُقال في الغالب سراً. وهذه التَّسبحة هي ضمن الثلاث تسبحات المختصَّة بالعهد الجديد والمعروفة في طقوس الكنائس الأخرى، وهي:

- تسبحة سمعان الشيخ Nunc Dimittis .
- تسبحة زكريا الكاهن Benedictus .
- تسبحة العذراء Magnificat .

أما الطّقس القبطي فلا يعرف في تسبحة نصف اللَّيل سوى تسبحة سمعان الشَّيخ فقط. وليس لها مكانٌ مستقرٌ في عناصر

التَّسبحة. وإن وضعها في داخل ثيؤطوكيَّة الأحد يبعث على التساؤل والبحث. فلربما كانت هذه التَّسبحة في نهاية الثيؤطوكيَّة قبل أن يُضاف على هذه الأخيرة القطع التِّسع التي أُلحقت بها فيما بعد. وهنا لا يكون أمامنا سوى افتراض أن تسبحة سمعان الشَّيخ هي أقدم زمنياً من لحني "شيريَ بي ماريًّا"، و"سيموتي" اللَّذان يعقبان هذه التَّسبحة كما سيأتي ذكره بعد قليل.

وهذا الأمر قد دفعنا للبَّحث عن تسبحات العهد الجديد في الطقوس الأخرى، فوجدنا أن التَّسبحات الثلاث للعهد الجديد غير ثابتة دوماً في الطقوس المختلفة، فهي تحتل مكاناً ثانوياً في الطَّقس القبطي والطَّقس الأسباني الكاتدرائي القديم، والطَّقس الآشوري، فضلاً عن أن أعدادها بين هذه الطقوس المذكورة متغيرة.

ومن جهة أخرى فإننا نجد أن الثلاث تسبحات التي للعهد الجديد موجودة بكاملها في خدمة السَّهَر اللَّيلي عند الغوط الغربيين في أسبانيا. وهي تتَّفق في ذلك مع الطَّقس الأرمني.

أما الطَّقس البيزنطي فلديه تسبحة العذراء وتسبحة زكريا متَّحدتين معاً. أما الطَّقس السِّرياني الغربي بشقَّيه (الأنطاكي والماروني) فهو يعرف تسبحة العذراء فقط، وكان يشترك معه في ذلك الأمر الطَّقس الغالي القديم. أما تسبحة زكريا بمفردها فيعرفها طقس روما وطقس ميلان[٣].

إذاً فتسبحات العهد الجديد الثلاث لم تلق إجماعاً عليها من الطقوس المختلفة برغم قلَّتها العدديَّة، بينما وجدنا أن تسبحة الثلاثة فتية، ومعها تسبحة موسى على سبيل المثال قد انتشرت في ربوع العالم المسيحي منذ

3- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, *op. cit.*, p. 36.

البدايَّة، وظلَّت باقية حتى اليوم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن موضع تسبحات العهد الجديد متباين في هذه الطقوس. فهي تأتي غالباً بعد تسبحات العهد القديم إلاَّ أنها تسبقها في طقس أمبروسيوس، وتأتي بعدها في طقس روما ولكن ليس مباشرة.

إنه لغز ليتورجي؛ لماذا لم تلق تسبحات العهد الجديد في الكنيسة المسيحية مكاناً واضحاً مثلما وجدت تسبحات العهد القديم فيها؟. أهي كنيسة أورشليم التي انتقل منها نظام التَّسبيح إلى كل العالم المسيحي، وقد تأثَّر بنظام التَّسبيح اليهودي القديم؟.

باقي قطع ثيؤطوكيَّة الأحد

القطعة السَّابعة من ثيؤطوكيَّة الأحد والتي تعقب تسبحة سمعان الشَّيخ تُقال باللَّحن، وهما في الحقيقة لحنان من أبدع ألحان التَّسبحة السَّنويَّة القبطيَّة.

اللَّحن الأوَّل هو: Χερε νε Μαρια (شيرى ني ماريَا) أي "السَّلام لك يا مريم ...". وهو يغطي كل أرباع القسم الأوَّل من القطعة السَّابعة، وكلمات اللَّحن هي:

"السَّلام لك يا مريم الحمامة الحسنة التي ولدت لنا الله الكلمة. أنت زهرة البخور التي أينعت من أصل يسَّى. عصا هرون التي أزهرت بغير غرس ولا سقى هي مثال لك. يا من ولدت المسيح إلهنا بالحقيقة بغير زرع بشر وهي عذراء. من أجل هذا كل واحد يمجِّدك (أو يرفعُك) يا سيِّدتي والدة الإله. ونحن أيضاً نطلب أن نفوز برحمة بشفاعتك عند محب البشر".

أما اللّحن الثاني فهو: ⲥⲉⲙⲟⲩⲧ (سيموتي)، أي "مدعوّة". وهو يستغرق أوّل ربعين من القسم الثاني من القطعة السّابعة. وكلماته هي:
"مدعوّة أنت بالصّدق أيتها القدّيسة مريم القبّة الثانية التي للأقداس. تلك الموضوع فيها عصا هرون والزّهرة المقدّسة التي للبُخور".

أما **القطعة الثامنة** والتي تبدأ بعبارة: "ونصرخ بصوت التّهليل قائلين: السّلام لك يا مريم أم عمانوئيل" فمعظم أرباعها تتكوّن من ثمانية إستيخونات وليس أربعة، حيث يتكرّر في الإستيخونات الفرديّة من كل ربع عبارة "السّلام لك يا مريم".

وهذه القطعة الثامنة من ثيؤطوكيّة الأحد – وما بعدها من قطع – والتي وضعها مؤلّفها في أسلوب شعري مقفى على غير عادة الثيؤطوكيّات.

ثم تأتي **القطعة التّاسعة** والتي تبدأ بعبارة ⲁⲣⲉⲙⲟⲩⲧ ⲉⲣⲟ "دعيت يا مريم العذراء الزّهرة المقدّسة التي للبُخور".

تبدأ **القطعة العاشرة** بلحن هو الرُّبع الأوّل من هذه القطعة، وهو لحن ⲑⲉⲟⲧⲟⲕⲓⲛ ⲛⲓⲕⲁⲛⲟⲥ (تأوي إنيكانوس): "أنت مستوجبة أكثر من جميع القدّيسين أن تطلبي عنا أيتها الممتلئة نعمة".

وتتوالى الأرباع من القطعة العاشرة حتى القطعة الخامسة عشر، حيث يأتي لحن آخر يستغرق السّتة أرباع الأخيرة من هذه القطعة الخامسة عشر. وهو اللّحن الشّهير باسم ⲁⲧⲉⲛ ⲡⲓⲁⲣⲭⲓⲉⲣⲉⲩⲥ (آفين بي أرشي إيريفس) وكلماته طبقاً لأرباعه السّتة هي:
– جابوا (شبّهوا) رئيس الكهنة بمخلّصنا، الذّبيحة الحقيقيّة لغفران الخطايا.

- هذا الذي أصعد ذاته ذبيحة مقبولة على الصَّليب عن خلاص جنسنا.
- فاشتمه أبوه الصَّالح وقت المساء على الجلجلة.
- فتح باب الفردوس، وردَّ آدم إلى رئاسته مرَّة أخرى.
- من قِبَل مريم ابنة يواقيم عرفنا الذبيحة الحقيقية لغفران الخطايا.
- ونحن أيضاً نطلب أن نفوز برحمة بشفاعتك عند محب البشر.

وهذا اللَّحن السابق ذكره هو في الحقيقة ختام طبيعي لثيؤطوكيـة الأحد، فبه تنتهي الثيؤطوكيَّة.

من أجل القيامة

أما الثلاث قطع المختصَّة بالقيامة وعنوانها: "من أجل القيامة" والتي تعقب اللَّحن السَّابق ذكره مباشرة والتي أخذت الأرقام (١٦، ١٧، ١٨) في بعض الأبصلموديَّات فلا علاقة لها بثيؤطوكيَّة الأحد. لـذلك يجـئ ترقيمها في بعض الأبصلموديَّات الأخرى بأرقام جديدة أي أن التَّـرقيم يبدأ من جديد.

وهذه القطع الثلاث تُقال في تسبحة السَّحَر، وفي تسبـحة عشـيَّة أيضاً بدءاً من عيد القيامة، وتستمر طيلة أيام الخمسين المقدَّسة، ثم تقال في تسبحة السَّحَر فقط في ليالي الآحاد على مدار السَّنة الطَّقسيَّة حـتى الأحد الأخير من شهر هاتور.

ونورد هنا نص هذه القطع المختصَّة بالقيامة:

القطعة الأولى

- من في الآلهة يشبهك يارب. أنت هو الإله الحقيقي الصَّانع العجائب.
- أظهرت قوَّتك في الشُّعوب. وخلَّصت شعبك بذراعك.
- مضيت إلى الجحيم، وأصعدت السَّبي من ذلك المكان.

- وأنعمت علينا مرَّة أخرى بالحريَّة كإله صالح، لأنك قمت وخلَّصتنا.

القطعة الثانية

- المسيح إلهنا قام من بين الأموات وهو باكورة الرَّاقدين.
- ظهر لمريم المجدليَّة وخاطبها هكذا قائلاً:
- اعلمي إخوتي أن يذهبوا إلى الجليل هناك يرونني.
- فجاءت مريم إلى التَّلاميذ وقالت إنها رأت الرَّب وإنه قال لها هذا.

القطعة الثالثة

- حسناً بالحقيقة كانت في اهتمام القدِّيسة مريم المجدليَّة.
- أتت إلى القبر في أحد السُّبوت وطلبت باجتهاد قيامة الرَّب.
- رأت الملاك جالساً على الحجر صارخاً قائلاً: قد قام ليس هو ههنا.
- فلهذا نمجِّده صارخين قائلين: مباركٌ أنت ياربي يسوع لأنك قمت وخلَّصتنا.

عن مخطوطات الأبصلموديَّة في مكتبة الدَّير

جدير بالذِّكر أن مخطوطات الأبصلموديَّات في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار لا ترقَّم قطع الثيؤطوكيَّة بأرقام مسلسلة كما سبق أن أشرتُ، مثلما فعلت الأبصلموديَّات المطبوعة بدءاً من أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب سنة ١٩٠٨م.

وبمقارنة نصوص أرباع ثيؤطوكيَّة الأحد في الأبصلموديَّة المطبوعة مع نظيرتها المخطوطة في مكتبة الدَّير وجدتُ أنه بعد القطعة الثامنة من ثيؤطوكيَّة الأحد يورد مخطوط الأبصلموديَّة رقم (ط ١٠٧) المؤرَّخ بتاريخ سنة ١٨٠٤م، يورد ٣٢ ربعاً غير معروفة في الأبصلموديَّات المطبوعة، قبل أن تبدأ القطعة التَّاسعة. وهو مخطوط أبصلموديَّة قبطي فقط.

وفيما يلي نورد نص ما ذكره المخطوط من هذه الأربـاع مـع ترجمتها العربيَّة.

اسمعـوا يـا أحبـائي وتأمَّلوا حسناً، وانظـروا وافهموا كلمة المرتِّل.	Cωτεω ὠ nαμεnpaϯ : apinoin kaλωc : anaϯ otoc kaϯ : ἐncaxi ἠnicϯmnoϯoc.
داود الـنَّبي: ..... ، مرتِّل الأقداس، الذي قال في المزمور.	Δαϋιδ πἰπροφητης : φημελϫροφος[4] : πἐροτψαλτης : aqxoc ϧenπιψαλμος.
أبارك الرَّب في كـل وقت وكل حين، بأفواه يقظة وبكل وداعة.	Χε ϯnaϩmot ἐΠ̄ϲ̄ : nϩoϯ nibεn nϩoϯ nibεn : ϧεn pωϯ niⲱϯ nⲱpoic : neω μετ-paμpaτⲱ nibεn.
كأمور حلـوة جـداً تكـون تعاليمـك في حنجرتي، أفضـل مـن العسل والشَّهد.	ϩωc ϩanϩoλχ ἐμμⲱω : ne nekἐbωoτ ϧεn taⲱβωβi : ἐϩoτε πἐβiω : neω πιμοϩ ἠmiηηi.
ذُق إلى حـين، إنـه رقيق. وهناك طوبى لمـن يترجَّاه.	Χεμϯπι ἐnaϯ : χε otϩελχε nϩoq : ⲱoτniaτq ἠmi ἐτε ἠμaϯ : ἐτε epϩελπic ἐpoq.
ارتفع جداً هـذا الأمـر العجيب الـذي للمسـيح	ϥβωσι ἐμμⲱω : nxε πaiϩωβ nⲱⲫhpi : nτε Πχ̄ϲ̄ ποτpo :

٤ – كلمة φημελϫροφος غير مفهوم معناها.

ⲫⲛⲉⲧⲁϥⲉⲣⲣⲉⲙⲓ.	الملك، الذي صار إنساناً،
Ⲉⲃⲟⲗ ϩⲉⲛ Ⲙⲁⲣⲓⲁ : ⲉⲙⲁⲩ ⲙ̀ⲡⲓⲧⲟⲩⲃⲟ : ⲉⲁ ⲧⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲓⲁ: ⲧⲉϫⲟⲗϩ ⲙ̀ⲡⲓⲧⲁⲓⲟ.	من مريم أم الطَّهـــارة وذات البتوليَّة. يا مـــن ارتديت الكرامة.
Ⲙⲁⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉⲣⲟϥ : ⲧⲉⲛⲃⲓⲥⲓ ⲙ̀ⲡⲉϥⲣⲁⲛ : ⲧⲉⲛⲟⲩⲱⲛϩ ⲛⲁϥ ⲉⲃⲟⲗ : ϫⲉ ⲉϥⲉⲣⲟⲩⲁⲓ ⲛⲉⲙⲁⲛ.	فلنسبِّحه ونرفع اسمـــه، ونعترف له أنـــه صـــار واحداً معنا.
Ⲟⲩⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉⲛⲧⲁⲓⲟ : ⲛ̀ⲧⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ : ⲛϩⲟⲟⲩ ϩⲉ ⲛϩⲟⲟⲩ : .. ⲡⲉϥϫⲉⲣⲉⲧⲓϩⲱⲟⲥ.	ولنكرِّم العذراء يومـــاً فيوماً، ... سلامها.
Ϧⲉⲛ ϩⲁⲛⲉⲩⲫⲱⲙⲓⲁ : ⲟⲩⲃⲉ ⲑⲏⲉⲑ : ϫⲉ ⲣⲁϣⲓ ⲱ Ⲙⲁⲣⲓⲁ : ϩⲉⲛ ⲟⲩⲣⲁϣⲓ ⲉϥⲟⲩⲁⲃ.	بمـــدائح للقدِّيســـة، قائلين: افرحي يا مـــريم بفرح مقدَّس.
Ⲣⲁϣⲓ ⲱ Ⲙⲁⲣⲓⲁ : ϯⲥⲱⲧⲡ ⲛ̀ⲧⲉ ⲫⲓⲱⲧ : Ⲣⲁϣⲓ ⲱ Ⲙⲁⲣⲓⲁ : ϯⲡⲣⲟⲥⲧⲁⲧⲏⲥ ⲉⲧⲉⲛϩⲟⲩ : Ⲣⲁϣⲓ ⲱ Ⲙⲁⲣⲓⲁ: ⲡⲓⲑⲣⲟⲛⲟⲥ ⲙ̀ⲡⲓϣⲏⲣⲓ : Ⲣⲁϣⲓ ⲱ Ⲙⲁⲣⲓⲁ : ϯϩⲣⲏⲓ ⲉⲧⲁⲥⲫⲓⲣⲓ.	افرحي يا مريم مختـــارة الآب. افرحي يـــا مـــريم الشَّفيعة المؤتمنة. افرحي يا مريم عرش الابن. افرحي يا مـــريم الزَّهـــرة الـــتي أفرخت.
Ⲣⲁϣⲓ ... : Ⲫⲛⲁⲛϣⲱⲡⲓ ⲙ̀ⲡⲓⲡⲛⲁ ⲉⲑⲏⲧ: Ⲣⲁϣⲓ ... : ⲉⲙⲁⲩ ⲙ̀ⲡⲓⲉⲑⲏⲧ: Ⲣⲁϣⲓ ... : ⲙ̀ⲡⲉⲁⲣⲭⲁ	افرحـــي .. مســـكن الروح القدس. افرحي .. أم القدُّوس. افرحـــي ..

مركبة الشَّاوربيم. افرحي .. الصَّخرة غير المتزعزِّعة.	ⲛⲛⲓⲭⲉⲣⲟⲧⲃⲓⲙ: Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲧⲡⲉⲧⲣⲁ ⲛⲁⲧⲕⲓⲙ.
افرحـــي .. جنـــاح السِّيرافيم. افرحي .. ابنة يواقيم. افرحي .. بحمرة القسوس. افرحي .. فرح الملائكة.	Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲛⲧⲉⲛⲥ ⲛⲛⲓⲥⲉⲣⲁⲫⲓⲙ: Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲧϣⲉⲣⲓ ⲛⲓⲱⲁⲕⲓⲙ: Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲧϣⲟⲩⲧⲣⲏ ⲛⲛⲓⲡⲣⲉⲥⲃⲩⲧⲉⲣⲟⲥ: Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲫⲣⲁϣⲓ[5]ⲛⲛⲓⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ.
افرحي .. أبوة بطرس. افرحي .. حكمة بولس. افرحي .. قوَّة إندراوس. افرحي .. أم ماسيَّاس.	Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲧⲙⲉⲧⲓⲱⲧ ⲙⲡⲉⲧⲣⲟⲥ : Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲧⲥⲟⲫⲓⲁ ⲙⲡⲁⲩⲗⲟⲥ : Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲧϫⲟⲙ ⲛⲁⲛⲇⲣⲉⲁⲥ : ⲑⲙⲁⲧⲙⲁⲥⲓⲁⲥ.
افرحـــي .. بتوليَّـــة يوحنا. افرحي .. طهارة يعقوب. افرحي .. فرح فيلـــبس. افرحـــي .. خلاص متى.	Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲧⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲓⲁ ⲛⲓⲱⲁⲛⲛⲏⲥ: Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲡⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛⲓⲁⲕⲱⲃⲟⲥ: Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲡⲟⲩⲛⲟϥ ⲙⲫⲓⲗⲓⲡⲡⲟⲥ : ⲡⲟⲩϫⲁⲓ ⲙⲙⲁⲑⲉⲟⲥ.
افرحـــي .. لســـان برثلماوس. افرحـــي .. إيمان توما. افرحـــي ..	Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲫⲗⲁⲥ ⲙⲃⲁⲣⲑⲟⲗⲟⲙⲉⲟⲥ : Ⲡⲁϣⲓ ... : ⲫⲛⲁⲥⲧ ⲛⲑⲱⲙⲁⲥ : Ⲡⲁϣⲓ ... :

٥ـ كلمة ⲫⲣⲁϣⲓ وردت في المخطوط ⲡⲣⲁϣⲓ ، وكذا بعض كلمات أخـــرى طبقاً للغة البحيري القديمة قبل التَّعديل الذي أجراه الأستاذ مفتاح عريان في منتصف القرن التاسع عشر على قواعد النُّطق.

ⲡⲭⲟⲥ ⲛⲤⲓⲙⲉⲱⲛ : Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲫⲛⲟⲩⲉⲙ ⲙⲠⲁⲣⲕⲟⲥ.

غيرة سمعان. افرحـــي .. نجاة مرقس.

Ⲣⲁⲱⲗ ... : ⲡⲧⲁⲭⲣⲟ ⲙⲠⲁⲧⲉⲓⲁⲥ: Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲧⲁⲗⲃⲟ ⲛⲀⲟⲩⲕⲁⲥ: Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲧⲁⲓⲟ ⲛⲛⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ : Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲉⲓⲱⲙ ⲛⲛⲓⲡⲣⲟⲫⲏⲧⲏⲥ.

افرحـــي .. ثبـــات متياس. افرحي .. شفاء لوقا. افرحي .. كرامـة رؤساء الآباء. افرحي .. كرازة الأنبياء.

Ⲣⲁⲱⲗ ... : ⲡⲱⲟⲩⲱⲟⲩ ⲛⲛⲓⲘⲁⲑⲏⲧⲏⲥ : ⲉⲙⲁⲩ ⲙⲡⲓⲇⲉⲥⲡⲟⲧⲏⲥ : Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲓⲭⲗⲟⲙ ⲛⲛⲓⲙⲁⲣⲧⲩⲣⲟⲥ : Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲑⲉⲗⲏⲗ ⲛⲛⲓⲇⲓⲕⲉⲟⲥ.

افرحـــي .. فخـــر التّلاميذ. افرحـــي .. أم السيِّد. افرحي .. إكليل الشُّهداء. افرحي .. تمليل الصديقين.

Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲧⲣⲉⲃⲱ ⲛⲛⲓⲥⲧⲁⲩⲣⲟⲫⲟⲣⲟⲥ: Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛⲛⲓⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ : Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲧⲁⲩⲛⲓⲁ ⲛⲁⲥⲕⲏⲧⲏⲥ : Ⲣⲁⲱⲓ ...: ⲣⲱϥ ⲛⲛⲓⲟⲙⲟⲗⲟⲅⲓⲧⲏⲥ.

افرحي .. رداء لبـــاس الصَّـــليب. افرحـــي .. طهارة العذارى. افرحي .. عفّة النُسّاك. افرحـــي .. فم المعترفين.

Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲓⲭⲗⲟⲙ ⲛⲧⲉ ⲡⲉⲛⲱⲟⲩⲱⲟⲩ : Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲉⲙⲁⲩ ⲛⲛⲏⲉⲧⲟⲛⲟ ⲧⲏⲣⲟⲩ: Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲧⲁⲡⲁⲣⲭⲏ ⲙⲡⲉⲛⲥⲱϯ : ⲉⲙⲁⲩ ⲙⲡⲉⲛⲛⲟⲩϯ.

افرحـــي .. إكليـــل فخرنـــا. افرحـــي .. أم جميع الأحياء. افرحي .. بدء خلاصنا. افرحي .. أم إلهنا.

Ⲣⲁⲱⲓ ... : ⲡⲧⲁⲭⲣⲟ

افرحي .. ثبات طهرنا.

افرحي .. أم الملك. افرحي .. الحمامة الحسنة. افرحي .. أم يسوع المسيح.	ⲙⲡⲉⲛⲧⲟⲩⲃⲟ: Ⲣⲁϣⲓ ... : ⲉⲙⲁⲩ ⲙⲡⲓⲟⲩⲣⲟ : Ⲣⲁϣⲓ ... : ϯⲃⲣⲟⲙⲡⲓ ⲉⲑⲛⲉⲥⲱⲥ: ⲉⲙⲁⲩ ⲛ̀ⲓⲏⲥ ⲡ̀ⲭⲥ.
افرحي يا مريم فخر جنسنا، وشفيعة المؤمنين.	Ⲣⲁϣⲓ ⲱ Ⲙⲁⲣⲓⲁ : ⲡⲱⲟⲩϣⲟⲩ ⲙⲡⲉⲛⲥⲉⲛⲟⲥ : ⲟⲩⲟⲥ ϯⲡⲣⲟⲥⲧⲁⲧⲏⲥ: ⲛ̀ⲧⲉⲛⲓⲡⲓⲥⲧⲟⲥ.
اشفعي فينا أمام الذي خلقنا، لكي يثبّتنا في الإيمان المستقيم.	Ⲇⲣⲓⲡⲣⲉⲥⲃⲉⲩⲓⲛ ⲉϫⲱⲛ : ⲛⲁϩⲣⲉⲛ ⲫⲏⲉⲧⲁϥϣⲁⲙⲓⲟⲛ : ϩⲟⲡⲱⲥ ⲛ̀ⲧⲉϥⲧⲁϫⲣⲟⲛ : ϩⲉⲛ ⲡⲓⲛⲁϩϯ ⲉⲧⲥⲟⲧⲧⲱⲛ.
ويُنعم لنا بحياة بطريركنا أبينا أنبا ( )، الرّاعي الأمين.	Ⲟⲩⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉϥⲁⲣⲓϩⲙⲟⲩ ⲛⲁⲛ : ⲙ̀ⲡⲱⲛϩ ⲙ̀ⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ : ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ⲁⲃⲃⲁ ( )[6]ⲡⲓⲙⲁⲛⲉϭⲱⲟⲩ ⲉⲧⲉⲛϩⲟⲩ.
وكذلك شريكه خادم الأقداس الإلهي، أبينا الأسقف أنبا ( ).	Ⲡⲁⲓⲣⲏⲧ ⲙ̀ⲡⲉϥϣⲫⲏⲣ : ⲛ̀ⲁⲣⲭⲓⲉⲣⲉⲩⲥ ⲛ̀ⲛⲟⲩϯ : ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ⲛ̀ⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ: ⲁⲃⲃⲁ ( )
لكي يرعيان أبانا في	ⲉⲑⲣⲟⲧⲁⲙⲱⲛⲓ ⲙ̀ⲙⲟⲛ : ϩⲉⲛ

٦- يرد هنا كلمة Ⲓⲱⲁ والمقصود به هو البابا يؤانس الثامن عشر (١٧٦٩-١٧٩٦) مما يعود بزمن المخطوط لبضعة سنوات أبعد من سنة ١٨٠٤م بحسب تحقيق الأب أوجو زانيتي اليسوعي، الذي قام بعمل فهرس علمي لمخطوطات مكتبة دير القدّيس أنبا مقار.

٦- كلمة ⲫⲏⲉⲗⲁⲣⲭⲟⲫⲟⲥ غير مفهوم معناها.

المرعى الملوكي، ...	ⲡⲓⲙⲁ ⲙⲙⲟⲛⲓ : ⲙⲃⲁⲥⲓⲗⲓⲕⲟⲛ: ⲉⲑⲟⲩ ⲉⲥⲑⲟⲓ[7] ⲛⲍⲣⲏⲣⲓ.
والقمامصة والقساوسة والشَّمامسة والعلمانيين.	Ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲥⲧⲟⲙⲉⲛⲟⲥ : ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲡⲣⲉⲥⲃⲩⲧⲉⲣⲟⲥ : ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲇⲓⲁⲕⲱⲛⲟⲥ : ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲗⲁⲓⲕⲟⲥ.
والرُّهبان السَّاكنين في البريَّة. لكي ينالوا نصيباً ونعمة السَّماء.	Ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲙⲟⲛⲁⲭⲟⲥ : ⲉⲧⲯⲟⲡ ⲉⲓⲯⲁϥⲉⲓ : ⲛⲧⲟⲧⲟⲩ ⲙⲉⲣⲟⲥ : ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲍⲙⲟⲧ ⲛⲧⲉ ⲧⲫⲉ.
نعم حقاً نمجِّد يسوع المسيح، مع الممتلئة مجداً مريم العذراء.	Ⲥⲉ ⲟⲛⲧⲱⲥ ⲧⲉⲛϯⲱⲟⲩ : ⲛⲓⲏⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ : ⲛⲉⲙ ⲑⲏⲉⲟⲙⲉⲥ ⲛⲱⲟⲩ : Ⲙⲁⲣⲓⲁ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ.

(ب) ثيؤطوكيَّات الأيام

ثيؤطوكيَّة الاثنين: تحوي تسع قطع تتضمَّن خمسة وأربعين رُبعاً ويتكرَّر في نهاية كل قطعة المرد: "أشرق جسدياً من العذراء بغير زرع بشر حتى خلَّصنا".

ثيؤطوكيَّة الثلاثاء: تحوي سبع قطع تتضمَّن ثمانية وأربعين رُبعاً، ومرد كل قطعة هو: "لأنه بإرادته ومسرَّة أبيه والرُّوح القُدُس أتى وخلَّصنا".

ثيؤطوكيَّة الأربعاء: تحوي سبع قطع تتضمَّن واحداً وأربعين رُبعاً

٧- كلمة ⲉⲑⲟⲩ ⲉⲥⲑⲟⲓ ربما تكون ذات هجاء خاطئ، وغير معروف معناها.

ومرد كل قطعة هو: "الآب تطلّع من السَّماء فلم يجد مـــن يشـــبهك، أرسل ابنه وحيده أتى وتجسَّد منك".

ثيؤطوكيَّة الخميس: تحوي تسع قطع تتضمَّن خمسة وستين رُبعـــاً، ومرد كل قطعة هو الرُّبع: "لم يزل إلهاً أتى وصار ابن بشر، لكنه هـــو الإله الحقيقي أتى وخلّصنا".

ثيؤطوكيَّة الجمعة: تحوي سبع قطع تتضمَّن سبعة وعشرين رُبعـــاً، وهي أقصر ثيؤطوكيَّة. ومرد كل قطعة هو: "هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له، نسبحه ونمجده ونُزيده علواً".

ثيؤطوكيَّة السَّبت: وهي تسع قطع تحوي واحداً وثلاثـــين ربعـــاً، وقرار كل قطعة هو: "السَّلام لك يا ممتلئة نعمة، السَّلام لك يـــا مـــن وجدت نعمة، السَّلام لك يا من ولدت المسيح، الرَّب معك".

(ج) اللُّبش أو الشِّيرات

كل ثيؤطوكيَّة تُختم بأرباع خاصة بها تُسمى "لُبش" أي تفســـير. وكل لبش يبدأ ربعه الأوَّل والثاني بلحن اللُّبش إما الـــواطس أو الآدام، فيما عدا ثيؤطوكيَّة الأحد وثيؤطوكيَّة السَّبت. فثيؤطوكيَّة الأحد تختـــتم بثلاثة قطع من أجل القيامة، وثيؤطوكيَّة السَّبت تُختم بالشِّـــيرات الأولى والثانية، وهي الشِّيرات التي مطلعها:

"السلام لك يا ممتلئة نعمة، العذراء غير الدَّنسة، الإناء المختـــار لكل المسكونة.

Χαίρος παρ'ήμων, Μαρία Θεοτοκέ, τὸ σεμνὸν κειμήλιον ἁπάσης τῆς οἰκουμένης.

المصباح غير المُطفأ، فخر البتوليَّة، الهيكل غير المنقض، وقضيب الإيمان.

Ἡ λαμπὰς ἡ ἄσβεστος, ὁ στέφανος τῆς παρθενίας, τὸ σκῆπτορον τῆς ὀρθοδοξίας ὀγαὸς ὁ ἀκατάλυτος.

اسألي الذي ولدته مخلّصنا الصَّالح أن يرفع عنا هذه الأتعاب ويقرِّر لنا سلامه".

ومن المقطوع به - كما يقرر علماء الليتورجيَّا - أن مطلع الشِّيرات الأولى والثانية السَّابق ذكره مباشرة هو جزء من العظة الرَّابعة[٨] التي ألقاها البابا كيرلس الأوَّل عامود الدِّين (٤١٢- ٤٤٤م) بابا الإسكندريَّة الرَّابع والعشرون في كنيسة العذراء مريم بمدينة أفسس بين يومي ٢٣، ٢٦ يونية سنة ٤٣١م، بعد أن أعلن مجمع أفسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١م، أن العذراء هي والدة الإله بالحقيقة[٩]. وقد أورد الأب يعقوب مويزر نص الرُّبعين الأولين من الثلاثة أرباع السَّابق ذكرها بالقبطيَّة واليونانيَّة[١٠].

مؤلِّفو الثيؤطوكيَّات

من التَّقليد الشِّفاهي المتوارَث أن البابا كيرلس الأوَّل قد اضطلع بالجانب الأكبر في تأليف الثيؤطوكيَّات إن لم يكن كلها. ولازالت الثيؤطوكيَّات حتى اليوم هي المصدر الغني والخصب الذي يحوي كل

8- Cf. *PG.*, t. LXXVII, col. 991 – 996.

9- *Maria's Heerlijkeid in Egypten*, en studie der koptisch Maria, Literatur, Vol. 1, Louvan, a. m. 1651 - a. d. 1936, p. 161. & cf. also, P.G., t. LXXVII, Col., 991 – 996.

١٠- كيرليان، دراسات مختلفة بمناسبة مرور ١٥٠٠ سنة على وفاة كيرلس الإسكندري، الإكليريكية الفرنسيسكانيَّة الشَّرقيَّة، الجيزة، مصر ١٩٤٧م، ٣٠٨، ٣٠٩، ١٤٦، ١٤٣.

العقيدة الأرثوذكسيَّة عن العذراء، وعن سر التَّجسُّد الإلهي.

أما القس أبو البركات بن كبر فهو ينسب تأليف الثيؤطوكيَّات إلى البابا أثناسيوس الرَّسولي أو إلى أحد الرُّهبان، فيقول: "... وهي تُنسب إلى البطريرك أثناسيوس الرَّسولي رزقنا الله بركاته نسبة غير مسندة. وقيل إن شخصاً قديساً فاضلاً كان قرموصياً (؟) وترَّهب ببرية شيهات رتَّب ألحانها[١١] ... ".

فإن كانت الثيؤطوكيَّات قد نشأت في الكنيسة كأدب مكتوب، بدءًا من القرن الرَّابع أو الخامس للميلاد، إلاَّ أن المبادئ اللاهوتيَّة والإيمانيَّة التي تحويها الثيؤطوكيَّات كانت إيمان الكنيسة المحفوظ في وعيها وضميرها وتعليمها الشَّفاهي قبل هذا التَّاريخ بزمن بعيد.

ونلاحظ أن الثيؤطوكيَّات موضوعة في أسلوب شعري دون تقفية. وهذه القاعدة هي قاعدة عامة تنطبق على كافة الثيؤطوكيَّات باستثناء ثيؤطوكيَّة الأحد بدءًا من القطعة الثامنة وإلى نهاية الثيؤطوكيَّة. ويبدو من مضمون هذه القطع الأخيرة من ثيؤطوكيَّة الأحد أنها من وضع مؤلِّف آخر غير المؤلِّف الموهوب الذي وضع القطع السَّبع أو السِّت الأولى من الثيؤطوكيَّة، حيث تختم هذه القطع السِّت بصلاة سمعان الشَّيخ «الآن يا سيِّد تطلق عبدك بسلام كقولك ...» (لوقا ٢:٢٩). وهي المعروفة في المصطلح الكنسي باسم Nunc Dimittis. ووجود فصل الإنجيل هنا معترضاً تسلسل الثيؤطوكيَّة يوحي بوجود أكثر من مؤلِّف واحد لها. ولاسيَّما إذا عرفنا أن التِّسع قطع التي أعقبت السِّت قطع الأولى من الثيؤطوكيَّة لا يوجد فيها جديد لم تذكره السِّت قطع

١١- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

الأولى باستثناء بعض ألقاب العذراء مثل المرتفعة أكثر من رؤساء الآباء، والمكرَّمة أفضل من الأنبياء، والمشتملة بمجد رب الجنود. وقد أشرتُ إلى هذه الألقاب فيما بعد.

مضمون الثيؤطوكيَّات

لكل يوم من أيام الأسبوع ثيؤطوكيَّة تختص به. ويمكننا حصر مضمون الثيؤطوكيَّات عموماً في النقاط التالية:

(١) رموز العهد القديم عن العذراء وسر التَّجسُّد الإلهي منها.
(٢) نبوات العهد القديم عن التَّجسُّد والتي تحققت في ملء الزَّمان.
(٣) شرح عقيدة التَّجسُّد بأسلوب سهل في عبارات موزونة كالأشعار.
(٤) ألقاب العذراء القدِّيسة في الكنيسة القبطيَّة.
(٥) مديح وتمجيد وتطويب للعذراء وطلب شفاعتها أمام ابنها.
(٦) تعليم التَّقوى.

وأظنُّ أنه قد بات من المتعذِّر على أي مجتهد أن يأتي بأفضل مما أوردته الثيؤطوكيَّات من شرح لهذه النقاط السَّابقة في اختصار غير مخل أو في إسهاب غير مفرط. إيمان نقي في قطع موزونة كالأشعار. ولحن كنسي سهل الأداء، سريع الإيقاع، فتنساب العقيدة إلى داخل النَّفس انسياباً كجرعات حيَّة من اللاهوت الليتورجي العبادي تنعش حياة الكنيسة وتشدِّدها.

وبرغم مرور قرابة خمسة عشر قرناً على تأليف هذه الثيؤطوكيَّات ظلَّت الكنيسة تسبِّح بها دون كلل أو ملل، بل بقيت هذه الثيؤطوكيَّات حتى اليوم غذاءً يومياً في كل صباح لمحبي الكنيسة وليتورجيَّتها. غذاءٌ صباحيٌّ شهيٌّ في كل طلعة نهار يطيِّب القلب

ويفرِّح النَّفس ويشفيها، لم تزده هذه القرون إلاَّ وقاراً وأصالة ورسوخاً.

ولقد ظلَّت الثيؤطوكيَّة نوراً كاشفاً يفضح كل محاولة للمحاكاة، لمجرد المحاكاة إن خلت من روح الإلهام الكنسي. ولعل كثيراً من التآليف الحديثة التي امتلأت بها الأبصلموديَّة المقدَّسة الكيهكيَّة دليل على ذلك، وهو ما سأشير إليه في حينه.

والآن أُورد في إيجاز ما ذكرته الثيؤطوكيَّات عن النقاط الأساسيَّة السَّابق ذكرها.

(١) رموز العهد القديم عن العذراء وسر التَّجسُّد الإلهي منها.

- القبَّة التي صنعها موسى على جبل سيناء (أي قدس الأقداس في خيمة الاجتماع)، شبهوك بها يا مريم العذراء القبَّة الحقيقيَّة التي في داخلها الله.
- التَّابوت المصفَّح بالذَّهب من كل ناحية، المصنوع من خشب لا يسوِّس، هو مثال مريم المتسربلة بمجد اللاهوت داخلاً وخارجاً. وهو أيضاً (أي التَّابوت) دلَّنا على الله الكلمة الواحد من اثنين، لاهوت قدوس بغير فساد مساو للآب، وناسوت طاهر بغير مباضعة مساو لنا كالتَّدبير.
- الغطاء المظلِّل عليه بالكاروبين المصوَّرين. وأنت أيضاً يا مريم ألوف ألوف وربوات ربوات يظلِّلون عليك، مسبِّحين خالقهم وهو في بطنك[١٢].

١٢- لاحظ هنا دقة وحبك التشبيه، ولن نعلِّق كثيراً على العبارات، ولكن ليقرأها القارئ بتمعن.

- قسط الذَّهب النَّقي المخفي في وسطه المن. وأنت يا مريم حملت في بطنك المن العقلي الذي أتى من الآب. ذاك (أي قسط المن) وُضع في القبَّة شهادة لبني إسرائيل من أجل الخيرات التي صنعها معهم الرَّب الإله في بريَّة سيناء. وأنت يا مريم ولدت المن العقلي وأعطانا جسده ودمه الكريمين فحيينا إلى الأبد.
- المنارة الذَّهب النَّقي حاملة المصباح المتَّقد كل حين. الإله الحق الذي تجسَّد منك بظهوره أضاء علينا نحن الجلوس في الظُّلمة وظلال الموت. والذي في بطنك يا مريم أضاء لكل إنسان آت إلى العالم.
- المجمرة الذَّهب النَّقي حاملة جمر النَّار المباركة أي كلمة الله الذي تجسَّد منك، ورفع ذاته بخوراً إلى الله أبيه. فتلك (أي المجمرة) يُرفع فيها البخور المختار أمام الأقداس. ويرفع الله هناك خطايا الشَّعب من قبل المحرَقات ورائحة البخور. وأنت أيضاً يا مريم حملت في بطنك غير المنظور كلمة الآب، هذا الذي أصعد ذاته ذبيحة مقبولة على الصَّليب عن خلاص جنسنا.

هذه السِّتة رموز الأولى والتي وردت في السِّت قطع الأولى من ثيؤطوكيَّة الأحد تشهد دون جدال لروحانيَّة كاتبها، ودقَّته اللاهوتيَّة، وتأملاته المحكمة. وهذا هو أوَّل وأعمق وأسهل تفسير لما حوته خيمة الاجتماع من رموز تحقَّقت في العهد الجديد.

ونكمِّل بقية الرُّموز التي أوردتها الثيؤطوكيَّات:

- السُّلَّم التي رآها يعقوب ثابتة على الأرض ومرتفعة إلى السَّماء والملائكة نازلون عليها، والرَّب المخوف عليه. لأن الذي على الشَّاروبيم أتى وتجسَّد منك حتى اتحدنا به من قبل صلاحه.

- الشَّجرة التي رآها موسى متَّقدة بالنَّار ولم تحتـــرق. أي ابـــن الله الذي أتى وحلَّ في بطنك، ونار لاهوته لم تحرق جسدك.

ثم أعادت الثيؤطوكيَّة الرَّمز بتوضيح أكثر فقالت:

- العلّيقة التي رآها موسى في البريَّة والنَّار مشتعلة فيها ولم تحتـــرق أغصانها هي مثال مريم العذراء غير الدَّنسة التي أتى وتجسَّد منها كلمة الآب ونار لاهوته لم تحرق بطن العذراء، وأيضـــاً بعـــدما ولدته بقيت عذراء. السَّلام للعلّيقة النفسيَّة التي للطبيعـــة، ونـــار لاهوته لم تحرق شيئاً منها.
- كلمة الله الحي الذي للآب نزل ليعطي الناموس على جبل سيناء وعلى رأس الجبل بالدُّخان والظَّـــلام والضَّـــباب والعاصـــف، وبصوت الأبواق كان يعلّم الواقفين بمخافة. هو أيضاً نزل عليك أيتها الجبل النَّاطق بوداعة ومحبة بشريَّة وتجسَّد منك بغير تغـــيير بجسد ناطق.
- لوحا العهد والعشر كلمات المكتوبة بإصبع الله سبقت أن دلَّتنـــا على اليوطة، اسم الخلاص الذي ليسوع المسيح.

ولقد أوردت ثيؤطوكيَّة الخميس تفسيراً لرمز جاء في سفر الرؤيـــا وطبَّقته على العذراء بحذق، فتقول:

- رأيتُ آية ظهرت في السَّماء، وإذ بـــامرأة متســـربلة بالشَّـــمس والقمر أيضاً تحت رجليها واثنا عشر كوكباً تكلّل رأسها، وهي حُبلى تتمخَّض صارخة لتلد. هي مريم السَّماء الجديدة التي على الأرض المشرق لنا منها شمس البر. لأن الشَّمس المتسربلة بها هو ربُّنا يسوع المسيح، والقمر الذي تحت رجليهـــا هـــو يوحنـــا المعمدان، والاثنا عشر كوكباً المكلّلة رأسها هي الاثنـــا عشـــر

رسولاً يحيطون بها، ويكرِّمونها. فلهذا يا جميع الشُّعوب نمجِّد العذراء لأنها ولدت لنا الله الكلمة وبتوليتها مختومة.

(٢) نبوات العهد القديم عن التَّجسُّد والتي تحقَّقت في ملء الزَّمان

حوت الثيؤطوكيَّات نبوات من داود وسليمان وإشعياء وحزقيال ودانيال وميخا.

- داود النَّبي تكلَّم بكرامتها، ودعاها مدينة الله. وأيضاً سليمان الجامعة هكذا يقول في نشيد الأنشاد: يا أختي وخليلتي الكاملة، رائحة ثيابك هي عنبر.
- الرُّوح القُدُس أيقظ داود قائلاً: قم رتِّل لأن النُّور قد أشرق، فقام داود المرتِّل القدِّيس وأخذ قيثارته الرُّوحية ومضى إلى البيعة بيت الملائكة فرتَّل وسبَّح للثالوث القدُّوس قائلاً: بنورك يارب نعاين نوراً، فلتأت رحمتك للذين يعرفونك.
- أقسم الرَّب لداود بالحق ولم يحنث أن من ثمرة بطنك أضع على كرسيك. وهذا أكمله بسر عظيم. وللوقت صرخ بالرُّوح قائلاً: إنَّا قد سمعنا في أفراته التي هي بيت لحم، الموضع الذي تفضَّل عمانوئيل إلهنا أن يولد فيه حسب الجسد من أجل خلاصنا.
- إشعياء كان ينظر بعين النبُّوة إلى سرّ عمانوئيل، فلهذا صرخ قائلاً: إنه يولد لنا ولد وأُعطينا ابناً، رئاسته على كتفه. الإله القوي المتسلِّط وملاك المشورة العظمى.
- حزقيال النَّبي يشهد قائلاً: إني رأيت باباً ناحية المشرق مختوماً بخاتم عجيب، ولم يدخل فيه أحد إلاَّ رب القوَّات. دخل وخرج وبقى مختوماً على حاله. الباب هو العذراء التي ولدت مخلِّصنا،

وقد بقيت عذراء بعد ولادته.

- هذا هو الحجر الذي رآه دانيال قد قُطع من جبل، ولم تمسه يد إنسان البتَّة، هو الكلمة الذي من الآب أتى وتجسَّد من العذراء بغير زرع بشر حتى خلَّصنا.

- ميخا النَّبي قال: وأنت أيضاً يا بيت لحم أرض أفراثه لست الصُّغرى بين ولايات يهوذا، لأنه منك يخرج مدبِّر يرعى شعبي إسرائيل. يا لهذا التَّوافق الذي لأولئك الأنبياء الذين تنبأوا بالرُّوح الواحد من أجل مجئ المسيح.

(٣) شرح عقيدة التَّجسُّد في الثيؤطوكيَّات

- اسم الخلاص الذي ليسوع المسيح، هذا الذي تجسَّد منك بغير تغيير وصار وسيطاً لعهد جديد.

- تجسَّد منك بغير تغيير بجسد ناطق مساو لنا، كامل، وله نفس عاقلة. بقي إلهاً على حاله، وصار إنساناً كاملاً.

- واحد من اثنين، لاهوت قدوسٌ بغير فساد مساو للآب، وناسوتٌ طاهر بغير مضاجعة مساو لنا كالتَّدبير. هذا الذي أخذ شبهنا ما خلا الخطيَّة وحدها.

- الكائن الذي كان، الذي أتي وأيضاً يأتي، يسوع المسيح الكلمة الذي تجسَّد بغير تغيير وصار إنساناً كاملاً. لم يفض ولم يختلط ولم يفترق بشئ من الأنواع من بعد الاتحاد، بل طبيعة واحدة، وأقنوم واحد، وشخص واحد لله الكلمة.

- الواحد وحده الكلمة المولود قبل كل الدُّهور باللاهوت بغير جسد من الآب وحده، هو ذاته أيضاً وُلد جسدياً بغير تغيير ولا تحوُّل من أمه وحدها. وأيضاً بعد أن ولدته لم يحل بتوليتها، وبهذا

أظهرها بأنها والدة الإله.

- لأن الذي وُلد إله بغير ألم من الآب، وُلد أيضاً حسب الجسد بغير ألم من العذراء. هو اتحاد الاثنين، لاهوت وناسوت. ولهذا سجد له المجوس ساكتين وناطقين بلاهوته. قدَّموا له لباناً كإله، وذهباً كملك، ومُراً علامة على موته المحيي.
- كل عجينة البشريَّة أعطتها (أي العذراء) بالكمال لله الخالق وكلمة الآب، هذا الذي تجسَّد منها بغير تغيير، ولدته كإنسان ودُعي اسمه عمانوئيل.
- الواحد من الثالوث، المساوي للآب في الجوهر، لما نظر إلى ذلنا وعبوديَّتنا المُرَّة، طأطأ سماء السَّموات وأتى إلى بطن العذراء، وصار إنساناً مثلنا ما خلا الخطيَّة وحدها.
- هو شمس البر، ولدتيه بغير دنس، وشفانا من خطايانا.
- لأنك ولدت الكلمة بغير زرع بشر، وبتولِّيتك بغير فساد.
- أشرق جسدياً من العذراء بغير زرع بشر حتى خلَّصنا.
- غير المنظور، غير المحدود، ولدته مريم وهي عذراء.
- حملت الكلمة غير المحوى، وبعدما ولدته بقيت عذراء، فبتسابيح وبركات نعظمك.
- عمانوئيل الذي ولدته هو حفظك بغير فساد وبتوليَّتك مختومة.
- وبعد أن صار إنساناً هو الإله أيضاً، فلهذا ولدته وهي عذراء.
- يا للطلقات الإلهيَّة العجيبة التي لوالدة الإله مريم العذراء كل حين. هذه التي منها اجتمع معاً بتوليَّة بلا دنس وميلاد حقيقي. لأنه لم يسبق الميلاد زواج، ولم يحل الميلاد بتوليَّتها.
- الآب تطلَّع من السَّماء، فلم يجد من يشبهك، أرسل ابنه وحيده،

أتى وتجسَّد منك.

- الآب صنعك، والرُّوح القُدُس حلَّ عليك، وقوة العلي ظلَّلتك يا مريم.
- لم يزل إلهاً، أتى وصار ابن بشر، لكنه هو الإله الحقيقي، أتى وخلَّصنا.
- غير المتجسِّد تجسَّد، والكلمة تجسَّم، غير المبتدئ ابتدأ، وغير الزَّمني صار زمنياً. غير المُدرك لمسوه، وغير المرئي رأوه، ابن الله الحي صار بشرياً بالحقيقة.
- السَّلام لبيت لحم مدينة الأنبياء التي وُلد فيها المسيح آدم الثاني لكي يرد آدم الإنسان الأوَّل التُّرابي إلى الفردوس، ويحل قضيَّة الموت؛ إنك يا آدم تراب وإلى التُّراب تعود. حلَّ الحاجز وقتل العداوة بالكمال، ومزَّق كتاب يد العبوديَّة الذي لآدم وحواء وحرَّرهما.
- أتيت إلى العالم بمحبتك للبَّشر، وكل الخليقة تهلَّلت بمجيئك، خلَّصت آدم من الغواية، وأعتقت أمنا حواء من طلقات الموت، وأعطيتنا روح البنوَّة، نسبِّحك ونباركك مع ملائكتك.
- السَّلام للتي أعطت الخلاص لآدم وحواء.
- من قِبَل مريم ابنة يواقيم عرفنا الذَّبيحة الحقيقيَّة لمغفرة الخطايا.
- هو أخذ الذي لنا، وأعطانا الذي له، نسبِّحه ونمجده ونزيده علواً.

(٤) ألقاب العذراء القدِّيسة في الكنيسة القبطيَّة

اضطلعت الثيؤطوكيَّات بمعظم ألقاب السيِّدة العذراء القدِّيسة مريم في تقليد الكنيسة القبطيَّة. أما الألقاب التي وردت عنها في الذُّكصولوجيَّات ولم ترد في الثيؤطوكيَّات فقد ميزَّتها بعلامة نجمة

(*) إلى جانب اللَّقب. ولكثرة ألقاب أمنا القدِّيسة مريم، فقد رتَّبتُها ترتيباً أبجدياً ليسهل الرُّجوع إليها. وهذه الألقاب هي:

أم ابن الله.
أم الحبيب.
أم السيِّد.
أم القدُّوس.
أم المتأنِّس.
أم المسيح.
أم النُّور المكرَّمة.
أم جميع الأحياء.
أم عمانوئيل.
إناء الإيمان الأرثوذكسي.
الإناء المختار لكل المسكونة.
ابنة الملك داود.
باب المشارق.
بستان العطر.
التَّابوت المصفَّح بالذَّهب.
تهليل الملائكة.
ثبات طهرنا.
جنس وأصل داود.
حاملة المصباح.
حاملة النُّور الحقيقي.
الحَجر الكريم.
الحقل الذي لم يُزرع وأخـــرج ثمرة حياة.
الحكيمة.
الحمامة الحسنة.
الخدر الطاهر.
رفعة الصدِّيقين.
والدة السيِّد.
رأس خلاصنا.
رجاء خلاص كل المسكونة.
زهرة البخور المقدَّسة.
السَّحابة الخفيفة التي دلَّتنا على مطر استعلان الإله الوحيد.
السَّماء الثانية الكائنة على الأرض.
السَّماء الجديدة التي على الأرض.
سيِّدتنا كلنا.
سيِّدتي.
الشَّفيعة الأمينة أمام ربنا يسوع المسيح.
شفيعة نفوسنا.
الصدِّيقة.
الصِّنارة العقليَّة.
الطَّاهرة.
العبدة والأم.

العرش الملكي المحمول على الشَّاروبيم.
العروس الطاهرة.
عصا هارون التي أزهرت بغير غرس ولا سقى..
العفيفة.
العلّيقة النفسانيَّة.
العنبر المختار*.
غُصن الطَّهارة.
الغطاء المظلل عليه بالكاروبين.
غير الدَّنسة.
فخر البتوليَّة.
فخر جميع العذارى.
فخر جنسنا.
الفردوس النَّاطق.
القبَّة الثانية التي للأقداس.
القبَّة الحقيقيَّة التي داخلها الله.
القبَّة غير المصنوعة بالأيدي.
القدِّيسة كل حين.
قسط الذَّهب النقي.
قضيب الإيمان.
كرازة الأنبياء.
كتر البر.
الكتر الذي اشتراه يوسف فوجد الجوهر مخفياً في وسطه.
الكتر الرُّوحي*.
اللامعة أكثر من الشَّاروبيم.
المائدة الرُّوحية.
المباركة في النِّساء.
المجمرة الذَّهب النَّقي.
المدينة المقدَّسة التي للملك العظيم.
المرتفعة أكثر من رؤساء الآباء.
مريم العذراء.
المزيَّنة بكل كرامة.
مسكن الصدِّيقين.
مسكن جميع الفرحين.
مسكن حكمة الله.
المشتملة بمجد رب الجنود.
المصباح غير المُطفأ.
المضيئة أكثر من الشَّمس.
معمل الاتحاد غير المفترق.
المكرَّمة أفضل من الأنبياء.
الملكة الحقيقيَّة.
الممتلئة نعمة.
المنارة الذَّهب.
المنارة النقيَّة.
ناحية المشارق التي ينتظرها الأبرار.
هيكل الواحد من الثالوث.
الهيكل غير المنقض.
والدة الإله.

اليمامة العقليَّة*.	منه نعمة اللاهوت.
اليمامة النقيَّة*.	ينبوع ماء الحياة المقدَّس.
ينبوع ماء الحياة التي نبعت لنا	

ومن بين الألقاب غير المحبوكة - ولاسيَّما في القطعة الثامنة - والتي ساقها المؤلِّف عن العذراء، نقرأ:

تهليل يعقوب.	فخر إسرائيل.
ثبات أيوب البار.	فخر يهوذا.
خلاص إشعياء.	فرح هابيل البار.
خلاص اسحق القدِّيس.	كرازة موسى.
خلاص نوح.	كرامة صموئيل.
شفاء إرميا.	نعمة إبراهيم.
صديقة سليمان.	نعمة أليشع.
علم حزقيال.	نعمة دانيال.

(٥) مديح وتمجيد وتطويب للعذراء وطلب شفاعتها

- تكلَّموا من أجلك بأعمال كريمة أيتها المدينة المقدَّسة التي للملك العظيم.
- إنك قدَّمت شعباً كثيراً لله ابنك من قبل طهارتك.
- لا أخطئ في شئ إذا دعوتك المحمرة الذَّهب.
- مجدك يا مريم أرفع من السَّماء، وأنت أكرم من الأرض وسكانها.
- يا من لبست لباس السَّمائيين حتى سترت آدم بلباس النِّعمة.
- لأنه من قبلها وجدت النِّساء دالة أمام الرَّب.
- عظيم مجد بتوليَّتك يا مريم العذراء الكاملة.
- تطوِّبك جميع الأجيال ونحن نسجد للذي ولدته ونزيده علواً.

- السَّلام لمعملِ الاتحاد غير المفترق الذي للطَّبائع التي أتت معـاً إلى موضع واحد بغير اختلاط.
- يا من ولدت المسيح إلهنا بالحقيقة بغير زرع بشر وأنـت عـذراء. أسألك يا والدة الإله، اجعلي أبواب الكنائس مفتوحة للمؤمنين.
- نمجِّدك كوالدة الإله، اسألي ابنك ليغفر لنا خطايانا.
- نسأل ونطلب أن نفوز برحمة بشفاعاتك عند محب البشر.
- أنت مستحقة أكثر من جميع القدِّيسين أن تطلبي عنـا أيتـها الممتلئة نعمة.

(٦) تعليم التَّقوى في الثيؤطوكيَّات

- شبَّهوا المنارة الذَّهبية بالكنيسة، وسرجها السَّبعة بالسَّبع طغمات.
- شبَّهوا عصا هارون بخشبة الصَّليب التي صُلب ربي عليها حتى خلَّصنا.
- شبَّهوا المائدة الذَّهبيَّة بالمذبح وخبز التَّقدمة بجسد الرَّب.
- شبَّهوا رئيس الكهنة بمخلِّصنا، الذَّبيحة الحقيقيَّة لمغفرة الخطايا.
- لأنه (أي الآب) غُلب من تحننه وأرسل لنا ذراعه العالية.
- كل من يقول ياربي يسوع كمن بيده سيف يصرع به العدو.
- الله هو عمانوئيل الطَّعام الحقيقي، شجرة الحياة العديمة الموت.
- كل العلل الرَّديئة فلنتركها عنا ولنطهِّر قلوبنا باسم الرَّب.
- فليكن اسم الرَّب فينا ليضئ علينا في إنساننا الدَّاخلي.
- هذا هو الحجر الحقيقي الكثير الثَّمن الذي باع الرَّجل التَّاجر كل ما له واشتراه، اترك لنا نحن أيضاً الآن هذا الحجر ليضئ علينا في إنساننا الدَّاخلي.
- تغيب الشَّمس والقمر في زمانهما، وأنت هو أنت وسنوك لن تفنى.
- الإله الحق من الإله الحق الذي تجسَّد منك بغير تغيير بظهوره أضاء علينا نحن الجلوس في الظُّلمة وظلال الموت. وقوَّم أرجلنا

إلى طريق السَّلام بشركة أسراره المقدَّسة.

- مراحمك يا إلهي غير محصاة، وكثيرة جداً هي رأفاتك. الخطايا التي صنعتُها ياربي لا تذكرها ولا تحسب آثامي. وأنا الخاطئ يا سيِّدي علِّمني أن أصنع توبة. ردَّنا يا الله إلى خلاصك وعاملنا كصلاحك. تراءف علينا كلنا أيها الرَّب الإله مخلِّصنا، وارحمنا كعظيم رحمتك.
- من أجل حواء أُغلق باب الفردوس، ومن قِبَل مريم العذراء فُتح لنا مرَّة أخرى.
- هو أخذ جسدنا وأعطانا روحه القدُّوس. وجعلنا واحداً معه من قِبَل صلاحه.
- من قِبَل صليبه وقيامته المقدسة ردَّ الإنسان مرَّة أخرى إلى الفردوس.
- يا ربنا يسوع المسيح حامل خطيَّة العالم، احسبنا مع خرافك الذين عن يمينك.
- يأتي الشُّهداء حاملين عذاباتهم، ويأتي الصدِّيقون حاملين فضائلهم. يأتي ابن الله في مجده ومجد أبيه ويجازي كل واحد كأعماله التي عملها.
- يباركنا الله ولنبارك اسمه القدُّوس، في كل حين تسبحته دائماً في أفواهنا.
- مباركٌ الآب والابن والرُّوح القُدُس، الثالوث الكامل نسجد له ونمجده.

مما سبق ذكره أكون قد وفيَّت جانباً وافراً من نصوص الثيؤطوكيَّات وختامها الواطس والآدام.

ألماحة تاريخيَّة عن الثيؤطوكيَّات في العصور الوسطى

يطلعنا العالم الطَّقسي شمس الرئاسة بن كبر (+ ١٣٢٤م) عن أمر جدير بالانتباه، وهو أن هذه الثيؤطوكيَّات لم تكن منتشرة كانتشار الإبصاليَّات في الكنيسة القبطيَّة، لكنها كانت تُرتَّل فقط في كنائس مصر القديمة، والقاهرة، والوجه البحري، أما كنائس الصَّعيد فلم تكن تعرفها إلاَّ نادراً. فيقول في ذلك:

"الثاوضوكيَّات؛ وهي معروفة عند القبط المصريين، يتداولونها في كنايس مصر والقاهرة والوجه البحري. وأما أهل الصَّعيد فلا يقولون بها، ولا تُستعمل في بلادهم، إلاَّ نادراً في البعض من كنايس الصَّعيد الأدنى ... وهي تُستعمل عند الرُّهبان لقطع الليل إذا طال، ولرغبتهم في الاستفادة من التَّرتيل والتَّهليل والابتهال ...(١٣)".

الثيؤطوكيَّات في الكنيسة اليونانيَّة

وفي الكنيسة اليونانيَّة خدمة تُسمى "خدمة مديح والدة الإله الفائقة القداسة"، وهي خدمة لا يُسمح بالجلوس في أثنائها، وهي المعروفة اصطلاحاً باسم "أكاثيسطن(١٤)".

وأُورد فيما يلي مثالاً لما تحويه هذه الخدمة من نصوص ليتورجيَّة في تطويب العذراء، والألقاب التي توصف بها في التَّقليد اليوناني، وعلى القارئ العزيز أن يلاحظ مقدار الفارق الكبير بين التَّقليدين القبطي واليوناني في الألقاب المختصَّة بالعذراء في نصوص الصَّلوات الليتورجيَّة.

١٣ـ كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

١٤– انظر: فهرس المصطلحات الكنسيَّة تحت كلمة "أكاثيستوس".

- افرحي يا من بها يشرق السُّرور، افرحي يا من بها تضمحل اللَّعنة.
- افرحي يا علواً يعسر الصعود نحوه بالأفكار البشريَّة.
- افرحي يا عمقاً يمتنع النَّظر إليه من أبصار الملائكة.
- افرحي يا من بها تتجدَّد الخليقة، افرحي يا من بها صار الخالق طفلاً.
- افرحي يا كرمة غصن لا يذبل. افرحي يا قنية ثمر لا يفسد.
- افرحي يا والدة الحمل والرَّاعي. افرحي يا صيرة الغنم النَّاطقة.
- افرحي يا من تعدى بها الجحيم. افرحي يا من تسربلنا بها المجد.
- افرحي يا أم النَّجم الذي لا يغيب. افرحي يا فجر النَّهار السِّري.
- افرحي يا مرشدة المؤمنين إلى العفَّة. افرحي يا سرور كل الأجيال.
- افرحي أيتها السيِّدة، يا سوسنًا لذيذ التنسُّم معطراً للمؤمنين، وبخوراً زكي الرَّائحة، وطيباً جزيل الثَّمن.
- افرحي أيتها الباب وحدك، الذي فيه اجتاز الكلمة وحده.
- افرحي يا شفيعة عند الدَّيان العادل. افرحي يا غفران الخطأة الكثيرين.
- افرحي يا إناء لحكمة الله. افرحي يا خزانة عنايته.
- افرحي يا مظلَّة الإله الكلمة. افرحي يا قدِّيسة أفضل من كل القدِّيسين.
- افرحي يا برجاً للكنيسة لا يتزعزع. افرحي يا سوراً للمملكة لا ينهدم.

هذا خلاف الثيؤطوكيَّات التي تُرتل على مدار السَّنة مرتَّبة على الثمانية ألحان. فلكل لحن من هذه الثمانية ألحان مجموعة طروباريَّات تقال على مدار الأسبوع.

والثيؤطوكيَّة في الكنيسة اليونانيَّة لها ثماني نغمات متغيِّرة. أما في الكنيسة القبطيَّة فالثيؤطوكيَّة لها نغمتان فقط، واحدة على مدار السَّنة الطَّقسيَّة، والأخرى تختص بشهر كيهك المبارك.

وننتقي فيما يلي بعضاً من نصوص هذه الثيؤطوكيَّات أو الطروباريَّات المختصة بالعذراء في الكنيسة اليونانيَّة:

- إن الذي بغير أم في السَّموات، قد ولدته بغير أب على الأرض، بحال

تفوق العقل والسَّمع. فإليه ابتهلي يا والدة الإله من أجل خلاص نفوسنا.

– إن جبرائيل لما تفوَّه نحوك أيتها العذراء بالسَّلام، فمع الصَّوت تجسَّد سيِّد الكل منك أيتها السَّفينة المقدَّسة كما قال داود الصِّدِّيق. وظهرت أرحب من السَّموات حاملة خالقك. فالمجد للذي حلَّ فيك، المجد للذي أتى منك، المجد للذي أعتقنا بولادته منك.

– لقد صرنا بك مشاركين الطبيعة الإلهيَّة يا والدة الإله الدَّائمة البتوليَّة، لأنك ولدت لنا إلهاً متجسِّداً، فلذلك بحسب الواجب نعظِّمك جميعنا بحسن عبادة.

– أنت ملجأنا وقوَّتنا يا والدة الإله، يا معونة العالم القويَّة، فبشفاعاتك استري عبيدك من كل شدَّة أيتها المباركة وحدك.

– أيتها العذراء البريئة من كل العيوب أم المسيح الإله، إن الحربة قد نفذت في نفسك الكليَّة القداسة حين أبصرت ابنك وإلهك مصلوباً باختياره. فلا تزالي مبتهلة إليه أيتها المباركة أن يمنحنا غفران الزَّلات.

– يا والدة الإله إليك نهتف مع الملائكة السَّماويين والبشر الأرضيين بصوت الابتهاج قائلين: افرحي يا باباً أرحب من السَّموات، افرحي يا خلاص الأرضيين وحدك، افرحي أيتها النقيَّة الممتلئة نعمة، يا من ولدت الإله متجسِّداً.

– أيها المسيح الإله، يا من أشرقتَ من البتول للعالم، أظهرنا بطلباتها بني النُّور وارحمنا.

– يا رجاء العالم، يا صالحة، يا والدة الإله العذراء، إننا نسأل نصرتك وحدك العزيزة، فتحنني على شعب ليس له معين، وابتهلي إلى الإله الرَّحيم أن ينقذ نفوسنا من كل وعيد، يا من أنت مباركة وحدك.

– يا والدة الإله أنقذينا من الخطايا المستحوذة علينا، لأنه ليس لنا نحن المؤمنين ملجأ آخر سواك أنت والإله المولود منك.

– لما نظرت الوالدة الحمل والراعي ومخلِّص العالم على الصَّليب معلقاً، قالت وهي باكية: أما العالم فيفرح لقبوله الخلاص، وأما أحشائي فتلتهب عند

نظري إلى صلبك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل يا ابني وإلهي[١٥].

– أيتها الطَّاهرة يا والدة الإله، يا باب الحياة العقلي، أنقذي من الشَّدائد المسارعين إليك بإيمان، لكي نمجِّد مولدك الكلي قدسه لخلاص نفوسنا[١٦].

– يا من وُلدت من البتول من أجلنا، وكابدت الصَّلب أيها الصَّالح، يا من سبيت الموت بموتك، وأريت القيامة بما أنك إله. لا تعرض عن الذين جبلتهم بيديك، بل اظهر تعففك على النَّاس أيها الرَّحيم، وتقبَّل والدتك والدة الإله متشفعة من أجلنا، وخلِّص يا مخلِّصنا شعباً يائساً[١٧].

هذا مثال لما تحظى به العذراء القدِّيسة أم النُّور مريم من تكريم وتطويب وتمجيد في كنيسة المسيح الجامعة. فحقَّ قولها عن نفسها «جميع الأجيال تطوِّبني»، ومسرور أنا أن أبلغ جيلاً يطوِّبك أيتها الأم الحنون، أنت المعينة المؤتمنة في كل ضيقاتنا، والمؤنس الودود في أيام غربتنا، والنُّور الطَّاهر الذي يغسل دنس ظلمتنا. اشفعي فينا كل حين أمام ابنك إلهنا ليغفر لنا خطايانا. آمين.

١٥– تقال في الكنيسة اليونانيَّة باللَّحن الثامن في مساء الثلاثاء والخميس، وصباح الأربعاء والجمعة من كل أسبوع. وهي نفس القطعة التي تُصلى في صلاة السَّاعة التاسعة في الكنيسة القبطيَّة.

١٦– تُقال في الكنيسة اليونانيَّة باللَّحن الثامن في مساء الأربعاء وصباح الخميس. وهي نفس القطعة التي تُقال في الخدمة الثانية من صلاة نصف اللَّيل في الكنيسة القبطيَّة.

١٧– تقال في الكنيسة اليونانيَّة باللَّحن الثامن في مساء الجمعة وصباح السَّبت، وهي نفس القطعة التي تُصلى في السَّاعة التاسعة في الكنيسة القبطيَّة.

الفَصل الخَامس

الدِّفنـــــــار

تعريف

"الدِّفنار" تعريب للكلمة اليونانيَّة ἀντιφωνάριον (أنتيفوناريون). وهو في الإنجليزية antiphonary والكلمة تعني في أصولها "صوت مقابل صوت". وعلى ذلك فكتاب الدِّفنار يحوي نصاً يؤدَّى بطريقة الأنتيفونا، أي فقرة (رُبع) ملحَّنة يردِّدها الخوروس البحري، ويعقبها فقرة (رُبع) ملحَّنة يردِّدها الخوروس القبلي بالتَّناوب.

الموضع الطَّقسي لقراءة الدِّفنار

أما الموضع الطَّقسي لقراءة كتاب الدِّفنار فيكون في تسبحة عشيَّة، أو تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، وقرب ختامهما. فبعد الثيؤطوكيَّة مباشرة وقبل ختام الثيؤطوكيَّات يُقرأ الدِّفنار بلحن الطَّرح الواطس أو الآدام. ويسبق قراءة الدِّفنار مقدِّمة واطس أو آدام تُقال باللَّحن. ويُقال الدِّفنار أيضاً عند عمل تمجيد للعذراء أو لواحد من صفوف السَّمائيين، أو ليوحنا المعمدان أو لأحد الشُّهداء أو القدِّيسين.

مضمون الدِّفنار

والدِّفنار كتاب يحتوي سرداً تاريخياً مختصراً في أسلوب تماجيد

وتطويبات للأعياد السيديَّة وأعياد العـــذراء والملائكـــة والشُّـــهداء والقدِّيسين. واليوم يقتصر ترتيل الدِّفنار بطريقة الأنتيفونا علـــى الـــرُّبعين الأوَّلين منه فقط بالقبطيَّة، أما باقي الأرباع فتُقرأ دمجاً باللغة العربيَّة.

والدِّفنار هو أحد الكتب الكنسيَّة التي تحوي الطروحات الخاصة بمناسبات الكنيسة المختلفة على مدى السَّنة الطِّقسيَّة، ومعظم هـــذه الطروحات يعود إلى القرن الثالث عشر أو الرَّابع عشـــر للمـــيلاد. وبعضها له نص باللهجة القبطيَّة الصعيديَّة وُجدت في مجموعة مُرجان وتعود إلى القرن التَّاسع الميلادي.

حول بعض مخطوطات الدِّفنار

لقد قام الدكتور أزولد بورمســـتر O.H.E. Burmester بعمـــل دراسة أكاديميَّة لطروحات الكنيسة القبطيَّة سواء التي تُقرأ على مدار السَّنة الطِّقسيَّة[1]، أو في مناسبات أعياد القدِّيســـين[2]. واعتمـــد في دراسته للطُّروحات التي تُقرأ من الدِّفنار في أعياد القدِّيسين على مخطوطتين:

المخطوط الأوَّل: من مكتبة كنيسة الســـيِّدة العـــذراء قصـــريَّة الرَّيحان بمصر القديمة، ويعود إلى القرن السَّـــادس عشـــر. ويُختـــتم المخطوط بالعبارة التَّالية: "كمل هذا الكتاب المبارك في العشر الأوَّل من شهر أبيب المبارك سنة ١٢٩٦قبطية للشُّهداء الأطهـــار، (١٥٨٠ م)

1- Burmester, O.H.E., *The Turuhat of the Coptic Church*, dans Orientalia Christiana Periodeca (OCP), t. 3, 1937, p. 78 - 109 & *The Turuhat of the Coptic Fear*, dans Orientalia Christiana Periodeca (OCP), t. 3, 1937, p. 505 - 549.

2- Burmester, O.H.E., *The Turuhat of the Saints*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. IV, (1938), p. 141 - 194 & (BSAC), t. V, (1939), p. 85 – 157.

وذلك برسم بيعة ستنا السيِّدة بدرب التقه بمصر القديمة عمّرها الله تعالى بذكرها على الدَّوام. ولربنا المجد دايماً أبداً".

ويبتدئ المخطوط بعبارة:

"بسم الله. نبتدي بعون الله تعالى وحسن إرشاده بنسخ كتاب الدفناري أعني الطروحات التي تقرى بطول السنة القبطية في الأعياد[٣] وأعياد ستنا العذرى الملايكه والشهدا والقديسين أول ذلك اليوم الأول من شهر توت النيروز المبارك أوَّل السَّنة القبطيَّه طرح آدام ويتلوه الطرح الواطس".

والمخطوط الثاني: وهو برقم (٣٢٣ طقس) بالمتحف القبطي، ويعود إلى القرن الخامس عشر، وعنوانه بالقبطيَّة ما ترجمته: "كتاب الدِّفنار لأعياد السَّنة القبطيَّة". وقد قام الدكتور بورمستر O.H.E. Burmester بعمل دراسة مقارنة بين هاذين المخطوطين السابق ذكرهما، مع الدراسة التي طُبعت في لندن عن دفنار الكنيسة القبطيَّة سنة ١٩٢٦م[٤]. حيث أورد أوَّل رُبع وآخر رُبع من الطَّرح بالقبطيَّة، وعدد الأرباع. مع إبراز الكلمات اليونانيَّة التي وردت في النَّص القبطي. إلى جانب الشَّواهد الكتابيَّة لما حوته نصوص هذه الأرباع.

ونخلص من هذه الدِّراسة المدقّقة إلى:

• يدوِّن أحد المخطوطين أرباع الطَّرح كاملة بالقبطيَّة بينما يكتفي الآخر ببعضها بالقبطيَّة ويكمِّل تدوين الباقي بالعربيَّة، على

٣- هذه الكلمة غير واضحة في المخطوط، وربما تكون "الآحاد"، ولكن الأستاذ يسى عبد المسيح يعتقد أنها "الأعياد".

4- De Lacy O'Leary, *The Difnar (Antiphonarium) of the Coptic Church*, London, 1926, p. 101 – 118.

خلاف ما نجده الآن في الدِّفنار المطبوع سنة ١٩٢٠م، والذي يكتفي بإيراد الرُّبعين الأوَّلين فقط بالقبطيَّة والباقي بالعربيَّة. فمثلاً مخطوط قصريَّة الرِّيحان أورد ٩ أرباع بالقبطيَّة لطرح آدام عن يوم ٢٧ توت، بينما أوردها مخطوط المتحف القبطي ٦ أرباع فقط بالقبطيَّة والباقي بالعربيَّة فقط.

• نادراً ما يتَّفق المخطوطان في عدد الأرباع التي ترد في الطَّرح سواء الواطس أو الآدام. كما في طرح آدام ليوم أوَّل توت، وطرح آدام وواطس ليوم ١٢ توت.

• في الغالب يحوي مخطوط المتحف القبطي أرباعاً أكثر عدداً من تلك التي يوردها مخطوط قصريَّة الرِّيحان، وتصل في كثير من الطروحات إلى الضِّعف تقريباً.

• أورد مخطوط المتحف القبطي طروحات كثيرة لم ترد في مخطوط قصريَّة الرِّيحان، مثل طرح واطس ليوم ٢ توت، وطرح آدام ليوم ١٥ توت. وفي المقابل أورد مخطوط قصريَّة الرِّيحان بعض طروحات لم ترد في مخطوط المتحف القبطي، كما في طرح آدام ليوم ٢٢ توت. وهذا الطَّرح عينه ورد في كتاب التَّماجيد المقدَّسة مع اختلافات طفيفة مع المخطوط، وهو طرح مختص بالقدِّيس يوليوس الأقفهصي.

لقد اخترنا شهر توت كمثال لما نود أن نشير إليه، وهو أن دفنار الكنيسة القبطيَّة لازال يحتاج إلى دراسة أكاديميَّة دقيقة. وما قدَّمه الدُّكتور بورمستر O.H.E. Burmester مشكوراً في هذا الشَّأن ليس سوى بادرة طيِّبة لعمل شاق طويل، لن يقوى على مواصلته إلى النِّهاية إلاَّ قبطي غيّور من أبناء الكنيسة القبطيَّة.

إن كتب الصَّلوات الطَّقسيَّة في الكنيسة القبطيَّة بـاب رحـب مفتوح الآن على مصراعية بعد أن أصبح من الممكن حصـر كافـة المخطوطات القبطيَّة في كافة مكتبات العالم مع التطوُّر التكنولـوجي الحديث، الذي يسَّر أمام الرَّاغبين سُبل الدِّراسة والبحث. ولا يجـب أن نظل قابعين في أماكننا مكتفين بأن نكون أحد موضوعات التاريخ التي يؤرخ لها الآخرون.

وأظن أن الأستاذ الدُّكتور مراد كامـل (١٩٠٨- ١٩٩٠م) كـان محاملاً للدِّفنار حينما قرَّظه بقوله: "إنه لا يحوي مجرَّد تاريخ جاف، وإنما جاء في أسلوب أدبي عميق بالغ الأثر مع لون من الإيحاء في الكتابة[٥]".

الدِّفنار في الكنيسة اليونانيَّة

ويُسمى الدِّفنار في الكنيسة البيزنطيَّة "المناوون"، وهو في اثـنى عشر مجلداً. ويُدعى عند السِّريان Fanbit وهو في سبعة مجلدات، واسمه عند الكلدان Gazzal ، ويُسمى Sharakan عند الأرمـن. وفي الكنيسـة الغربيَّة هو كتاب يحوي كل ما يردده الخوروس بطريقة الأنتيفونا في خدماته الكنسيَّة antiphonarium ofici أو في القدَّاس antiphonarium missae .

٥- الدكتور مراد كامل، العصر القبطي في تاريخ الحضارة المصرية، ١٩٦٣م ص ٢٥٢

الفَصل السَّادس

ختام الثيؤطوكيَّات

إن كانت الثيؤطوكيَّة في معظم نصِّها اللّيتورجي تتَّجه نحو العذراء وسر التَّجسُّد الإلهي الذي صار منها، فإن ختام الثيؤطوكيَّات هو خطاب مباشر لله في صيغة صلاة عميقة وطلب رحمة.

ونورد هنا نص ختام الثيؤطوكيَّات الآدام، وإن مجرد قراءتها بروح الصَّلاة يبعث في النفس خشوعاً وانسحاقاً وتوبة:

- مراحمك يا إلهي غير محصاة، وكثيرة جداً هي رأفتك.
- قطرات المطر محصاة عندك جميعها، ورمل البحر كائن أمام عينيك.
- فكم بالحري خطايا نفسي هذه الظَّاهرة أمامك يارب.
- الخطايا التي صنعتها ياربي لا تذكرها، ولا تتأمَّل آثامي.
- فإن العشَّار اخترته، والزَّانية خلَّصتها، واللّص اليمين يا سيِّدي ذكرته.
- وأنا أيضاً يا سيِّدي الخاطئ علِّمني أن أصنع توبة.
- لأنك لا تشاء موت الخاطئ مثل أن يرجع وتحيا نفسه.
- رُدَّنا يا الله إلى خلاصك، واصنع معنا كصلاحك.
- لأنك أنت صالح ورحوم، فلتدركنا سريعاً رأفاتك.
- ترأف علينا كلنا أيها الرَّب الإله مخلِّصنا وارحمنا كعظيم رحمتك.
- هؤلاء اذكرهم يا سيِّدنا المسيح. كن في وسطنا صارخاً قائلاً.
- سلامي أنا أعطيكم، سلام أبي أتركه معكم.
- يا ملك السَّلام أعطنا سلامك، قرِّر لنا سلامك، واغفر لنا خطايانا.
- فرِّق أعداء الكنيسة وحصِّنها فلا تتزعزع إلى الأبد.

– عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن بمجد أبيه والرُّوح القُدُس.
– ليباركنا كلّنا ويطهِّر قلوبنا ويشفي أمراض نفوسنا وأجسادنا.
– نسجد لك أيها المسيح مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُدُس لأنك أتيت وخلّصتنا.

أما نص ختام الثيؤطوكيَّات الواطس فهو:

– يا ربَّنا يسوع المسيح حامل خطيَّة العالم احسبنا مع خرافك الذين عن يمينك.
– إذا أتيت في ظهورك الثاني المخوف فلا نسمع برعدة أنني لست أعرفكم.
– بل فلنستحق سماع الصَّوت الممتلئ فرحاً الذي لرأفتك يصرخ قائلاً:
– تعالوا إليَّ يا مباركي أبي، رثوا الحياة الدَّائمة إلى الأبد.
– يأتي الشُّهداء حاملين عذاباتهم، ويأتي الصدِّيقون حاملين فضائلهم.
– يأتي ابن الله في مجده ومجد أبيه ويجازي كل واحد كأعماله التي صنعها.
– أيها المسيح كلمة الآب الإله الوحيد، أعطنا سلامك هذا المملوء من كل فرح.
– كما أعطيته لرسلك القدِّيسين قل لنا مثلهم أن سلامي أعطيكم.
– سلامي أنا الذي أخذته من أبي أنا أتركه معكم من الآن وإلى الأبد.
– يا ملاك هذا اليوم الطَّائر إلى العلو بهذه التَّسبحة، اذكرنا قدام الرَّب ليغفر لنا خطايانا.
– المرضي اشفهم، الذين رقدوا يارب نيِّحهم. وإخوتنا الذين في كل شدَّة يارب أعنَّا وإياهم.
– يباركنا الله ولنبارك اسمه القدُّوس، في كل حين تسبحته دائمة في أفواهنا.
– مباركٌ الآب والابن والرُّوح القدس الثالوث الكامل، نسجد له ونمجده.

هكذا تصلي الكنيسة في تسبيحها وصلاتها، بكلمات أعمق وأغنى مما يمكن أن يلهج به لسان مصلٍّ بمفرده. إن قوَّة وفاعليَّة واقتدار تسبيح الكنيسة تكمن في صلاة الجماعة بحسب قول الرَّب «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي هناك أكون في وسطهم» (متى ١٨: ٢٠).

وبعد ترتيل ختام الثيؤطوكيَّات يُقال قانون الإيمان بمقدِّمته "نعظمك يا أم النُّور ..."

الفَصل السَّابع

طلبة ختام التَّسبحة

بانتهاء الدِّفنار وختام الثيؤطوكيَّات ترتِّل الكنيسة طلبة ختام التَّسبحة. ويتَّضح من نصِّها البسيط أنها سحيقة في القدم. وإن كنَّا لا نعرف تاريخ وضعها، أو من هو مؤلِّفها، إلاَّ أن أسلوبها إسكندري الأصل. وهي تعرض الإيمان بالمسيح في غاية البساطة "أنت ابن الله"، "آمنا بك"، ثم تشرح للحال سبب هذا الإيمان "لأنك أتيت وخلَّصتنا". فهكذا ترتِّل الكنيسة اللاهوت وتشربه شرباً لا بكلمات تملأ العقل بل بصلاة من أعماق القلب. إنه لاهوت الشَّرق العبادي، لاهوت الصَّلاة، لاهوت الحياة الكنسيَّة، لاهوت التَّسبيح والشَّركة.

وفي هذه الطِّلبة الختاميَّة تناجي الكنيسة إلهها ومخلِّصها يسوع المسيح متوسِّلة إليه أن يتعهَّدها بخلاصه. ويتخلَّل الطِّلبات مرد "كيرياليسون" ثلاث مرات في نهاية كل طلبة. وفيما يلي نص هذه الطلبات:

يا الله ارحمنا.
يا الله اسمعنا.
يا الله انظر إلينا.
يا الله اطَّلع علينا.
يا الله تراءف علينا.
نحن شعبك.
نحن جبلتك.
نجنا من أعدائنا.

نجنا من الغلاء.
نحن عبيدك.
أنت ابن الله.
آمنا بك.
لأنك أتيت وخلصتنا.
تعهدنا بخلاصك.
واغفر لنا خطايانا.

هنا يُقال: "قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ ربُّ الصَّباؤوت ..."، والصَّلاة الرَّبية، ثم يصلي الكاهن تحليل صلاة نصف اللَّيل، وبذلك تنتهي تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، وهي تستغرق قرابة ثلاث ساعات ونصف متضمِّنة مزامير نصف اللَّيل وتحليل نصف اللَّيل. وتبدأ بعدها مباشرة صلاة باكر النَّهار[١]، "تعالوا نسجد تعالوا نسأل المسيح إلهنا ..." ثم مزامير صلاة باكر، ويعقبها مباشرة ذُكصولوجيَّة باكر آدام[٢].

١- يُرجى الرُّجوع إلى شرح لصلاة باكر النَّهار في كتاب: "الأجبية أي صلوات السَّواعي". أو في دورية "دراسات آبائيَّة ولاهوتيَّة"، وهي دورية نصف سنويَّة يصدرها المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائيَّة، القاهرة، السَّنة الرَّابعة، العدد السَّابع يناير ٢٠٠١م.

٢- قدمتُ دراسة ليتورجيَّة عن هذه الذُّكصولوجيَّة، في كتاب: "عيد الميلاد المجيد"، ضمن السِّلسلة الرَّابعة من الدُّرَّة الطِّقسيَّة: "طقوس أصوام وأعياد الكنيسة".

الفَصل الثَّامن

ذُكصولوجيَّة باكر آدام

تنقسم ذُكصولوجيَّة باكر آدام إلى ثلاثة أقسام رئيسيَّة، وأقدم جزء فيها وهو القسم الثاني منها يعود إلى القرن الخامس الميلادي، وهو من تأليف رهبان دير القدِّيس أنبا أنطونيوس بالصَّحراء الشَّرقيَّة. أما أقسام هذه الذُكصولوجيَّة فهي:

القسم الأوَّل: وهو عشرة أرباع تبدأ بالسُّجود للآب والابن والرُّوح القُدُس، ثم إعطاء السَّلام للكنيسة بيت الملائكة. ثم تتوالى أرباع هذه القسم لتعطي السَّلام للعذراء، وميخائيل رئيس الملائكة، والأربعة والعشرين قسيساً، والشَّاروبيم والسَّارافيم وجميع طغمات السمائيين، ويوحنا المعمدان، والاثنى عشر رسولاً، ومرقس الإنجيلي، واسطفانوس أوَّل الشُّهداء، ومار جرجس كوكب الصُّبح، وجميع صفوف الشُّهداء، والأنبا أنطونيوس، والثلاثة مقارات، وجميع لبَّاس الصَّليب والقدِّيسين. وتختم بالرُّبع الأخير: "بصلواتهم أيها المسيح ملكنا، اصنع معنا رحمة في ملكوتك".

وقد أثبتُّ في شرح مطوَّل لا أبغي تكراراه هنا[1] أن هذه الأرباع العشرة لم تكن في الأصل ضمن ذُكصولوجيَّة باكر آدام، وإنما هي أقدم أرباع ناقوس عرفتها الكنيسة القبطيَّة. وعلى منوالها نسجت أرباع

١- راجع للمؤلِّف في ذلك كتاب: "الأجبية أي صلوات السَّواعي"، وأيضاً كتاب: "عيد الميلاد المجيد".

النَّاقوس التي تطورت تطوراً واسعاً وسريعاً فيما بعد.

القسم الثاني: وهو أصل بداية ذُكصولوجيَّة باكر آدام والتي تبدأ بالرُّبع: "أيها النُّور الحقيقي الذي يضيء لكل إنسان آت إلى العالم، أتيت إلى العالم بمحبتك للبَّشر وكل الخليقة تهلَّلت بمجيئك ...".

وهذا القسم يشمل سبع قطع:

القطعة الأولى منه هي ما كانت تصلِّيه الكنيسة عقب فصل إنجيل باكر، حين لم تكن هناك قطع مختصَّة بصلاة باكر كما نعرفها اليوم.

القطعتان الثانية والثالثة: من أجل العذراء.

القطعة الرَّابعة: من أجل الملائكة.

القطعة الخامسة: من أجل الرُّسل.

القطعة السَّادسة: من أجل الشُّهداء.

القطعة السَّابعة: من أجل القدِّيسين.

القسم الثالث: وهو قطعة مضافة فيما بعد على أصل ذُكصولوجيَّة باكر آدام متمثِّلة في القسم الثاني منها. وهذه القطعة المضافة هي من أجل الآباء والأنبياء.

وهي سبعة أرباع، يبدأ الرُّبع الأوَّل بالسَّلام لإيليا النَّبي وأليشع تلميذه. والثاني لمار مرقس الرَّسول، والثالث للعذراء مريم، والرَّابع للبطريرك ساويرس الأنطاكي، والخامس للبابا ديسقوروس، والسَّادس والسَّابع هما: "وكل آبائنا الذين أرضوا الرَّب بركتهم المقدَّسة تكون لنا حارساً أي حرزاً. بصلواتهم أنعم لنا يا الله بمغفرة خطايانا وأعطنا سلاماً".

وواضح من سياق نص هذا القسم الثالث أنه لا ينتمي إلى أصل

ذُكصولوجيَّة باكر آدام، ولا يتوافق مع سماتها، ولكنه أُلحق عليها فيما بعد. وذلك للأسباب التالية:

• ذُكصولوجيَّة باكر آدام تم تأليفها في القرن الخامس كما تذكر كتب الأبصلموديَّة المطبوعة حتى اليوم، والقدِّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م) الذي يرد ذكره في هذا القسم من الذُكصولوجيَّة تنيَّح في القرن السَّادس.

• برغم أن عنوان هذا القسم هو "من أجل الآباء والأنبياء" إلاَّ أنه لم يورد بخصوص الأنبياء سوى رُبع واحد يشير إلى كل من إيليا وأليشع النَّبيين. وبخصوص الآباء لم يورد سوى أنبا ساويرس والبابا ديسقوروس. ومن ثمَّ لم يوفِّق مؤلِّف هذا القسم في جعله شاملاً لكل الأنبياء والآباء.

• القسم الثاني من الذُكصولوجيَّة لا يورد أسماء محدَّدة بذاتها بل يخصص قطعة لكل الشُّهداء، وأخرى لكل القدِّيسين، وهكذا. أما أن يأتي القسم الثالث بأسماء محدَّدة فهو خروج عن السِّمة العامة لروح الذُكصولوجيَّة.

• لم يكن المؤلِّف حاذقاً بما فيه الكفاية، إذ يورد ذكر السيِّدة العذراء بعد مار مرقس الرَّسول، وهكذا فعل مع البابا ديسقوروس حين أورد اسمه بعد القدِّيس ساويرس الأنطاكي.

• ذكر السيِّدة العذراء في هذا القسم جاء غير متوافق مع عنوانه باعتباره قسماً خاصاً بالأنبياء والآباء فقط.

إن الحدس يقودنا إلى الظن أن هذا القسم هو من تأليف أحد رهبان دير القدِّيس أنبا مقار، لأن إيراد اسم البطريرك ديسقوروس بالذَّات، وتالياً للقدِّيس ساويرس الأنطاكي تحديداً هو نفس التَّرتيب المتَّبع في صلاة

تحليل الخدَّام في القدَّاس الإلهي حيث يرد اسم البطريرك القدِّيس ساويرس ومعلّمنا ديسقوروس قبل ذكر القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي. وتكرَّر نفس الشَّئ في مجمع القدَّاس الإلهي، حيث يرد اسم البطريرك القدِّيس ساويرس ويعقبه مباشرة "معلّمنا ديسقوروس" بعد مار مرقس الرَّسول مباشـــرة، وقبل البابا أثناسيوس الرَّسولي. ومن المرجَّح جداً أن مجمع القدَّاس الإلهي في شكله النهائي هو من ترتيب رُهبان دير القدِّيس أنبا مقار.

ختاماً

هكذا اصطفت صفوف المسبِّحين والمنشدين لتسبحة نصف اللَّيـــل والسَّحَر تشدو نشيداً وتسبيحاً متواصلاً للمسيح الإله، وتمجيداً وتطويباً لأم ابن الله، وحبوراً وشفاعة وابتهالاً بأهل بيت الله، فانشقَّت حجـــب ظلام اللَّيل بيقظة وصلاة بني النُّور، وتحوَّل سكون اللَّيل هتافاً يبلغ عنان السَّماء. واكتملت عناصر التَّسبحة اليوميَّة رويداً رويداً حتى صارت على صورتها التي بين أيدينا الآن، كأعظم تراث حفظته الكنيسة عبر الأجيال، لا في نصوص مكتوبة فحسب، ولكن في حياة معاشة وتسبيح لم ينقطع صداه. وها أجراس الكنائس والأديرة تقرع في نصف اللَّيل من كل ليـــل توقظ بني النُّور لتسبيح رب القوَّات. وجيلٌ يسلم جيلاً وديعـــة غاليـــة محفوظة في قلوب وأفواه المصلّين بصلاة وتسبيح ونشيد. وكل جيل ينتظر يوم مجئ العريس ويرقد على رجاء اللِّقاء، مسلّماً وديعة تسبيحه وشـــوقه لما بعده من أجيال. وكما كان هكذا يكون من جيل إلى جيل وإلى دهر الدُّهور آمين.

المراجع

أولاً: المراجع الأجنبيَّة

- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 111.

- Burmester, O.H.E., *The Greek Kirugmata, Versicles and Responses and Hymns in the Coptic Liturgy*, Roma 1936.

- Burmester, O.H.E., *The Turuhat of the Coptic Church*, dans Orientalia Christiana Periodeca (OCP), t. 3, 1937.

- Burmester, O.H.E., *The Turuhat of the Coptic Year*, dans Orientalia Christiana Periodeca (OCP), t. 3, 1937.

- Burmester, O.H.E., *The Turuhat of the Saints*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. IV, (1938) ; (BSAC), t. V, (1939).

- Chadwik, *The Origins of Prime*, J.T.S. 49, 1948.

- Chevetogne, *La prière des Heures des 'Eglises de rite byzantin*, Chevetogne, 1975.

- Cross, F.L., & Livingstone, E.A., *The Oxford Dictionary of the Christian Church (ODCC)*, (2nd edition), 1988.

- *Encyclopedia of Religion and Ethics*, Vol. 9.

- Liddle and Scott, *Greek - English Lexicon*, Oxford, 1986.

- Mateos, J., S.I., *L'office Dominical de La Résurrection, Revue du Clergé Africain*, 1964.

- Mateos, J., S.I., *La Vigile Cathédrale chez Egèrie*,

- Mateos, J., S.I., *Le Tèmoignage de Sévère d'Antioche (d. 538) sur La Vigil Cathédral*, Melto 4, 1968.

- Mateos, J., S.I., *Lelya - Sapra, Les Matines Chaldéenes, Maronites et Syriennes*, dans Orientalia Christiana Periodeca (OCP), t. 26, 1960.

- Mateos, J., S.I., *Les Différentes Expèces de Vigiles dans Le Rite*

Chaldèen, (OCP), t. 27, 1961.

- Mateos, J., S.I., *Office de Miniut et Office du Matin chez St. Athanase*, dans Orientalia Christiana Periodeca (OCP), t. 28, 1962.

- Orientalia Christiana Periodeca *(OCP)*, t. 42, 1976.

- Robert Taft, S.J., *The Liturgy of the Hours in the Christian East: Origins, Meaning, Place in the Life of the Church*, Cochin: K. C. M. Press, 1984.

- Yassa Abd Al-Masih, *Doxologies in the Coptic Church*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 4, 1938 & t. 5, 1939. & t. 6, Le Caire, 1940.

- Yassa Abd Al-Masih, *The Canon of The Resurrection*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 14, Le Caire, 1950.

- Yassa Abd Al-Masih, *The Hymn of the Three Children in the Furnace*, dans Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 12, Le Caire, 1946 - 1947.

ثانياً: المراجع العربيَّة

– أقلاديوس يوحنا (بك) لبيب، قاموس اللغة القبطيَّة المصريَّة، القاهرة، سنة ١٦١١ش/ ١٩٨٥م.

– رهبان دير القدِّيس أنبا مقار، التجسُّد والميلاد في تعليم آباء الكنيسة، دار مجلة مرقس، القاهرة ١٩٩٤م.

– فؤاد حسنين علي (دكتور)، التَّوراة الهيروغليفية.

– كتاب الأبصلمودية المقدَّسة السنويَّة، اهتم بطبعه القس مينا البرموسي وكيل بطريركيَّة الإسكندريَّة، سنة ١٩٠٨م.

– كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة الكيهكيَّة، اهتم بطبعه أقلاديوس (بك) لبيب، بمطبعة عين شمس، مصر، سنة ١٩١١ للميلاد.

– كتاب الإبصاليَّات والطروحات الواطس والآدام المستعمل تلاوتها في جميع

كنائس الكرازة المرقسيَّة، اهتم بطبعه بعد ضبط ألفاظه بمقابلتها على عدة نسخ قديمة بخط اليد: القُمُّص فيلوثاؤس المقاري سكرتير غبطة الأب البطريرك، والمعلِّم ميخائيل جرجس مرتل الكنيسة المرقسيَّة بمصر. في عهد وبإذن غبطة البابا الأقدس الأنبا كيرلس الخامس بابا الكرازة المرقسيَّة الكلي الطوبى والجزيل الاحترام. الطَّبعة الأولى سنة ١٦٣٠ش/ ١٩١٣م. مطبعة القدِّيس مكاريوس بمصر القديمة.

- كتاب السَّواعي الكبير، منشورات النُّور، ١٩٨٧م.

- كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات الواطس والآدام التي تُتلى في برموني وعيدي الميلاد والغطاس المجيدين حسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، طُبع بأمر نيافة الأب الجليل الأنبا يؤانس مطران الإسكندريَّة والبحيرة والمنوفيَّة ووكيل الكرازة المرقسيَّة الجزيل الاحترام. وفي عهد صاحب الغبطة الجالس على السُّدة الرسوليَّة بابا وبطريرك الكرازة المرقسيَّة الكلي الطوبي والاحترام الأنبا كيرلس الخامس الثاني عشر بعد المائة من خلفاء القدِّيس مرقس الرَّسول. عني بتصحيحه وتنقيحه وضبطه وطبعه القُمُّص باخوم البرموسي وكيل بطريركخانة إسكندريَّة والشَّماس عريان فرج مدرِّس اللغة القبطيَّة بالمدارس المرقسيَّة بالإسكندريَّة. سنة ١٦٣٧ للشهداء/ ١٩٢٠ ميلادية. مطبعة الشَّمس بشارع كلوت بك بأوَّل الدَّرب الواسع نمرة ٤٠ بمصر.

- كتاب دلاَّل وترتيب جمعة الآلام وعيد الفصح المجيد حسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، طُبع بأمر غبطة السيِّد البابا المعظم الأنبا كيرلس الخامس ١١٢ في عدد باباوات الكرسي المرقسي الإسكندري، عني بتصحيحه وتنقيحه وضبطه وطبعه القُمُّص فيلوثاؤس المقاري، والقُمُّص برنابا البرموسي، والمعلم ميخائيل جرجس مرتل الكنيسة المرقسيَّة الكبرى، سنة ١٦٣٧للشُّهداء/ ١٩٢٠ميلاديَّة.

- كتاب دورة عيدي الصَّليب والشَّعانين وطروحات الصَّوم الكبير والخمسين حسب ترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، طُبع على نفقة القُمُّص عطاالله أرسانيوس المحرَّقي. طُبع بأمر صاحب النيافة الأنبا أثناسيوس مطران بني سويف القائمقام البطريركي، سنة ١٩٥٨م، سنة ١٦٧٥للشُّهداء.

- كيرليان، دراسات مختلفة بمناسبة مرور ١٥٠٠ سنة على وفاة كيرلس الإسكندري، الإكليريكيَّة الفرنسيسكانيَّة الشَّرقيَّة، الجيزة، مصر ١٩٤٧م.

- مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة قبطي فقط رقم (١٠٧ طقس)، بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، تاريخ نساخته ١٨٠٤م.

- مخطوط أبصلموديَّة كيهكيَّة قبطي عربي رقم (٩٨ طقس)، بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، تاريخ نساخته ١٧٨١م.

- مخطوط كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني.

- مراد كامل (الدُّكتور)، العصر القبطي في تاريخ الحضارة المصريَّة، القاهرة، ١٩٦٣م.

- معوَّض داود عبد النُّور، قاموس اللُّغة القبطيَّة، الطَّبعة الثانية، ٢٠٠٠م.

- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، تعريب القُمُّص مرقص داود، الطَّبعة الثانية ١٩٧٩م.

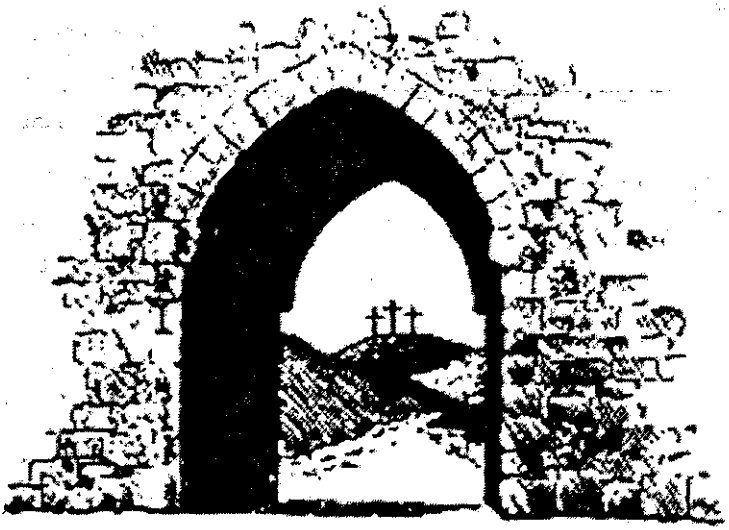

الدُّرَّة الطَّقسيَّة للكنيسة القبطيَّة
بين الكنائس الشَّرقيَّة

للرَّاهب القس أثناسيوس المقاري
www. Athanase. net

• **السِّلسِّلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة**

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
١/١	الدِّيداخي أي تعليم الرُّسل (طبعة ثانية)	يناير ٢٠٠٦م
١/٢	التَّقليد الرَّسولي	مايو ٢٠٠٠م
١/٣	المراسيم الرسوليَّة، دارسة موجزة – نص الكتاب الثامن	أكتوبر ٢٠٠٤م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة، الكتابات اليونانيَّة.	يناير ٢٠٠٣م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة، الكتابات القبطيَّة	يوليو ٢٠٠٦م
١/١٠	قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة	يناير ٢٠٠٣م
١/١١	قوانين هيبوليتس القبطيَّة	أكتوبر ٢٠٠٤م

• **السِّلسِّلة الثانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة**

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٢/١	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الأول: رؤية عامة – كنيسة المشرق الأشوريَّة	يناير ٢٠٠٠م
٢/٢	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الثاني: كنيسة مصر	لم يصدر بعد
٢/٣	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الثالث: الكنائس الشرقيَّة القديمة	مايو ٢٠٠٠م
٢/٤	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الرابع: الكنائس البيزنطيَّة	يناير ٢٠٠٥م
٢/٥	الكنيسة، مبناها ومعناها	يناير ٢٠٠٤م

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٢/٦	مُعجَم المصطَلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٤م
٢/٧	مُعجَم المصطَلحات الكنسيَّة، الجزء الثاني (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٥م
٢/٨	مُعجَم المصطَلحات الكنسيَّة، الجزء الثالث	نوفمبر ٢٠٠٣م

- **السِّلسِّلة الثالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة**

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/١	معموديَّة الماء والرُّوح	يناير ٢٠٠٣م
٣/٢	سرّ الرُّوح القُدُس والميرون المقدَّس	لم يصدر بعد
٣/٣	تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر	نوفمبر ٢٠٠٥م
٣/٤	صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر	يناير ٢٠٠٦م
٣/٧	الدِّبلة والإكليل	مارس ٢٠٠٥م
٣/٨	الأجبية أي صلوات السَّواعي	إبريل ٢٠٠٦م

يُطلب من

مكتبة مجلَّة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – القاهرة ت/ ٥٧٧٠٦١٤

الإسكندريَّة: ٨ شارع جرين من محرَّم بك ت/ ٤٩٥٢٧٤٠

والمكتبات المسيحيَّة والكنسيَّة

كما يُطلب من

الأستاذ المحاسب **مينا سمير أنطون** ت/ ٠١٠١١١٦٦١٨

E-mail: minasas2001@yahoo.com

ثمن النسخة ١٤ جنيهاً

التَّسبيح والصَّلاة

في الكنيسة ليس هما أحد أوجه الأنشطة الرُّوحيَّة فيها، لأنها بدونهما لا تعيش. فالتَّسبيح والصلاة هما رئتا الكنيسة اللَّتان تتنفَّس بهما حياة الله. وهما سر بقاء الكنيسة حيَّة، لأنهما هواؤها الذي تتنفَّسه، وغذاؤها الذي تقتاته، وماؤها الذي ترتويه.

والتَّسبيح شفاءٌ للنَّفس وعلاجٌ للحزن وجمعٌ للحواس وقهرٌ للشَّيطان وتقديم الحمد ذبيحة لله، واستجلاب المعونة السَّمائيَّة ومؤازرة أرواح القدِّيسين. وأعظم ما في التَّسبيح الجماعي أن فيه يختفي الكُل في الكُل ليظهر صوت الكنيسة فقط كجماعة واحدة تسبِّح معاً تسبحة الغلبة والخلاص. فالكرامة لله تكون بتقديم الحمد له بالتَّسابيح والألحان لأنه خلقنا وخلَّصنا واقتنانا لنفسه.